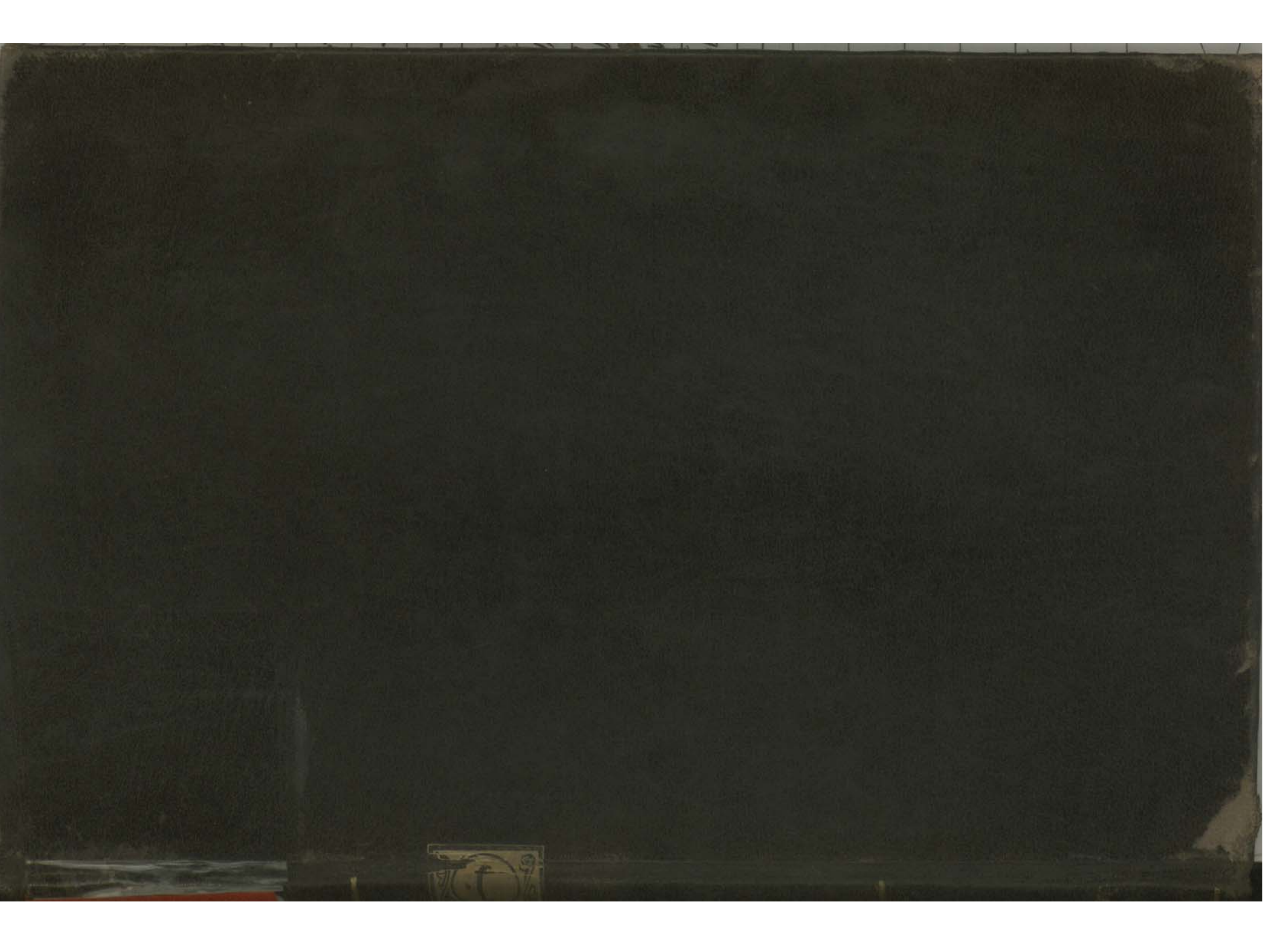
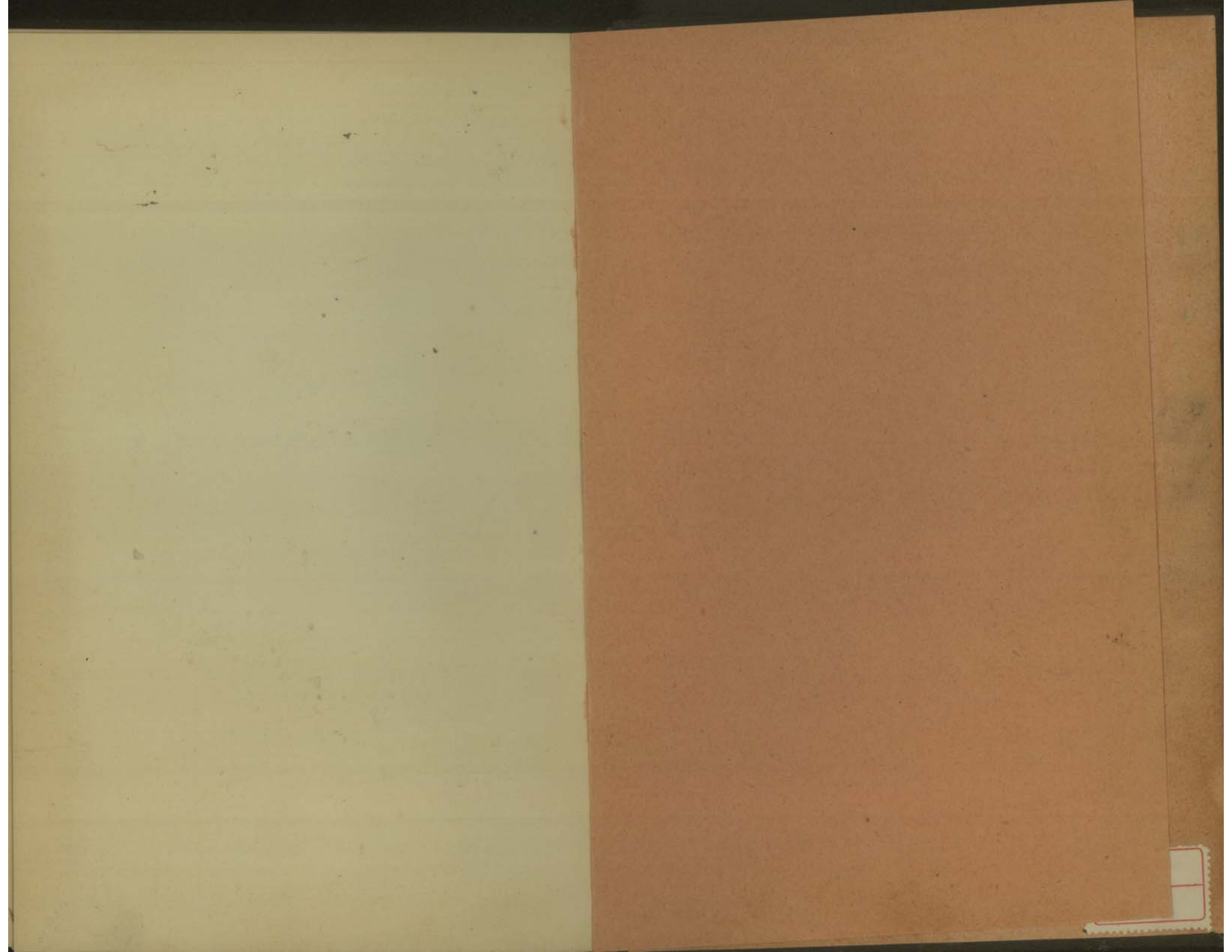
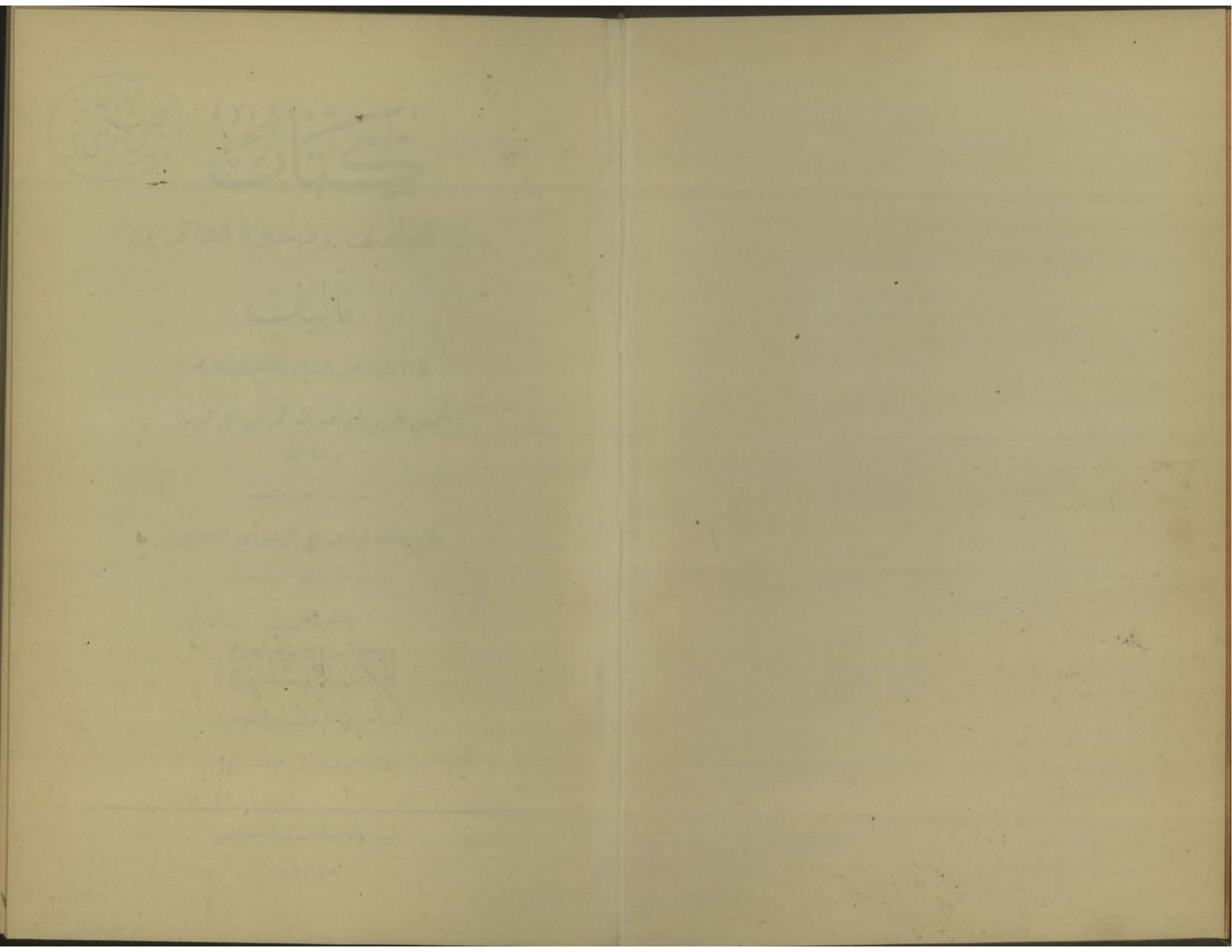








كتاب

عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين

تأليف

﴿ الامام ، محيي السنة ، وقامع البدعة ﴾

شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن قيم الجوزية

رحمه الله

طبع بنفقة فهد بن علي الرشودي النجدي

يطلب من

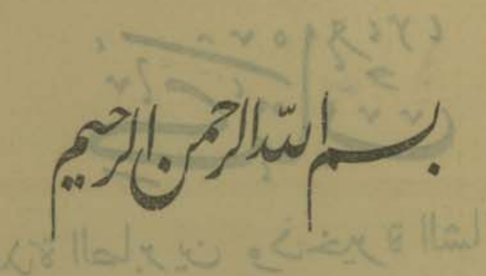
المكتبة السلفية

لصاحبيها : (محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان)

صندوق البوسطة رقم ٣٧٥ — بمصر

طبع بالمطبعة السلفية — بمصر

١٣٤٠ هـ



وبه نستعين

الحمد لله الصبور الشكور . العلى الكبير . السميع البصير . العليم القدير
الذى شملت قدرته كل مقدور . وجرت مشيئته فى خلقه بتصاريف الامور
وأسمعت دعوته لليوم الموعود أصحابَ القبور . قدّر مقادير الخلائق
وآجالهم ، وكتب آثارهم وأعمالهم ، وقسم بينهم معايشهم وأموالهم ،
وخلق الموت والحياة ليبلوهم أيهم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . القاهر
القادر فكل عسير عليه يسير . وهو المولى النصير . فنعم المولى ونعم النصير .
يسبح له ما فى السموات وما فى الارض ، له الملك وله الحمد وهو على كل
شىء قدير . هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ، والله بما تعملون
بصير . خلق السموات والارض بالحق ، وصوركم فأحسن صوركم ، واليه
المصير . يعلم ما فى السموات والارض ، ويعلم ما تسرّون وما تعلنون ،
والله عليم بذات الصدور . وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له
اله جل عن الشبيه والنظير ، وتعالى عن الشريك والظهير . وتقدّس عن تعطيل
الملحدين ، كما تنزه عن شبه المخلوقين ، فليس كمثله شىء وهو السميع البصير .
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وخيرته من بريته ، وصفوته من خليقته ،
وأمينه على وحيه ، وسفيره بينه وبين عباده ، أعرف الخلق به ، وأقومهم
بخشيته ، وأنصحهم لأمته ، وأصبرهم لحكمه ، وأشكرهم لنعمه ، وأقربهم

اليه وسيلة ، وأعلاهم عنده منزلة ، وأعظمهم عنده جاهاً ، وأوسعهم عنده
شفاعة . بعثه الى الجنة داعيا . وللايمان مناديا . وفى مرضاته ساعيا . وبالمعروف
آمراً وعن المنكر ناهيا . فبلغ رسالات ربه . وصدع بأمره . وتحمل فى
مرضاته ما لم يتحمله بشر سواه . وقام لله بالصبر والشكر حق القيام حتى
بلغ رضاه . فثبت فى مقام الصبر حتى لم يلحقه أحد من الصابرين . وترقى
فى درجة الشكر حتى علا فوق جميع الشاكرين . فحمده الله وملائكته
ورسله وجميع المؤمنين . ولذلك خص بلواء الحمد دون جميع العالمين . فآدم
تحت لوائه ومن دونه من الانبياء والمرسلين . وجعل الحمد فاتحة كتابه
الذى أنزله عليه كذلك فيما بلغنا وفى التوراة والانجيل ، وجعله آخر دعوى
أهل ثوابه الذين هداهم على يديه ، وسمى أمته الحامدين قبل أن يخرجهم
الى الوجود ، لحمدهم له على السراء والضراء ، والشدة والرخاء . وجعلهم
أسبق الأمم الى دار الثواب والجزاء ، فأقرب الخلق الى لوائه أكثرهم حمداً
لله وذكرا . كما أن أعلاهم منزلة أعظمهم صبرا وشكرا . فصلى الله وملائكته
وانبياؤه ورسله وجميع المؤمنين عليه كما وحد الله وعرّف به ودعا اليه ، وسلم
تسليما كثيرا

أما بعد فان الله سبحانه جعل الصبر جواداً لا يكبو . وصارماً لا ينبو .
وجنداً غالبا لا يهزم . وحصناً حصينا لا يهدم ولا يثلم . فهو والنصر
اخوان شقيقان

رضيعى لبان ثدى أم تقاسما   بأسحم داج عوض لا يتفرق

فالنصر مع الصبر . والفرج مع الكرب . والعسر مع اليسر . وهو
أنصر لصاحبه من الرجال بلا عدة ولا عدد . ومحله من الظفر كمحل الرأس

من الجسد. ولقد ضمن الوفى الصادق لأهله فى محكم الكتاب. انه يوفيهم أجرهم بغير حساب . وأخبر أنه معهم بهدايته ونصره العزيز وفتحه المبين. فقال تعالى « واصبروا ان الله مع الصابرين »فذهب الصابرون بهذه المعية بخير الدنيا والآخرة . وفازوا بها بنعمه الباطنة والظاهرة . وجعل سبحانه الامامة فى الدين منوطة بالصبر واليقين. فقال تعالى وبقوله اهتدى المهتدون. « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ». وأخبر أن الصبر خير لأهله مؤكداً باليمين . فقال تعالى « ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » . وأخبر أن مع الصبر والتقوى لا يضر كيد العدو ولو كان ذا تسليط . فقال تعالى « وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ان الله بما يعملون محيط ». وأخبر عن نبيه يوسف الصديق أن صبره وتقواه أوصلاه الى محل العز والتمكين. فقال « انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » . وعلق الفلاح بالصبر والتقوى. فعقل ذلك عنه المؤمنون. فقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ». وأخبر عن محبته لأهله وفى ذلك أعظم ترغيب للراغبين. فقال تعالى « والله يحب الصابرين ». ولقد بشر الصابرين بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون . فقال تعالى« وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون » . وأوصى عباده بالاستعانة بالصبر والصلاة على نوائب الدنيا والدين . فقال « واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين » وجعل الفوز بالجنة والنجاة من النار لا يحظى به الا الصابرون. فقال تعالى « انى جزيتهم اليوم بما صبروا انهم هم الفائزون ». وأخبر أن

الرغبة فى ثوابه والاعراض عن الدنيا وزينتها لا ينالها الا أولو الصبر المؤمنون فقال تعالى« وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها الا الصابرون » . وأخبر تعالى ان دفع السيئة بالتى هى أحسن تجعل المسىء كأنه ولى حميم. فقال « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كانه ولى حميم ». وان هذه الخصلة لا يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم . وأخبر سبحانه خبراً مؤكداً بالقسم « ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » وقسم خلقه قسمين أصحاب ميمنة وأصحاب مشأمة وخص أهل الميمنة أهل التواصى بالصبر والمرحمة، وخص بالانتفاع بآياته أهل الصبر وأهل الشكر تميزاً لهم بهذا الحظ الموفور. فقال فى أربع آيات من كتابه « ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ». وعلق المغفرة والاجر بالعمل الصالح والصبر وذلك على من يسره عليه يسير فقال « الا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » . وأخبر ان الصبر والمغفرة من العزائم التى تجارة أربابها لا تبور. فقال « ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور » وأمر رسوله بالصبر لحكمه وأخبر ان صبره انما هو به وبذلك جميع المصائب تهون. فقال «واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا » وقال « واصبر وماصبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون . ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »

والصبر اخية المؤمن التى يجول ثم يرجع اليها ، وساق ايمانه الذى لا اعتماد له الا عليها . فلا ايمان لمن لا صبر له وان كان فايمان قليل فى

غاية الضعف ، وصاحبه ممن يعبد الله على حرف . فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ولم يحظ منهما الا بالصفقة الخاسرة. فخير عيش أدركه السعداء بصبرهم وترقوا الى أعلى المنازل بشكرهم فساروا بين جناحى الصبر والشكر الى جنات النعيم . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

(فصل)

ولما كان الايمان نصفين نصف صبر ونصف شكر كان حقيقاً على من نصح نفسه وأحب نجاتها وآثر سعادتها أن لا يهمل هذين الاصلين العظيمين ولا يعدل عن هذين الطريقين القاصدين وان يجعل سيره الى الله بين هذين الطريقين ليجعله الله يوم لقائه مع خير الفريقين

فكذلك وضع هذا الكتاب للتعريف بشدة الحاجة والضرورة اليهما ، وبيان توقف سعادة الدنيا والآخرة عليهما . فجاء كتاباً جامعا حاويا نافعاً . فيه من الفوائد ما هو حقيق على أن يعض عليه بالنواجذ ، وتثنى عليه الخناصر ، ممتعا لقاريه ، صريحا للناظر فيه ، مسليا للحزين ، منهضا للمقصرين ، محرّضا للمشمرين ، مشتملا على نكات حسان من تفسير القرآن ، وعلى أحاديث نبوية معزوة الى مظانها ، وآثار سلفية منسوبة الى قائلها ، ومسائل فقهية حسان مقررة بالدليل ، ودقائق سلوكية على سواء السبيل . لا تخفى معرفة ذلك على من فكر وأحضر ذهنه. فان فيه ذكر أقسام الصبر ووجوه الشكر وأنواعه وفصل النزاع فى التفضيل بين الغنى الشاكر والفقير الصابر وذكر حقيقة الدنيا وما مثلها الله ورسوله والسلف الصالح به والكلام على سر هذه الامثال ومطابقتها لحقيقة

الحال وذكر ما يذمّ من الدنيا ويحمد، وما يقرّب منها الى الله ويبعد، وكيف يشقى بها من يشقى ويسعد بها من يسعد. وغير ذلك من الفوائد التى لا تكاد تظفر بها فى كتاب سواه . وذلك محض منة الله على عبده وعطية من بعض عطاياه . فهو كتاب يصلح للملوك والامراء والاغنياء والفقراء والصوفية والفقهاء ، ينهض القاعد الى المسير ، ويؤنس السائر فى الطريق ، وينبه السالك على المقصود . ومع هذا فهو جهد المقل وقدرة المفلس، حذر فيه من الداء وان كان من أهله . ووصف فيه الدواء وان لم يصبر على تناوله لظلمه وجهله . وهو يرجو أكرم الاكرمين وأرحم الراحمين أن يغفر له غيه لنفسه بنصيحته لعباده المؤمنين. فما كان فى الكتاب من صواب فمن الله وحده فهو المحمود والمستعان . وما كان فيه من خطأ فمن مصنفه ومن الشيطان. والله برىء منه ورسوله . وهذه بضاعة مؤلفه المزجاة تساق اليك . وسلعته تعرض عليك . فلقاريه غنمه . وعلى مؤلفه غرمه . وبنات أفكاره تزف اليك فان وجدت حرا كريما كان بها أسعد. والا فهى خود تزف الى عنين مقعد. وقد جعلته ستة وعشرين بابا وخاتمة:

(سميته عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين) والله المسئول أن يجعله خالصاً لوجهه مدنيا من رضاه وأن ينفع به مؤلفه وكاتبه وقارئه انه سميع الدعاء وأهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل

الباب الاول ـ فى معنى الصبر لغة

واشتقاق هذه اللفظة وتصريفها

أصل هذه الكلمة هو المنع والحبس ، فالصبر حبس النفس عن الجزع ، واللسان عن التشكى ، والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب ونحوهما . ويقال صبر يصبر صبراً وصبر نفسه قال تعالى « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم » وقال عنترة :

فصبرت عارفةً لذلك حرةً ترسو اذا نفس الجبان تطلع

يقول حبست نفسا عارفة وهى نفس حر يأنف لانفس عبد لا أنفة

له وقوله ترسو أى تثبت وتسكن اذا خفت نفس الجبان واضطربت. ويقال صبرت فلانا اذا حبسته، وصبّرته بالتشديد اذا حملته على الصبر. وفى حديث الذى أمسك رجلا وقتله آخر « يقتل القاتل ويصبر الصابر » (١) أى يحبس للموت كما حبس من أمسكه للموت. وصبرت الرجل اذا قتلته صبراً أى أمسكته للقتل وصبّرته أيضاً وأصبرته اذا حبسته للحلف ومنه الحديث الصحيح « من حلف على يمين صبر ليقتطع بها مال امرء مسلم لقى الله وهو عنه معرض » ومنه الحديث الذى فى القسامة «ولا تصبر يمينه حيث تصبر الايمان» والمصبورة اليمين المحلوف عليها. وفى الحديث « نهى عن المصبورة» وهى الشاة والدجاجة ونحوهما تصبر للموت فتربط فترمى حتى تموت

وفعل هذا الباب صبرت أصبر بالفتح فى الماضى والكسر فى المستقبل وأما صبرت اصبُر بالضم فى المستقبل فهو بمعنى الكفالة والصبير الكفيل كأنه حبس نفسه للغرم ومنه قولهم اصبرنى أى جعلنى كفيلا وقيل أصل الكلمة من الشدة والقوة. ومنه الصبر للدواء المعروف لشدة مرارته وكراهته. قال الاصمعى اذا لقى الرجل الشدة بكمالها قيل لقيها بأصبارها. ومنه الصبر بضم الصاد للارض ذات الحصب لشدتها وصلابتها. ومنه سميت الحرة أم صبار ومنه قولهم وقع القوم فى أمر صبور بتشديد الباء أى أمر شديد. ومنه صبارة الشتاء بتخفيف الباء وتشديد الراء لشدة برده. وقيل هو مأخوذ من الجمع والضم فالصابر يجمع نفسه ويضمها عن الهلع والجزع ومنه صبرة الطعام وصبارة الحجارة. والتحقيق ان فى الصبر المعانى الثلاثة المنع والشدة والضم. ويقال صبر اذا أتى بالصبر، وتصبر اذا تكلفه واستدعاه

(١) فى النهاية لابن الاثير (مادة صبر) : « اقتلوا القاتل واصبروا الصابر »

واصطبر اذا اكتسبه وتعمله، وصابر اذا وقف خصمه فى مقام الصبر، وصبر نفسه وغيره بالتشديد اذا حملها على الصبر. واسم الفاعل صابر وصبار وصبور ومصابر ومصطبر. فصابر من صابر ومصطبر من اصطبر وصابر من صبر وأما صبار وصبور فمن اوزان المبالغة من الثلاثى كضرّاب وضروب والله أعلم

الباب الثانى - فى حقيقة الصبر وكلام الناس فيه

قد تقدم بيان معناه لغة. وأما حقيقته فهو خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل مالا يحسن ولا يجمل. وهو قوة من قوى النفس التى بها صلاح شأنها وقوام أمرها. وسئل عنه الجنيد بن محمد فقال « تجرع المرارة من غير تعبس » وقال ذو النون « هو التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، واظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة » وقيل « الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الادب» وقيل « هو الغنى فى البلوى بلا ظهور شكوى » وقال ابو عثمان « الصبار هو الذى عود نفسه الهجوم على المكاره» وقيل « الصبر المقام مع البلاء بحسن الصحبة كالمقام مع العافية » ومعنى هذا ان لله على العبد عبودية فى عافيته وفى بلائه فعليه ان يحسن صحبة العافية بالشكر وصحبة البلاء بالصبر. وقال عمرو بن عثمان المكى « الصبر هو الثبات مع الله وتلقى بلائه بالرحب والدعة » ومعنى هذا انه يتلقى البلاء بصدر واسع لا يتعلق بالضيق والسخط والشكوى. وقال الخواص « الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة». وقال رويم « الصبر ترك الشكوى » فسره

بلازمه . وقال غيره « الصبر هو الاستعانة بالله » . وقال أبو علي « الصبر كاسمه » وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه « الصبر مطية لا تكبو » وقال أبو محمد الجريري « الصبر أن لا يفرق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما » قلت وهذا غير مقدور ولا مأمور ، فقد ركب الله الطباع على التفريق بين الحالتين ، وانما المقدور حبس النفس عن الجزع لا استواء الحالتين عند العبد، وساحة العافية أوسع للعبد من ساحة الصبر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الدعاء المشهور « ان لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي » ولا يناقض هذا قوله صلى الله عليه وسلم « وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » فان هذا بعد نزول البلاء ليس للعبد أوسع من الصبر ، وأما قبله فالعافية أوسع له. وقال أبو علي الدقاق « حدّ الصبر أن لا يعترض على التقدير » فأما اظهار البلاء على غير وجه الشكوى فلا ينافي الصبر قال الله تعالى في قصة أيوب « انا وجدناه صابراً » مع قوله « مسني الضر » قلت فسر اللفظة بلازمها وأما قوله على غير وجه الشكوى فالشكوى نوعان احدهما الشكوى الى الله فهذا لا ينافي الصبر كما قال يعقوب « انما أشكو بثي وحزني الى الله » مع قوله « فصبر جميل » وقال أيوب « مسني الضر » مع وصف الله له بالصبر وقال سيد الصابرين صلوات الله وسلامه عليه « اللهم أشكو اليك ضعف قوتي وقلة حيلتي الخ » وقال موسى صلوات الله وسلامه عليه « اللهم لك الحمد واليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة الا بك »

والنوع الثاني — شكوى المبتلى بلسان الحال أو المقال فهذا لا تجامع

الصبر بل يضاده ويبطله فالفرق بين شكواه والشكوى اليه. وسنعود لهذه المسئلة في باب اجتماع الشكوى والصبر وافتراقهما ان شاء الله تعالى

وقيل « الصبر شجاعة النفس » ومن ها هنا أخذ القائل قوله « الشجاعة صبر ساعة » وقيل « الصبر ثبات القلب عند موارد الاضطراب » والصبر والجزع ضدان ولهذا يقابل أحدهما بالآخر قال تعالى عن أهل النار « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص » والجزع قرين العجز وشقيقه والصبر قرين الكيس ومادته . فلو سئل الجزع من أبوك لقال العجز ولو سئل الكيس من أبوك لقال الصبر . والنفس مطية العبد التي يسير عليها الى الجنة أو النار والصبر لها بمنزلة الخطام والزمام للمطية فان لم يكن للمطية خطام ولا زمام شردت في كل مذهب . وحفظ من خطب الحجاج « اقدعوا هذه النفوس فانها طلعة الى كل سوء » [1] فرحم الله امرءاً جعل لنفسه خطاماً وزماماً فقادها بخطامها الى طاعة الله وصرفها بزمامها عن معاصي الله فان الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه

قلت والنفس فيها قوتان قوة الاقدام وقوة الاحجام ، فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الاقدام مصروفة الى ماينفعه وقوة الاحجام امساكاً عما يضره. ومن الناس من تكون قوة صبره على فعل ما ينتفع به وثباته

---

(١) اورده ابن الاثير في النهاية عن الحجاج « اقدعوا هذه الانفس فانها أسأل شيء اذا اعطيت وامنع شيء اذا سئلت » أي كفوها عما تتطلع اليه من الشهوات. ومنه حديث الحسن « اقدعوا هذه النفوس فانها طلعة ». وفي البيان والتبيين للجاحظ (١ : ١٦٢ الطبعة الثانية) : عن حفص قال سمعت عيسى بن عمر يقول سمعنا الحسن يقول اقدعوا هذه النفوس فانها طلعة . واعصوها فانكم ان اطعتموها تنزع بكم الى غاية الشر . وحادثوها بالذكر فانها سريعة الدثور »

عليه أقوى من صبره عما يضره فيصبر على مشقة الطاعة ولا صبر له عن
داعى هواه الى ارتكاب مانهى عنه. ومنهم من تكون قوة صبره عن
المخالفات أقوى من صبره على مشقة الطاعات . ومنهم من لاصبر له على
هذا ولاعلى هذا. وافضل الناس اصبرهم على النوعين فكثير من الناس يصبر
على مكابدة قيام الليل فى الحر والبرد وعلى مشقة الصيام ولايصبر عن نظرة
محرمة وكثير من الناس يصبر عن النظر وعن الالتفات الى الصور ولاصبر له
على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وجهاد الكفار والمنافقين بل هو
اضعف شىء عن هذا واعجزه. واكثرهم لاصبر له على واحد من الامرين
واقلهم اصبرهم فى الموضعين. وقيل « الصبر ثبات باعث العقل والدين فى
مقابلة باعث الهوى والشهوة » ومعنى هذا ان الطبع يتقاضى مايحب وباعث
العقل والدين يمنع منه ، والحرب قائمة بينهما وهو سجال ومعرك هذا
الحرب قلب العبد والصبر والشجاعة والثبات

الباب الثالث – فى بيان اسماء الصبر بالاضافة الى متعلقه

لما كان الصبر المحمود هو الصبر النفسانى الاختيارى عن اجابة
داعى الهوى المذموم كانت مراتبه واسماؤه بحسب متعلقه . فانه ان كان
صبرا عن شهوة الفرج المحرمة سمى عفة وضدها الفجور والزنا والعهر، وان
كان عن شهوة البطن وعدم التسرع الى الطعام او تناول مالايجمل منه
سمى شرف نفس وشبع نفس وسمى ضده شرها ودناءة ووضاعة نفس ،
وان كان عن اظهار مالا يحسن اظهاره من الكلام سمى كتمان سر وضده
اذاعة وافشاء او تهمة او فحشاء او سبا او كذبا او قذفا . وان كان عن

فضول العيش سمى زهدا وضده حرصاً، وان كان على قدر يكفى من الدنيا
سمى قناعة وضدها الحرص أيضاً ، وان كان عن اجابة داعى الغضب سمى
حلما وضده تسرعاً . وان كان عن أجابة داعى العجلة سمى وقارا وثباتاً
وضده طيشاً وخفة . وان كان عن اجابة داعى الفرار والهرب سمى
شجاعة وضده جبناً وخوراً. وان كان عن اجابة داعى الانتقام سمى عفوا
وصفحا وضده انتقاماً وعقوبة. وان كان عن اجابة داعى الامساك والبخل
سمى جودا وضده بخلا . وان كان عن اجابة داعى الطعام والشراب فى
وقت مخصوص سمى صوماً . وان كان عن اجابة داعى العجز والكسل
سمى كيساً . وان كان عن اجابة داعى إلقاء الكل على الناس وعدم حمل
كلهم سمى مروءة . فله عند كل فعل وترك اسم يخصه بحسب متعلقه .
والاسم الجامع لذلك كله (الصبر) . وهذا يدلك على ارتباط مقامات الدين
كلها بالصبر من أولها الى أخرها. وهكذا يسمى عدلا اذا تعلق بالتسوية
بين المتماثلين وضده الظلم . ويسمى سماحة اذا تعلق ببذل الواجب والمستحب
بالرضا والاختيار . وعلى هذا جميع منازل الدين

الباب الرابع – فى الفرق بين الصبر والتصبر والاصطبار والمصابرة

الفرق بين هذه الاسماء بحسب حال العبد فى نفسه وحاله مع غيره
فان حبس نفسه ومنعها عن اجابة داعى مالا يحسن ان كان خلقا له وملكة
سمى صبرا. وان كان بتكلف وتمرن وتجرع لمرارته سمى تصبرا كما يدل عليه
هذا البناء لغة ، فانه موضوع للتكلف كالتحلم والتشجع والتكرم والتحمل
ونحوها ، واذا تكلفه العبد واستدعاه صار سجية له كما فى الحديث عن

النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ومن يتصبر يصبره الله » وكذلك العبد يتكلف التعفف حتى يصير التعفف (١) له سجية، وكذلك سائر الاخلاق وهى مسألة اختلف فيها الناس هل يمكن اكتساب واحد منها أو التخلق لا يصير خلقا أبداً، كما قال الشاعر :

يراد من القلب نسيانكم ... وتأبى الطباع على الناقل

وقال آخر : ياايها المتحلى غير شيمته ... ان التخلق يأتى دونه الخلق

وقال آخر : ... فقبح التطبع شيمة المطبوع

قالوا وقد فرغ الله سبحانه من الخلق والخلق والرزق والاجل. وقالت طائفة أخرى بل يمكن اكتساب الخلق كما يكتسب العقل والحلم والجود والسخاء والشجاعة والوجود شاهد بذلك. قالوا والمزاولات تعطى الملكات ومعنى هذا ان من زاول شيئا واعتاده وتمرن عليه صار ملكة له وسجية وطبيعة. قالوا والعوائد تنقل الطبائع فلايزال العبد يتكلف التصبر حتى يصير الصبر له سجية كما انه لايزال يتكلف الحلم والوقار والسكينة والثبات حتى تصير له اخلاقا بمنزلة الطبائع. قالوا وقد جعل الله سبحانه فى الانسان قوة القبول والتعلم فنقلُ الطبائع عن مقتضياتها غير مستحيل، غير ان هذا الانتقال قد يكون ضعيفا فيعود العبد الى طبعه بأدنى باعث، وقد يكون قويا ولكن لم ينقل الطبع فقد يعود الى طبعه اذا قوى الباعث واشتد وقد يستحكم الانتقال بحيث يستحدث صاحبه طبعا ثانيا فهذا لا يكاد يعود الى طبعه الذى انتقل عنه

(١) وفى نسخة « العفاف » على ما فى هامش الاصل

وأما الاصطبار فهو ابلغ من التصبر فانه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب. فالتصبر مبدأ الاصطبار كما أن التكسب مقدمة للاكتساب فلايزال التصبر يتكرر حتى يصير اصطبارا

واما المصابرة فهى مقاومة الخصم فى ميدان الصبر فانها مفاعلة تستدعى وقوعها بين اثنين كالمشاتمة والمضاربة. قال الله تعالى « يا ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » فأمرهم بالصبر وهو حال الصابر فى نفسه والمصابرة وهى حاله فى الصبر مع خصمه والمرابطة وهى الثبات واللزوم والاقامة على الصبر والمصابرة. فقد يصبر العبد ولا يصابر وقد يصابر ولا يرابط وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى. فأخبر سبحانه ان ملاك ذلك كله التقوى وان الفلاح موقوف عليها فقال « واتقوا الله لعلكم تفلحون » فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذى يخاف هجوم العدو منه فى الظاهر فهى لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته

الباب الخامس - فى انقسامه باعتبار محله

الصبر ضربان ضرب بدنى وضرب نفسانى. وكل منهما نوعان اختيارى واضطرارى. فهذه أربعة أقسام

الاول البدنى الاختيارى كتعاطى الاعمال الشاقة على البدن اختيارا أو ارادة

الثانى البدنى الاضطرارى كالصبر على الم الضرب والمرض والجراحات والبرد والحر وغير ذلك

الثالث النفسانى الاختيارى كصبر النفس عن فعل مالا يحسن فعله شرعا ولا عقلا

الرابع النفسانى الاضطرارى كصبر النفس عن محبوبها قهرا اذا حيل بينها وبينه

فاذا عرفت هـذه الاقسام فهى مختصة بنوع الانسان دون البهائم ومشاركة للبهائم فى نوعين منها وهما صبر البدن والنفس الاضطراريين. وقـد يكون بعضها أقوى صبراً من الانسان ، وانما يتميز الانسان عنها بالنوعين الاختياريين. وكثير من الناس تكون قوة صبره فى النوع الذى يشارك فيه البهائم لافى النوع الذى يخص الانسان فيعد صابرا وليس من الصابرين

فان قيل هل يشارك الجنُّ الانسَ فى هذا الصبر . قيل نعم هذا من لوازم التكليف وهو مظنة الامر والنهى . والجن مكلفون بالصبر على الاوامر والصبر عن النواهى كما كلفنا نحن بذلك. فان قيل فهل هم مكلفون على الوجه الذى كلفنا نحن به أم على وجه آخر . قيل ما كان من لوازم النفوس كالحب والبغض والايمان والتصديق والموالاة والمعاداة فنحن وهم مستوون فيـه ، وما كان من لوازم الابدان كغسل الجنابة وغسل الاعضاء فى الوضوء والاستنجاء والختان وغسل الحيض ونحو ذلك فلا تجب مساواتهم لنا فى تـكليفه وان تعلق ذلك بهم على وجه يناسب خلقتهم وحياتهم

فان قيل فهل تشاركنا الملائكة فى شىء من أقسام الصبر . قيل الملائكة لم يبتلوا بهوى يحارب عقولهم ومعارفهم، بل العبادة والطاعة لهم كالنفس

لنا. فلا يتصور فى حقهم الصبرُ الذى حقيقته ثبات باعث الدين والعقل فى مقابلة باعث الشهوة والهوى . وان كان لهم صبر يليق بهم وهو ثباتهم واقامتهم على ماخلقوا له من غير منازعة هوى أو شهوة أو طبع

فالانسان منا اذا غلب صبره باعث الهوى والشهوة التحق بالملائكة، وان غلب باعث الهوى والشهوة صبره التحق بالشياطين ، وان غلب باعث طبعه من الاكل والشرب والجماع صبره التحق بالبهائم

قال قتادة خلق الله سبحانه الملائكة عقولا بلا شهوات ، وخلق البهائم شهوات بلا عقول ، وخلق الانسان وجعل له عقلا وشهوة . فمن غلب عقله شهوته فهو مع الملائكة ومن غلبت شهوته عقـله فهو كالبهائم ولما خلق الانسان فى ابتداء أمره ناقصا لم يخلق فيه الا شهوة الغذاء الذى هو محتاج اليه فصبره فى هذه الحال بمنزلة صبر البهائم وليس له قبل تمييزه قوة صبر الاختيـار فاذا ظهرت فيه شهوة اللعب استعد لقوة الصبر الاختيارى على ضعفها فيه . فاذا تعلقت به شهوة النكاح ظهر فيه قوة الصبر فاذا تحرك سلطان العقل وقوى أعين بجيش الصبر ، ولـكن هذا السلطان وجنده لايستقلان بمقاومة سلطان الهوى وجنده ، فان اشراق نور الهداية يلوح عليه عند أول سن التمييز وينمو على التـدريج الى سن البلوغ كما يبدو خيط الفجر ثم يتزايد ظهوره وكلها هـداية قاصرة غير مستقلة بادراك مصالح الآخرة ومضارها بل غايتها تعلقها ببعض مصالح الدنيا ومفاسـدها فاذا طلعت عليه شمس النبوة والرسالة وأشرق عليـه نورها رأى فى ضوئها تفاصيل مصالح الدارين ومفاسدهما فتلمّح العواقب

ولبس لامة الحرب وأخذ أنواع الاسلحة ووقع فى حومة الحرب بين داعى الطبع والهوى وداعى العقل والهدى. والمنصور من نصره الله والمخذول من خذله ولا تضع الحرب أوزارها حتى ينزل فى احدى المنزلتين ويصير الى ما خلق له من الدارين

الباب السادس — فى بيان أقسامه بحسب اختلاف قوته وضعفه ومقاومته لجيش الهوى وعجزه عنه

وباعث الدين بالاضافة الى باعث الهوى له ثلاثة أحوال :

احدها ـ أن يكون القهر والغلبة لداعى الدين فيرد جيش الهوى مغلولا وهذا انما يصل اليه بدوام الصبر والواصلون الى هذه الرتبة هم المنصورون فى الدنيا والآخرة وهم الذين قالوا « ربنا الله ثم استقاموا » وهم الذين تقول لهم الملائكة عند الموت « لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » وهم الذين نالوا معية الله مع الصابرين وهم الذين جاهدوا فى الله حق جهاده وخصهم بهدايته دون من عداهم

الحالة الثانية — أن تكون القوة والغلبة لداعى الهوى فيسقط منازعه باعث الدين بالكلية فيستسلم البائس للشيطان وجنده فيقودونه حيث شاءوا وله معهم حالتان : احداهما أن يكون من جندهم وأتباعهم وهذه حال العاجز الضعيف . الثانية أن يصير الشيطان من جنده وهذه حال الفاجر القوى المتسلط والمبتدع الداعية المتبوع كما قال القائل :

وكنت امرءاً من جند ابليس فارتقى
بى الحال حتى صار ابليس من جندى

فيصير ابليس وجنده من اعوانه واتباعه وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم شقوتهم ، واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة . وانما صاروا الى هذه الحال لما أفلسوا من الصبر. وهذه الحالة هى حالة جهد البلاء، ودرك الشقاء ،وسوء القضاء ، وشماتة الاعداء. وجند اصحابها المكر والخداع والامانى الباطلة والغرور والتسويف بالعمل وطول الامل وايثار العاجل على الآجل. وهى التى قال فى صاحبها النبى صلى الله عليه وسلم « العاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الامانى » وأصحاب هذه الحال أنواع شتى فمنهم المحارب لله ورسوله الساعى فى ابطال ما جاء به الرسول ، يصد عن سبيل الله ويبغيها جهده عوجا وتحريفا ليصد الناس عنها . ومنهم المعرض عما جاء به الرسول، المقبل على دنياه وشهواتها فقط . ومنهم المنافق ذو الوجهين، الذى يأكل بالكفر والاسلام . ومنهم الماجن المتلاعب الذى قطع انفاسه بالمجون واللهو واللعب. ومنهم من اذا وعظ قال واشوقاه الى التوبة ولكنها قد تعذرت علىّ فلا مطمع لى فيها . ومنهم من يقول ليس الله محتاجا الى صلاتى وصيامى وأنا لا أنجو بعملى والله غفور رحيم. ومنهم من يقول ترك المعاصى استهانة بعفو الله ومغفرته

فكثر ما استطعت من الخطايا   اذا كان القدوم على كريم

ومنهم من يقول ماذا تقع طاعتى فى جنب ما قد عملت ، وما ينفع الغريق خلاص اصبعه وباقى بدنه غريق. ومنهم من يقول سوف أتوب ، واذا جاء الموت ونزل بساحتى تبت وقبلت توبتى. الى غير ذلك من أصناف

المغترين الذين صارت عقولهم فى أيدى شهواتهم فلا يستعمل أحدهم عقله الا فى دقائق الحيل التى بها يتوصل الى قضاء شهوته، فعقله مع الشيطان كالأسير فى يد الكافر يستعمله فى رعاية الخنازير وعصر الخمر وحمل الصليب وهو بقهرة عقله وتسليمه الى اعدائه عند الله بمنزلة رجل قهر مسلما وباعه للكفار وسلمه اليهم وجعله أسيراً عندهم

فصل

وهاهنا نكتة بديعة يجب التفطن لها، وينبغى اخلاء القلب لتأملها وهى أن هذا المغرور لما أذل سلطان الله الذى أعزه به وشرفه ورفع به قدره وسلمه فى يد أبغض اعدائه اليه، وجعله أسيرا له تحت قهره وتصرفه وسلطانه، سلط الله عليه من كان حقه هو أن يتسلط عليه فجعله تحت قهره وتصرفه وسلطانه يسخره حيث شاء ويسخر منه ويسخر منه جنده وحزبه. فكما أذل سلطان الله وسلمه الى عدوه أذله الله وسلط عليه عدوه الذى أمره أن يتسلط هو عليه ويذله ويقهره فصار بمنزلة من سلم نفسه الى أعدى عدو له يسومه سوء العذاب وقد كان بصدد أن يستأسره ويقهره ويشفى غيظه منه فلما ترك مقاومته ومحاربته واستسلم له سلط عليه عقوبة له. قال الله تعالى « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » فان قيل فقد أثبت له على أوليائه ها هنا سلطانا فكيف نفاه بقوله تعالى حاكيا عنه مقرراً له « وقال الشيطان لما قضى الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم

فاستجبتم لى » وقال تعالى « ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين وما كان له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك » قيل السلطان الذى أثبته له عليهم غير الذى نفاه من وجهين : أحدهما أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم وتلاعبه بهم وسوقه اياهم كيف أراد بتمكينهم اياه من ذلك بطاعته وموالاته ، والسلطان الذى نفاه سلطان الحجة فلم يكن لابليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أن دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان . الثانى أن الله لم يجعل له عليهم سلطانا ابتداء البتة، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم فى جملة جنده وحزبه ، فلم يتسلطن عليهم بقوته فان كيده ضعيف ، وانما تسلطن عليهم بارادتهم واختيارهم . والمقصود ان من قصد اعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه فاخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم الى عدوه كان من عقوبته أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه

فصل

الحالة الثالثة — أن يكون الحرب سجالا ودولا بين الجندين فتارة له وتارة عليه وتكثر نوبات الانتصار وتقل وهذه حال أكثر المؤمنين الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا

وتكون الحال يوم القيامة موازنة لهذه الاحوال الثلاث سواء بسواء، فمن الناس من يدخل الجنة ولا يدخل النار ، ومنهم من يدخل النار ولا يدخل الجنة ، ومنهم من يدخل النار ثم يدخل الجنة . وهذه الاحوال الثلاث هى احوال الناس فى الصحة والمرض . فمن الناس من تقاوم قوته

داءه فتقهره ويكون السلطان للقوة. ومنهم من يقهر داؤه قوته ويكون السلطان للداء. ومنهم من الحرب بين دائه وقوته نوباً فهو متردد بين الصحة والمرض

فصل

ومن الناس من يصبر بجهد ومشقة. ومنهم من يصبر بادنى حمل على النفس. ومثال الاول كرجل صارع رجلا شديداً فلا يقهره الا بتعب ومشقة. والثانى كمن صارع رجلا ضعيفاً فانه يصرعه بغير مشقة. فهكذا تكون المصارعة بين جنود الرحمان وجنود الشيطان، ومن صرع جند الشيطان صرع الشيطان. قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه «لقى رجل من الانس رجلا من الجن فصارعه فصرعه الانسى فقال مالى اراك ضئيلا فقال انى من بينهم لضليع». فقالوا اهو عمر بن الخطاب فقال «من ترونه غير عمر». وقال بعض الصحابة« ان المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره فى السفر» وذكر ابن ابى الدنياعن بعض السلف ان شيطانا لقى شيطانا فقال مالى أراك شخيبا. فقال انى مع رجل إن أكل ذكر اسم الله فلا آكل معه، وان شرب ذكر اسم الله فلا أشرب معه، وان دخل بيته ذكر اسم الله فأبيت خارج الدار. فقال لكنى مع رجل ان أكل لم يسم الله فآكل أنا وهو جميعا، وان شرب لم يسم الله فاشرب معه، وان دخل داره لم يسم الله فادخل معه، وان جامع امرأته لم يسم الله فاجامعها. فمن اعتاد الصبر هابه عدوه ومن عزعليه الصبر طمع فيه عدوه وأوشك أن ينال منه غرضه

الباب السابع — فى ذكر أقسامه باعتبار متعلقه

الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام. صبر على الاوامر والطاعات حتى يؤديها. وصبر عن المناهى والمخالفات حتى لا يقع فيها. وصبر على الاقدار والاقضية حتى لا يتسخطها. وهذه الانواع الثلاثة هى التى قال فيها الشيخ عبد القادر فى فتوح الغيب «لا بد للعبد من أمر يفعله، ونهى يجتنبه، وقدر يصبر عليه»

وهذا الكلام يتعلق بطرفين طرف من جهة الرب تعالى وطرف من جهة العبد:

فأما الذى من جهة الرب فهو أن الله تعالى له على عبده حكمان حكم شرعى دينى وحكم كونى قدرى. فالشرعى متعلق بأمره والكونى متعلق بخلقه، وهو سبحانه له الخلق والامر. وحكمه الدينى الطلبى نوعان بحسب المطلوب، فان المطلوب ان كان محبوباً له فالمطلوب فعله اما واجباً واما استحباباً، ولا يتم ذلك الا بالصبر. وان كان مبغوضاً له فالمطلوب تركه اما تحريما واما كراهة، وذلك أيضاً موقوف على الصبر. فهذا حكمه الدينى الشرعى. وأما حكمه الكونى فهو ما يقضيه ويقدره على العبد من المصائب التى لاصنع له فيها. ففرضه الصبرعليها. وفى وجوب الرضا بها قولان للعلماء وهما وجهان فى مذهب أحمد. أصحهما انه مستحب. فرجع الدين كله الى هذه القواعد الثلاث: فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور

وأما الذى من جهة العبد فانه لاينفك عن هذه الثلاث مادام مكلفاً ،
ولا تسقط عنه هذه الثلاث حتى يسقط عنــه التـكليف . فقيام عبودية
الامر والنهى والقدر على ساق الصبر لا تستوى الا عليــه كما لا تستوى
السنبلة الا على ساقها

فالصبر متعلق بالمأمور والمحظور والمقدور بالخلق والامر ، والشيخ
دائما يحوم على هذه الاصول الثلاثة ، كقوله يابنى افعل المأمور واجتنب
المحظور واصبر على المقدور . وهذه الثلاثة هى التى أوصى بها لقمان لابنه
فى قوله يابنى « أقم الصــلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصــبر على
ما أصابك » فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه وأمر غيره به ، وكذلك
نهيه عن المنكر . أما من حيث اطلاق اللفظ فتدخل نفسه وغيره فيه ،
وأما من حيث اللزوم الشرعى فان الآمر الناهى لايستقيم له أمره ونهيه
حتى يكون أول مأمور ومنهى . وذكر سبحانه هذه الاصول الثلاثة فى
قوله « انمــا يتــذكر أولو الالباب الذين يوفون بعهــد الله ولا ينقضون
الميثاق والذين يصــلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون
سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصــلاة وأنفقوا
ممــا رزقناهم سراً وعلانية ويدرأون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار »
فجمع لهم مقامات الاسلام والايمــان فى هذه الاوصاف فوصفهم بالوفاء
بعهده الذى عاهدهم عليه وذلك يعم أمره ونهيــه الذى عهــده اليهم بينهم
وبينه وبينهم وبين خلقه . ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع
منهم نقضة ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل . ويدخــل
فى هذا ظاهر الدين وباطنه وحق الله وحق خلقه . فيصلون ماينهم وبين

ربهم بعبوديته وحده لا شريك له والقيام بطاعته والانابة اليــه والتوكل
عليه وحبه وخوفه ورجائه والتوبة اليه والاستـكانة له والخضوع والذلة
له والاعتراف له بنعمته وشكره عليهما والاقرار بالخطيئة والاستغفار
منها ، فهذه هى الوصلة بين الرب والعبد. وقد أمر الله بهذه الاسباب التى
بينه وبين عبده أن توصل . وأمر أن يوصل ما بيننا وبين رسوله بالايمان
به وتصديقه وتحكيمه فى كل شئ والرضا بحكمه والتسليم له وتقديم محبته
على محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين صلوات الله وسلامه عليــه
فدخــل فى ذلك القيام بحقــه وحق رسوله . وأمر أن نصل ما بيننا وبين
الوالدين والاقربين بالبر والصــلة ، فانه أمر ببر الوالدين وصــلة الارحام
وذلك مما أمر به أن يوصل . وأمر أن نصل ما بيننا وبين الزوجات بالقيام
بحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف . وأمر أن نصــل ما بيننا وبين الارقاء
بأن نطعمهم مما نأكل ونكسوهم مما نكتسى ولا نكلفهم فوق طاقتهم .
وأن نصل ما بيننا وبين الجار القريب والبعيــد بمراعاة حقــه وحفظه فى
نفسه وماله وأهله بما نحفظ به نفوسنا وأهلينا وأموالنا . وأن نصــل ما
بيننا وبين الرفيق فى السفر والحضر . وأن نصل ماييننا وبين عموم الناس
بأن نأتى اليهم ما نحب أن يأتوه الينا . وأن نصــل ما بيننا وبين الحفظة
الكرام الكاتبين بأن نكرمهم ونستحى منهم كما يستحى الرجــل من
جليسه ومن هو معه ممن يجــله ويكرمه . فهذا كله ممــا أمر الله به أن
يوصل . ثم وصفهم بالحامل لهم على هــذه الصلة وهو خشيته وخوف
سوء الحساب يوم المــآب . ولا يمكن أحداً قط أن يصــل ما أمر الله
بوصله الا بخشيته ومتى ترحلت الخشية من القلب انقطعت هذه الوصل .

ثم جمع لهم سبحانه ذلك كله فى أصل واحد هو أخية ذلك [١] وقاعدته ومداره الذى يدور عليه وهو الصبر فقال « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم » فلم يكتف منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصاً لوجهه . ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر وهو الصلاة فقال « وأقاموا الصلاة » وهذان هما العونان على مصالح الدنيا والآخرة وهما الصبر والصلاة . فقال تعالى « واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين » وقال « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين » ثم ذكر سبحانه احسانهم الى غيرهم بالانفاق عليهم سراً وعلانية فأحسنوا الى نفسهم بالصبر والصلاة والى غيرهم بالانفاق عليهم . ثم ذكر حالهم اذا جهل عليهم وأوذوا انهم لا يقابلون ذلك بمثله بل يدرأون بالحسنة السيئة فيحسنون الى من يسىء اليهم فقال « ويدرأون بالحسنة السيئة » وقد فسر هذا الدرء بأنهم يدفعون بالذنب الحسنة بعده كما قال تعالى « ان الحسنات يذهبن السيئات » وقال النبى صلى الله عليه وسلم « اتبع السيئة الحسنة تمحها » والتحقيق ان الآية تعم النوعين . والمقصود ان هذه الآيات تناولت مقامات الاسلام والايمان كلها واشتملت على فعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور . وقد ذكر تعالى هذه الاصول الثلاثة فى قوله « بلى ان تصبروا وتتقوا » وقوله « انه من يتق ويصبر » وقوله « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم

(١) قال ابن الاثير فى النهاية (فى مادة أخا) : الآخية بالمد والتشديد حبيل أو عويد يعرض فى الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير وسطه كالعروة وتشد فيه الدابة . وجمعها الاواخى مشدداً والاخايا على غير قياس

تفلحون » فكل موضع قرن فيه التقوى بالصبر اشتمل على الامور الثلاثة فان حقيقة التقوى فعل المأمور وترك المحظور

الباب الثامن — فى انقسامه باعتبار تعلق الاحكام الخمسة به

وهو ينقسم بهذا الاعتبار الى واجب ومندوب ومحظور ومكروه ومباح

فالصبر الواجب ثلاثة أنواع أحدها الصبر عن المحرمات ، والثانى الصبر على أداء الواجبات ، والثالث الصبر على المصائب التى لا صنع للعبد فيها كالامراض والفقر وغيرها

وأما الصبر المندوب فهو الصبر عن المكروهات ، والصبر على المستحبات ، والصبر عن مقابلة الجانى بمثل فعله

وأما المحظور فأنواع : أحدها الصبر عن الطعام والشراب حتى يموت وكذلك الصبر عن الميتة والدم ولحم الخنزير عند المخمصة حرام اذا خاف بتركه الموت . قال طاوس وبعده الامام احمد « من اضطر الى أكل الميتة والدم فلم يأكل فمات دخل النار »

فان قيل فما تقولون فى الصبر عن المسئلة فى هذه الحال قيل اختلف فى حكمه هل هو حرام أو مباح على قولين هما لاصحاب أحمد وظاهر نصه ان الصبر عن المسئلة جائز . فانه قيل له اذا خاف ان لم يسأل أن يموت فقال لا يموت يأتيه الله برزقه، أو كما قال. فأحمد منع وقوع المسئلة ومتى علم الله ضرورته وصدقه فى ترك المسئلة قيض الله له رزقاً . وقال كثير من أصحاب أحمد والشافعى: تجب عليه المسئلة وان لم يسأل كان عاصياً لان المسئلة تتضمن نجاته من التلف

فصل

ومن الصبر المحظور صبر الانسان على مايقصد هلاكه من سبع أو حيات أو حريق أو ماء أو كافر يريد قتله ، بخلاف استسلامه وصبره فى الفتنة وقتال المسلمين فانه مباح له بل يستحب كما دلت عليه النصوص الكثيرة وقد سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن هذه المسئلة بعينها فقال « كن كخير ابنى آدم »(١) وفى لفظ « كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل » وفى لفظ « دعه يبوء باثمه واثمك » وفى لفظ آخر « فان بهرك شعاع السيف فضع يدك على وجهك » وقد حكى الله استسلام خير ابنى آدم وأثنى عليه بذلك . وهذا بخلاف قتل الكافر فانه يجب عليه الدفع عن نفسه لان من مقصود الجهاد أن يدفع عن نفسه وعن المسلمين . وأما قتال اللصوص فهل يجب فيه الدفع أو يجوز فيه الاستسلام فان كان عن معصوم غيره(٢) وجب . وأما عن نفسه فظاهر نصوصه انه لايجب الدفع ، وأوجبه بعضهم . ولايجوز الصبر على من قصده أو حرمته بالفاحشة

فصل

وأما الصبر المكروه فله أمثلة . أحدها أن يصبر عن الطعام والشراب واللبس وجماع أهله حتى يتضرر بذلك بدنه ، الثانى صبره عن جماع زوجته اذا احتاجت الى ذلك ولم يتضرر به ، الثالث صبره على المكروه ، الرابع صبره عن فعل المستحب

(١) أراد هابيل الذى قتل أخوه قابيل . (٢) المعصوم هنا من عصم الله دمه من الابرياء

فصل

وأما الصبر المباح فهو الصبر عن كل فعل مستوى الطرفين خير بين فعله وتركه والصبر عليه

وبالجملة فالصبر على الواجب واجب وعن الواجب حرام . والصبر عن الحرام واجب وعليه حرام . والصبر على المستحب مستحب وعنه مكروه . والصبر عن المكروه مستحب وعليه مكروه . والصبر عن المباح مباح والله أعلم

الباب التاسع — فى بيان تفاوت درجات الصبر

الصبر كما تقدم نوعان اختيارى واضطرارى . والاختيارى أكمل من الاضطرارى فان الاضطرارى يشترك فيه الناس ويتأتى ممن لايتأتى منه الصبر الاختيارى . ولذلك كان صبر يوسف الصديق صلى الله عليه وسلم عن مطاوعة امرأة العزيز وصبره على ما ناله فى ذلك من الحبس والمكروه أعظم من صبره على ما ناله من اخوته لما ألقوه فى الجب وفرقوا بينه وبين أبيه وباعوه بيع العبد . ومن الصبر الثانى انشأ الله سبحانه له ما انشأه من العز والرفعة والملك والتمكين فى الارض . وكذلك صبر الخليل صلى الله عليه وسلم والكليم وصبر نوح وصبر المسيح وصبر خاتم الانبياء وسيد ولد آدم عليهم الصلاة والسلام كان صبراً على الدعوة الى الله ومجاهدة أعداء الله . ولهذا سماهم الله أولى العزم وأمر رسوله أن يصبر صبرهم فقال « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » وأولو العزم

ثم المذكورون فى قوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى » وفى قوله « واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم » كذلك قال ابن عباس وغيره من السلف. ونهاه سبحانه أن يتشبه بصاحب الحوت حيث لم يصبر صبر أولى العزم «فقال فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم»

وهاهنا سؤال نافع وهو ان يقال ما العامل فى الظرف وهو قوله « اذ نادى » ولا يمكن أن يكون الفعل المنهى عنه اذ يصير المعنى لا تكن مثله فى ندائه وقد أثنى الله سبحانه عليه فى هذا النداء فأخبر انه نجاه به فقال « وذا النون اذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين » وفى الترمذى وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « دعوة أخى ذى النون اذ دعا بها فى بطن الحوت مادعا بها مكروب الا فرج الله عنه : لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين» فلا يمكن أن ينهى عن التشبه به فى هذه الدعوة وهى النداء الذى نادى به ربه، وانما نهى عن التشبه به فى السبب الذى أفضى به الى هذه المناداة وهى مغاضبته التى أفضت به الى حبسه فى بطن الحوت وشدة ذلك عليه حتى نادى ربه وهو مكظوم والكظيم والكاظم الذى قد امتلأ غيظاً وغضباً أو هماً وحزناً وكظم عليه فلم يخرجه. فان قيل وعلى ذلك فما العامل فى الظرف قيل ما فى صاحب الحوت من معنى الفعل فان قيل فالسؤال بعد قائم فانه اذا قيد المنهى بقيد أو زمن كان داخلا فى

حيز النهى فان كان المعنى لا تكن مثل صاحب الحوت فى هذه الحال أو هذا الوقت كان نهياً عن تلك الحالة قيل لما كان نداؤه مسبباً عن كونه صاحب الحوت فنهى أن يشبه به فى الحال التى أفضت به الى صحبته الحوت والنداء وهى ضعف العزيمة والصبر لحكمه تعالى ولم يقل تعالى ولا تكن كصاحب الحوت اذ ذهب مغاضباً فالتقمه الحوت فنادى بل طوى القصة واختصرها وأحال بها على ذكرها فى الموضع الآخر واكتفى بغايتها وما انتهت اليه. فان قيل فما منعك بتعويض الظرف بنفس الفعل المنهى عنه أى لا تكن مثله فى ندائه وهو ممتلىء غيظاً وهماً وغماً بل يكون نداؤك نداء راض بما قضى عليه قد تلقاه بالرضا والتسليم وسعة الصدر لا نداء كظيم قيل هذا المعنى وان كان صحيحاً فلم يقع النهى عن التشبه به فى مجرده وانما نهى عن التشبه به فى الحال التى حملته على ذهابه مغاضباً حتى سجن فى بطن الحوت ويدل عليه قوله تعالى « فاصبر لحكم ربك » ثم قال « ولا تكن كصاحب الحوت» أى فى ضعف صبره لحكم ربه فان الحالة التى نهى عنها هى ضد الحالة التى امر بها . فان قيل فما منعك ان تصير الى انه أمر بالصبر لحكمه الكونى القدرى الذى يقدره عليه ولا تكن كصاحب الحوت حيث لم يصبر عليه بل نادى وهو كظيم لكشفه فلم يصبر على احتماله والسكون تحته. قيل منع من ذلك ان الله سبحانه اثنى على يونس وغيره من انبيائه بسؤالهم اياه كشف مابهم من الضر وقد اثنى عليه سبحانه بذلك فى قوله « وذا النون اذ ذهب مغاضباً فظن ان لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات ان لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين

فاستجبنا له فنجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين » فكيف ينهى عن التشبه به فيما يثنى عليه ويمدحه به. وكذلك اثنى على ايوب بقوله « مسنى الضر وانت أرحم الراحمين » وعلى يعقوب بقوله « انما اشكو بثى وحزنى الى الله » وعلى موسى بقوله « رب انى لما انزلت الىّ من خير فقير » وقد شكا اليه خاتم انبيائه ورسله بقوله « اللهم اشكو اليك ضعف قوتى وقلة حيلتى » الحديث. فالشكوى اليه سبحانه لاتنافى الصبر الجميل بل اعراض عبده عن الشكوى الى غيره جملة وجعل الشكوى اليه وحده هو الصبر. والله تعالى يبتلى عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه وقد ذم سبحانه من لم يتضرع اليه ولم يستكن له وقت البلاء كما قال تعالى « ولقد اخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم ومايتضرعون » والعبد أضعف من ان يتجلد على ربه والرب تعالى لم يرد من عبده ان يتجلد عليه بل أراد منه ان يستكين له ويتضرع اليه وهو تعالى يمقت من يشكوه الى خلقه ويحب من يشكو مابه اليه. وقيل لبعضهم كيف تشتكى اليه ماليس يخفى عليه فقال ربى يرضى ذل العبد اليه

والمقصود انه سبحانه امر رسوله ان يصبر صبر أولى العزم الذين صبروا لحكمه اختياراً وهذا أكمل الصبر ولهذا دارت قصة الشفاعة يوم القيمة على هؤلاء حتى ردوها الى افضلهم وخيرهم وأصبرهم لحكم الله صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين

فان قيل فاى أنواع الصبر الثلاثة اكمل: الصبر على المأمور أم الصبر عن المحظور أم الصبر على المقدور. قيل الصبر المتعلق بالتكليف وهو الامر والنهى افضل من الصبر على مجرد القدر فان هذا الصبر يأتى به البر والفاجر

والمؤمن والكافر فلابد لكل احد من الصبر على القدر اختياراً أو اضطراراً وأما الصبر على الاوامر والنواهى فصبر أتباع الرسل، واعظمهم اتباعا اصبرهم فى ذلك، وكل صبر فى محله وموضعه افضل: فالصبر عن الحرام فى محله افضل وعلى الطاعة فى محلها افضل

فان قيل فاى الصبرين أحب الى الله صبر من يصبر على أوامره أم صبر من يصبر عن محارمه. قيل هذا موضع تنازع فيه الناس. فقالت طائفة الصبر عن المخالفات أفضل لأنه أشق وأصعب فان أعمال البر يفعلها البر والفاجر ولا يصبر عن المخالفات الا الصديقون. قالوا ولأن الصبر عن المحرمات صبر على مخالفة هوى النفس وهو أشق شىء وأفضله. قالوا ولأن ترك المحبوب الذى تحبه النفوس دليل على ان من ترك لأجله أحب اليه من نفسه وهواه بخلاف فعل مايحبه المحبوب فانه لايستلزم ذلك. قالوا وأيضاً فالمروءة والفتوة كلها فى هذا الصبر. قال الامام احمد « الفتوة ترك ماتهوى لما تخشى » فمروءة العبد وفتوته بحسب هذا الصبر قالوا وليس العجب ممن يصبر على الأوامر فان اكثرها محبوبات للنفوس السليمة لما فيها من العدل والاحسان والاخلاص والبر وهذه محاب للنفوس الفاضلة الزكية بل العجب ممن يصبر عن المناهى التى اكثرها محاب النفوس فيترك المحبوب العاجل فى هذه الدار للمحبوب الآجل فى دار أخرى والنفس موكلة بحب العاجل فصبرها عنه مخالف لطبعها. قالوا ولأن المناهى لها أربعة دواع تدعو اليها: نفس الانسان وشيطانه وهواه ودنياه. فلا يتركها حتى يجاهد هذه الاربعة وذلك أشق شىء على النفوس وأمره. قالوا فالمناهى من باب حمية النفوس عن مشتهياتها ولذاتها والحمية مع قيام داعى

التناول وقوته من أصعب شىء وأشقه . قالوا ولذلك كان باب قربان النهى مسدوداً كله وباب الأمر انما يفعل منه المستطاع كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « اذا امرتكم بأمر فأتوا منه مااستطعتم ومانهيتكم عنه فاجتنبوه » فدل على ان باب المنهيات اضيق من باب المأمورات وانه لم يرخص فى ارتكاب شىء منه كما رخص فى ترك بعض المأمورات للعجز والعذر. قالوا ولهذا كانت عامة العقوبات من الحدود وغيرها على ارتكاب المنهيات بخلاف ترك المأمور فان الله سبحانه لم يرتب عليه حدا معينا فاعظم المأمورات الصلاة وقد اختلف العلماء هل على تاركها حد أم لا

فصل

فهذا بعض ما احتجت به هذه الطائفة. وقالت طائفة أخرى بل الصبر على فعل المأمور أفضل واجل من الصبر على ترك المحظور لان فعل المأمور أحب الى الله من ترك المحظور والصبر على احب الامرين افضل واعلى . وبيان ذلك من وجوه : أحدها ان فعل المامور مقصود لذاته فهو مشروع شرع المقاصد . فان معرفة الله وتوحيده وعبوديته وحده والانابة اليه والتوكل عليه واخلاص العمل له ومحبته والرضا به والقيام فى خدمته هو الغاية التى خلق لها الخلق وثبت بها الأمر . وذلك أمر مقصود لنفسه والمنهيات انما نهى عنها لانها صادرة عن ذلك أو شاغلة عنه أو مفوتة لكماله ولذلك كانت درجاتها فى النهى بحسب صدها عن المأمور وتعويقها عنه وتفويتها لكماله فهى مقصودة لغيرها والمأمور مقصود لنفسه . فلو لم يصد الخمر والميسر عن ذكر الله

وعن الصلاة وعن التواد والتحاب الذى وضعه الله بين عباده لما حرمه . وكذلك لو لم يحل بين العبد وبين عقله الذى به يعرف الله ويعبده ويحمده ويمجده ويصلى له ويسجد لما حرمه. وكذلك سائر ماحرمه انما حرمه لانه يصد عما يحبه ويرضاه ويحول بين العبد وبين كماله. الثانى ان المأمورات متعلقة بمعرفة الله وتوحيده وعبادته وذكره وشكره ومحبته والتوكل عليه والانابة اليه فتعلقها ذات الرب تعالى وأسماؤه وصفاته ومتعلق المنهيات ذوات الاشياء المنهى عنها والفرق من أعظم مايكون . الثالث ان ضرورة العبد وحاجته الى فعل المأمور أعظم من ضرورته الى ترك المحظور فانه ليس الى شىء أضر وأحوج وأشد فاقة منه الى معرفة ربه وتوحيده واخلاص العمل له وافراده بالعبودية والمحبة والطاعة وضرورته الى ذلك أعظم من ضرورته الى نفَسه ونفْسه وحياته وأعظم من ضرورته الى غذائه الذى به قوام بدنه بل هذا لقلبه وروحه كالحياة والغذاء لبدنه . وهو انما هو انسان بروحه وقلبه لا ببدنه وقالبه كما قيل :

ياخادم الجسم كم تشقى بخدمته   فأنت بالقلب لا بالجسم انسان

وترك المنهى انما شرع له تحصيلا لهذا الامر الذى هو أضر شىء وأحوجه وأفقره اليه . الرابع ان ترك المنهى من باب الحمية وفعل المأمور من باب حفظ القوة والغذاء الذى لا تقوم البنية بدونه ولا تحصل الحياة الا به فقد يعيش الانسان مع تركه الحمية وان كان بدنه عليلا اشد مايكون علة ولا يعيش بدون القوة والغذاء الذى يحفظها فهذا مثل المأمورات والمنهيات . الخامس ان الذنوب كلها ترجع الى هذين الاصلين ترك المأمور وفعل المحظور ولو فعل العبد المحظور كله

من أوله الى آخره حتى اتى من مأمور الايمان بأدنى أدنى مثقال ذرة منه
نجا بذلك من الخلود فى النار ولو ترك كل محظور ولم يأت بمأمور الايمان
لكان مخلدا فى السعير فأين شيء مثاقيل الذر منه تخرج من النار الى شيء
وزن الجبال منه أضعافاً مضاعفة تقتضى الخلود فى النار مع وجود ذلك
المأمور أو أدنى شيء منه. السادس ان جميع المحظورات من أولها الى آخرها
يسقطه بمأمور التوبة ولا تسقط المأمورات كلها معصية المخالفة الا
بالشرك أو الوفاة عليه ولا خلاف بين الامة ان كل محظور يسقط بالتوبة
منه واختلفوا هل تسقط الطاعة بالمعصية وفى المسئلة نزاع وتفصيل ليس هذا
موضعه. السابع ان ذنب الاب كان بفعل المحظور فكان عاقبته ان اجتباه
ربه فتاب عليه وهدى وذنب ابليس كان بترك المأمور فكان عاقبته ماذكر
الله سبحانه وجعل هذا عبرة للذرية الى يوم القيامة. الثامن ان المأمور
محبوب الى الرب والمنهى مكروه له وهو سبحانه انما قدره وقضاه لانه
ذريعة الى حصول محبوبه من عبده ومن نفسه تعالى امامن عبده فالتوبة
والاستغفار والخضوع والذل والانكسار وغير ذلك وأمامن نفسه فبالمغفرة
والتوبة على العبد والعفو عنه والصفح والحلم والتجاوز عن حقه وغير ذلك
مما هو أحب اليه تعالى من فواته بعدم تقدير مايكرهه واذا كان انما قدر
مايكرهه لانه يكون وسيلة الى مايحبه علم ان محبوبه هو الغاية ففوات
محبوبه ابغض اليه واكره له من حصول مبغوضه بل اذا ترتب على حصول
مبغوضه مايحبه من وجه آخر كان المبغوض مرادا له ارادة الوسائل كما كان
النهى عنه وكراهته لذلك. واما المحبوب فمراده ارادة المقاصد كما تقدم.
فهو سبحانه انما خلق الخلق لاجل محبوبه ومأموره وهو عبادته وحده كما قال

تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وقدر مكروهه ومبغوضه
تكميلا لهذه الغاية التى خلق خلقه لاجلها فانه ترتب عليه من المامورات
مالم يكن يحصل بدون تقديره كالجهاد الذى هو أحب العمل اليه والموالاة
فيه والمعاداة فيه ولولا محبته لهذه المأمورات لما قدر من المكروه له مايكون
سبباً لحصولها. التاسع أن ترك المحظور لا يكون قربة ما لم يقارنه فعل
المأمور فلو ترك العبد كل محظور لم يثبه الله عليه حتى يقارنه مأمور الايمان
وكذلك المؤمن لا يكون تركه المحظور قربة حتى يقارنه مأمور النية بحيث
يكون تركه لله فافتقر ترك المنهيات بكونه قربة يثاب عليها الى فعل المأمور
ولا يفتقر فعل المأمور فى كونه قربة وطاعة الى ترك المحظور ولو افتقر
اليه لم يقبل الله طاعة من عصاه أبدا وهذا من أبطل الباطل. العاشر أن
المنهى عنه مطلوب اعدامه والمأمور مطلوب ايجاده والمراد ايجاد هذا
واعدام هذا فاذا قدر عدم الامرين أو وجودهما كان وجودهما خيرا من
عدمهما فانه اذا عدم المأمور لم ينفع عدم المحظور واذا وجد المأمور فقد
يستعان به على دفع المحظور أو دفع أثره فوجود القوة والمرض خير من
عدم الحياة والمرض. الحادى عشر أن باب المأمور الحسنة فيه بعشر أمثالها
الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة وباب المحظور السيئة فيه بمثلها وهى
بصدد الزوال بالتوبة والاستغفار والحسنة الماحية والمصيبة المكفرة
واستغفار الملائكة للمؤمنين واستغفار بعضهم لبعض وغير ذلك، وهذا يدل
على أنه أحب الى الله من عدم المنهى. الثانى عشر ان باب المنهيات يمحوه
الله سبحانه ويبطل أثره بأمور عديدة من فعل العبد وغيره، فانه يبطله
بالتوبة النصوح وبالاستغفار وبالحسنات الماحية وبالمصائب المكفرة

وباستغفار الملائكة وبدعاء المؤمنين فهذه ستة فى حال حياته وبتشديد
الموت وكربه وسياقه عليه فهذا عند مفارقته الدنيا وبهول المطلع وروعة
الملكين فى القبر وضغطته وعصرته له وشدة الموقف وعنائه وصعوبته
وبشفاعة الشافعين فيه وبرحمة أرحم الراحمين له فان عجزت عنه هذه الامور
فلا بدله من دخول النار ويكون لبثه فيها على قدر بقاء خبثه ودرنه فان
الله حرم الجنة الاعلى كل طيب فما دام درنه ووسخه وخبثه فيه فهو فى
كير التطهير حتى يتصفى من ذلك الوسخ والخبث. وأما باب المأمورات
فلا يبطله الا الشرك . الثالث عشر ان جزاء المأمورات الثواب وهو من
باب الاحسان والفضل والرحمة وجزاء المنهيات العقوبة وهى من باب
الغضب والعدل ورحمته سبحانه تغلب غضبه فاتعلق بالرحمة والفضل احب
اليه مما تعلق بالغضب والعدل. وتعطيل ماتعلق بالرحمة اكره اليه من فعل
ماتعلق بالغضب. الرابع عشر ان باب المنهيات تسقط الالآف المؤلفة منه
الواحدةُ من المامورات وباب المامورات لايسقط الواحدة منه الآلاف
المؤلفة من المنهيات . الخامس عشر ان متعلق المامورات الفعل وهو صفة
كمال بل كمال المخلوق من فعاله فانه فَعَلَ فكمل، ومتعلق النهى الترك والترك
عدم ومن حيث هو كذلك لا يكون كمالا فان العدم المحض ليس بكمال
وانما يكون كمالا لما يتضمنه او يستلزمه من الفعل الوجودى الذى هو سبب
الكمال وأما ان يكون مجرد الترك الذى هو عدم محض كمالا أو سببا للكمال
فلا. مثال ذلك لو ترك السجود للصنم لم يكن كماله فى مجرد هذا الترك مالم
يسجد لله والا فلو ترك السجود لله وللصنم لم يكن ذلك كمالا وكذلك لو
ترك تكذيب الرسول ومعاداته لم يكن بذلك مؤمنا مالم يفعل ضد ذلك

من التصديق والحب وموالاته وطاعته . فعلم ان الكمال كله فى المأمور
وان المنهى مالم يتصل به فعل المأمور لم يفد شيئا ولم يكن كمالا. فإن الرجل
لو قال للرسول لا اكذبك ولا أصدقك ولا أواليك ولا أعاديك ولا أحاربك
ولا أحارب من يحاربك لكان كافرا ولم يكن مؤمنا بترك معاداته وتكذيبه
ومحاربته مالم يأت بالفعل الوجودى الذى امر به. السادس عشر ان العبد اذا اتى
بالمأمور به على وجه ترك المنهى عنه ولابد فالمقصود انما هو فعل المأمور
ومع فعله على وجهه يتعذر فعل المنهى فالمنهى عنه فى الحقيقة هو تمريض
المأمور للاضاعة فأن العبد اذا فعل ما أمر به من العدل والعفة وامتنع
من صدور الظلم والفواحش منه فنفس العدل يتضمن ترك الظلم ونفس العفة
تتضمن ترك الفواحش فدخل ترك المنهى عنه فى المأمور به ضمنا وتبعا، وليس
كذلك فى عكسه فان ترك المحظور لا يتضمن فعل المأمور فانه قد يتركهما معا
كما تقدم. فعلم ان المقصود هو اقامة الامر على وجهه ومع ذلك لا يمكن ارتكاب
النهى البتة واما ترك المنهى عنه فانه يستلزم اقامة الامر. السابع عشر ان الرب
تعالى اذا امر عبده بامر ونهاه عن أمر ففعلهما جميعا كان قد حصل محبوب
الرب وبغيضه فقد تقدم له من محبوبه ما يدفع عنه شر بغيضه ومقاومته
ولاسيما اذا كان فعل ذلك المحبوب احب اليه من ترك ذلك البغيض فيهب
له جنايته ما فعل من هذا بطاعته ويتجاوز له عما فعل من الآخر . ونظير هذا
فى الشاهد أن يقتل الرجل عدواً للملك هو حريص على قتله وشرب
مسكراً نهاه عن شربه فانه يتجاوز له عن هذه الزلة بل عن أمثالها فى
جنب ما أتى به من محبوبه واما اذا ترك محبوبه وبغيضه فانه لا يقوم ترك

بغيضه بمصلحة فعل محبوب به أبداً كما اذا أمر الملك عبده بقتل عدوه ونهاه
عن شرب مسكر فعصاه فى قتل عدوه مع قدرته عليه وترك شرب المسكر
فان الملك لايهب له جرمه بترك أمره فى جنب ترك مانهاه عنه. وقد فطر
الله عباده على هذا . فهكذا السادات مع عبيدهم والآباء مع أولادهم
والملاك مع جندهم والزوجات مع أزواجهم ليس التارك منهم محبوب
الأمر ومكروهه بمنزلة الفاعل منهم محبوب أمره ومكروهه. يوضحه
الوجه الثامن عشر ان فاعل محبوب الرب يستحيل أن يفعل جميع
مكروهه بل يترك من مكروهه بقدر ما اتى به من محبوبه فيستحيل
الاتيان بجميع مكروهه وهو يفعل ما أحبه وأبغضه فغايته انه اجتمع
الامران فيحبه الرب تعالى من وجه ويبغضه من وجه اما اذا ترك المأمور
به جملة فانه لم يقم به مايحبه الرب عليه فان مجرد ترك المنهى لايكون
طاعة الا باقترانه بالمأمور كما تقدم فلا يحبه على مجرد الترك وهو سبحانه
يكرهه ويبغضه على مخالفة الامر فصار مبغوضاً للرب تعالى من كل وجه
اذ ليس فيه مايحبه الرب عليه فتأمله. يوضحه الوجه التاسع عشر وهو ان
الله سبحانه لم يعلق محبته الا بأمر وجودى أمر به ايجاباً أو استحباباً ولم
يعلقها بالترك من حيث هو ترك ولا فى موضع واحد فانه يحب التوابين
ويحب المحسنين ويحب الشاكرين ويحب الصابرين ويحب المتطهرين ويحب
الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ويحب المتقين ويحب
الذاكرين ويحب المتصدقين فهو سبحانه انما علق محبته بأوامره اذ هى
المقصود من الخلق والأمر كما قال تعالى « وما خلقت الجن والانس الا
ليعبدون » فما خلق الخلق الا لقيام أوامره وما نهاهم الا عما يصدهم عن

قيام أوامره ويعوقهم عنها. يوضحه الوجه العشرون ان المنهيات لو لم تصد
عن المأمورات وتمنع وقوعها على الوجه الذى أمر الله بها لم يكن للنهى
عنها معنى وانما نهى عنها لمضادتها لاوامره وتعويقها لها وصدها عنها فالنهى
عنها من باب التكميل والتتمة للمأمور فهو بمنزلة تنظيف طرق الماء
ليجرى فى مجاريه غير معوق فالأمر بمنزلة الماء الذى أرسل فى نهر لحياة
البلاد والعباد والنهى بمنزلة تنظيف طرقه ومجراه وتنقيتها مما يعوق الماء
والامر بمنزلة القوة والحياة والنهى بمنزلة الحمية الحافظة للقوة والداء والخادم
لها. قالوا واذا تبين ان فعل المأمور افضل فالصبر عليه افضل أنواع الصبر
وبه يسهل عليه الصبر عن المحظور والصبر على المقدور فان الصبر الاعلى
يتضمن الصبر الادنى دون العكس. وقد ظهر لك من هذا ان الأنواع
الثلاثة متلازمة وكل نوع منها يعين على النوعين الآخرين. وان كان من
الناس من قوة صبره على المقدور فاذا جاء الأمر والنهى فقوة صبره هناك
ضعيفة. ومنهم من هو بالعكس من ذلك. ومنهم من قوة صبره فى جانب
الأمر أقوى. ومنهم من هو بالعكس والله اعلم

الباب العاشر — فى انقسام الصبر الى محمود ومذموم

الصبر ينقسم الى قسمين قسم مذموم وقسم ممدوح .
فالمذموم الصبر عن الله وارادته ومحبته وسير القلب اليه . فان هذا
الصبر يتضمن تعطيل كمال العبد بالكلية وتفويت ماخلق له . وهذا كما انه
اقبح الصبر فهو اعظمه وابلغه. فانه لاصبر ابلغ من صبر من يصبر عن

محبوبه الذى لاحياة له بدونه البتة . كما انه لازهد ابلغ من زهد الزاهد فيما اعد الله لاوليائه من كرامته مما لاعين رأت ولا اذن سمعت ولاخطر على قلب بشر . فالزهد فى هذا اعظم انواع الزهد . كما قال رجل لبعض الزاهدين وقد تعجب من زهده « مارأيت ازهد منك » فقال « انت ازهد منى : انا زهدت فى الدنيا وهى لابقاء لها ولا وفاء ، وانت زهدت فى الآخرة . فمن ازهد منا » قال يحيى بن معاذ الرازى « صبر المحبين اعجب من صبر الزاهدين واعجبا كيف يصبرون » وفى هذا قيل :

الصبر يحمد فى المواطن كلها　　الا عليك فانه لايحمد

ووقف رجل على الشبلى فقال « اى الصبر أشد على الصابرين » فقال « الصبر فى الله » قال « لا » فقال « الصبر لله » فقال « لا » قال « فالصبر مع الله » قال «لا» قال « فايش هو » قال « الصبر عن الله » فصرخ الشبلى صرخة كادت روحه تزهق. وقيل « الصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء » وقد اجمع الناس على ان الصبر عن المحبوب غير محمود فكيف اذا كان كمال العبد وفلاحه فى محبته. ولم تزل الاحباب تعيب المحبين بالصبر عنهم كما قيل:

والصبر عنك فمذموم عواقبه　　والصبر فى سائر الاشياء محمود

وقال آخر فى الصبر عن محبوبه :

اذا لعب الرجال بكل شىء　　رأيت الحب يلعب بالرجال
وكيف الصبر عمن حل منى　　بمنزلة اليمين مع الشمال

وشكا آخر الى محبوبه ما يقاسى من حبه فقال « لو كنت صادقا لما صبرت عنى »

ولما شكوت الحب قالت كذبتنى　　ترى الصب عن محبوبه كيف يصبر

فصل

واما الصبر المحمود فنوعان صبر لله وصبر بالله قال الله تعالى «واصبر وما صبرك الا بالله» وقال « واصبر لحكم ربك فانك باعيننا »

وقد تنازع الناس أى الصبرين اكمل . فقالت طائفة « الصبر له اكمل فان ما كان لله اكمل مما كان بالله فان ما كان له فهو غاية وما كان به فهو وسيلة والغايات اشرف من الوسائل ولذلك وجب الوفاء بالنذر اذا كان تبررا وتقربا الى الله لانه نذر له ولم يجب الوفاء به اذا خرج مخرج اليمين لانه حلف به فما كان له سبحانه فهو متعلق بألوهيته وما كان به فهو متعلق بربوبيته وما تعلق بألوهيته اشرف مما تعلق بربوبيته ولذلك كان توحيد الالهية هو المنجى من الشرك دون توحيد الربوبية بمجرده فان عباد الاصنام كانوا مقرين بان الله وحده خالق كل شىء وربه ومليكه ولكن لما لم يأتوا بتوحيد الالهية وهو عبادته وحده لاشريك له لم ينفعهم توحيد ربوبيته »

وقال طائفة : الصبر بالله اكمل بل لايمكن الصبر له الا بالصبر به كما قال تعالى « واصبر » فأمره بالصبر والمأمور به هو الذى يفعل لاجله ثم قال « وماصبرك الا بالله » فهذه جملة خبرية غير الجملة الطلبية التى تقدمتها

اخبر فيها انه لا يمكنه الصبر الا به وذلك يتضمن امرين الاستعانة به والمعية الخاصة التى تدل عليها باء المصاحبة كقوله « فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى » وليس المراد بهذه الباء الاستعانة فان هذا أمر مشترك بين المطيع والعاصى فان مالايكون بالله لايكون بل هى باء المصاحبة والمعية التى صرح بمضمونها فى قوله « ان الله مع الصابرين » وهى المعية الحاصلة لعبده الذى تقرب اليه بالنوافل حتى صار محبوبا له فبه يسمع وبه يبصر وكذلك به يصبر فلا يتحرك ولا يسكن ولا يدرك الا والله معه ومن كان كذلك امكنه الصبر له وتحمل الاثقال لاجله كما فى الاثر ألهى (١) يعنى ومايتحمل المتحملون من أجلى فدل قوله « وماصبرك الا بالله » على انه من لم يكن الله معه لم يمكنه الصبر وكيف يصبر على الحكم الأمرى امتثالا وتنفيذا وتبليغا وعلى الحكم القدرى احتمالا له واضطلاعا به من لم يكن الله معه فلا يطمع فى درجة الصبر المحمود عواقبه من لم يكن صبره بالله كما لا يطمع فى درجة التقرب المحبوب من لم يكن سمعه وبصره وبطشه ومشيه بالله

وهذا هو المراد من قوله « كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها » ليس المراد انى كنت نفس هذه الاعضاء والقوى كما يظنه اعداء الله أهل الوحدة وان ذات العبد هى ذات الرب تعالى الله عن قول اخوان النصارى علوا كبيرا .ولو كان كما يظنون لم يكن فرق بين هذا العبدوغيره ولا بين حالتى تقربه الى

(١) كذا فى الاصل وفى هامشه « لعله الالهى »

ربه بالنوافل وتمقته اليه بالمعاصى بل لم يكن هناك متقرِّب ومتقرَّب اليه ولا عبد ولا معبود ولا محب ولامحبوب فالحديث كله مكذب لدعواهم الباطلة من نحو ثلاثين وجهاً تعرف بالتأمل الظاهر. وقد فسر المراد من قوله « كنت سمعه وبصره ويده ورجله » بقوله « فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى » فعبر عن هذه المصاحبة التى حصلت بالتقرب اليه بمحابه بألطف عبارة واحسنها تدل على تأكد المصاحبة ولزومها حتى صار له بمنزلة سمعه وبصره ويده ورجله

ونظير هذا قوله « الحجر الاسود يمين الله فى الارض فمن صافحه وقبله فكأنما صافح الله وقبل يمينه »

ومثل هذا سائغ فى الاستعمال ان ينزل الى منزلة مايصاحبه ويقارنه حتى يقول المحب للمحبوب انت روحى وسمعى وبصرى وفى ذلك معنيان أحدهما انه قد صار منه بمنزلة روحه وقلبه وسمعه وبصره والثانى ان محبته وذكره لما استولى على قلبه وروحه صار معه وجليسه كما فى الحديث «يقول الله تعالى أنا جليس من ذكرنى» .وفى الحديث الآخر « أنا مع عبدى ماذكرنى وتحركت بى شفتاه »وفى هذا الحديث آلهى(١) «فاذا أحببت عبدى كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً » ولا يعبر عن هذا المعنى بأتم من هذه العبارة ولا أحسن ولا ألطف .وايضاح هذه العبارة مما يزيدها جفاء وخفاء

والمقصود انما هو ذكر الصبر بالله وان العبد بحسب نصيبه من معية الله

(١) كذا فى الاصل . وفى هامشه « لعله الآلهى »

له يكون صبره واذا كان الله معه أمكن أن يأتى من الصبر بما لايأتى به
غيره قال أبو على « فاز الصابرون بعز الدارين لانهم نالوا من الله معيته قال
تعالى : ان الله مع الصابرين »

وهاهنا سر بديع وهو ان من تعلق بصفة من صفات الرب تعالى
أدخلته تلك الصفة عليه وأوصلته اليه. والرب تعالى هو الصبور بل لا احد
أصبر على أذى سمعه منه. وقد قيل ان الله سبحانه أوحى الى داود «تخلق
بأخلاقى فان من أخلاقى انى أنا الصبور» والرب تعالى يحب اسماءه وصفاته
ويحب مقتضى صفاته وظهور آثارها فى العبد فانه جميل يحب الجمال، عفو
يحب أهل العفو، كريم يحب أهل الكرم، عليم يحب أهل العلم، وتر
يحب أهل الوتر، قوى والمؤمن القوى احب اليه من المؤمن الضعيف،
صبور يحب الصابرين، شكور يحب الشاكرين. واذا كان سبحانه يحب
المتصفين بآثار صفاته فهو معهم بحسب نصيبهم من هذا الاتصاف. فهذه
المعية الخاصة عبر عنها بقوله « كنت له سمعا وبصراً ويداً ومؤيداً »

فصل

وزاد بعضهم قسما ثالثا من أقسام الصبر وهو الصبر مع الله وجعلوه
على أنواع الصبر. وقالوا هو الوفاء. ولو سئل هذا عن حقيقة الصبر مع الله
لما أمكنه أن يفسره بغير الانواع الثلاثة التى ذكرت وهى الصبر على أقضيته
والصبر على اوامره والصبر عن نواهيه فان زعم ان الصبر مع الله هو الثبات
معه على أحكامه يدور معها حيث دارت فيكون دائما مع الله لامع نفسه
فهو مع الله بالمحبة والموافقة فهذا المعنى حق ولكن مداره على الصبر

على الانواع المتقدمة فان زعم ان الصبر مع الله هو الجامع لانواع الصبر
فهذا حق ولكن جعله قسما رابعا من أقسام الصبر غير مستقيم

وأعلم ان حقيقة الصبر مع الله هو ثبات القلب بالاستقامة معه
وهو ان لايروغ عنه روغان الثعالب هاهنا وهاهنا فحقيقة هذا هو
الاستقامة اليه وعكوف القلب عليه وزاد بعضهم قسما آخر من اقسامه
وسماه الصبر فيه وهذا ايضا غير خارج عن اقسام الصبر المذكورة ولا يعقل
من الصبر فيه معنى غير الصبر له وهذا كما يقال فعلت هذا فى الله وله كما
قال خبيب :

وذلك فى ذات الاله وان يشأ
يبارك على اوصال شلو ممزع

وقد قال تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » وقال :
« وجاهدوا فى الله » وفى حديث جابر « ان الله تعالى لما احيا اباه وقال
له تمنّ قال يارب ان ترجعنى الى الدنيا حتى اقتل فيك مرة ثانية »
وقال صلى الله عليه وسلم « ولقد اوذيت فى الله وما يؤذى احد وهذا يفهم
منه معنيان احدهما ان ذلك فى مرضاته وطاعته وسبيله وهذا فيما يفعله
الانسان باختياره كما فى الحديث « تعلمت فيك العلم » والثانى انه بسببه
وبجهته حصل ذلك وهذا فيما يصيبه بغير اختياره وغالب مايأتى قولهم
ذلك فى الله فى هذا المعنى فتأمل قوله صلى الله عليه وسلم « ولقد أوذيت
فى الله » وقول خبيب « وذلك فى ذات الآله » وقول عبدالله ابن حرام
« حتى أقتل فيك » وكذلك قوله « والذين جاهدوا فينا » فانه يترتب

عليه الأذى فيه سبحانه وليست (فى) ها هنا للظرفية ولا لمجرد السببية
وان كانت السببية هى أصلها ، فانظر الى قوله « فى نفس المؤمن مائة
من الأبل » وقوله « دخلت امرأة النار فى هرة » كيف تجد فيه معنى
زائداً على السببية وليست (فى) للوعاء فى جميع معانيها فقولك « فعلت
هذا فى مرضاتك » فيه معنى زيد على قولك « فعلته لمرضاتك » وأنت
اذا قلت « أوذيت فى الله » لايقوم مقام هذا اللفظ كقولك «أوذيت لله»
ولا « بسبب الله » واذا فهم المعنى طوى حكم العبارة والمقصود ان
الصبر فى الله ان أريد به هـذا المعنى فهو حق وان أريد به معنى خارج
عن الصبر على أقضيته وعلى أوامره وعن نواهيه وله وبه لم يحصل فالصابر
فى الله كالمجاهد فى الله والجهاد فيه لايخرج عن معنى الجهـاد به وله والله
الموفق .

« وأما قول بعضهم « الصبر لله غناء والصبر بالله بقاء والصبر فى الله
بلاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفـاء » فـكلام لايجب التسليم
لقائله لأنه ذكر ماسنح له وتصوّره وانما يجب التسليم للنقل المصـدق
عن القائل المعصوم ، ونحن نشرح هذه الـكلمات أما قوله «الصبر لله غناء»
فان الصبر لله بترك حظوظ النفس ومرادها لمراد الله وهذا أشق شىء
على النفس وأصعبه فان قطع المفازة التى بين النفس وبين الله بحيث يسير
منها الى الله شديد جداً على النفس بخلاف السفر الى الآخرة فانه سهل
كما قال الجنيد « السير من الدنيا الى الآخرة سهل يعنى على المؤمن ،
وهجران الخلق فى جنب الحق شديد ، والسير من النفس الى الله صعب
شديد ، والصبر مع الله أشد » وأما قوله « والصبر بالله بقاء » فلأن العبد

اذا كان بالله هان عليه كل شىء ويتحمل الأثقال ولم يجد لها ثقلا فانه اذا
كان بالله لا بالخلق ولا بنفسه كان لقلبه وروحه وجود آخر وشأن آخر
غير شأنه اذا كان بنفسه وبالخلق وبهذا الحال لايجد عنـاء الصبر ولا
مرارته وتنقلب مشاق التـكليف له نعيما وقرة عين كما قال بعض الزهاد
« عالجت قيام الليل سنة وتنعمت به عشرين سنة » ومن كانت قرة عينه
فى الصلاة لم يجد لها مشقة وكلفة . وأما قوله « والصبر فى الله بلاء »
فالبلاء فوق الغناء والصبر فيه فوق الصبر له وأخص منه كما تقـدم فان
الصبر فيه بمنزلة الجهاد فيه وهو أشق من الجهاد له فـكل مجاهد فى الله
وصابر فى الله مجاهداً له وصابر له من غير عكس فان الرجل قد يجاهد
ويصبر لله مرة فيقع عليه اسم من فعل ذلك لله ولا يقع عليـه اسم من فعل
ذلك فى الله وانما يقع على من انغمس فى الجهاد والصبر ودخل الجنـة .
وأما قوله « والصبر مع الله وفاء » فلان الصبر معه هو الثبات معه على
أحكامه والا تزيغ القلب عن الانابة ولا الجوارح عن الطاعة فتعطى المعية
حقها من التوفية كما قال تعالى « وابراهيم الذى وفى » أى وفى ما أمر به
بصبره مع الله على أوامره وأما « قوله والصبر عن الله جفاء » فلا جفاء
أعظم ممن صبر عن معبوده والهه ومولاه الذى لامولى له سواه ولا حياة
له ولا صلاح ولا نعيم الا بمحبته والقرب منه وايثار مرضاته على كل شىء
فأى جفاء أعظم من الصبر عنه . وهذا معنى قول من قال : الصبر على ضد
بين صبر العابدين وصبر المحبين ، فصبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظاً
وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضاً كما قيل
يبين يوم البين ان اعتزامه على الصبر من احدى الظنون الـكواذب

وقال الآخر :

ولما دعوت الصبر بعدك والبكاء   اجاب البكاء طوعاً ولم يجب الصبر

قالوا ويدل عليه ان يعقوب صلوات الله وسلامه عليه قال « فصبر جميل » ورسول الله صلى الله عليه وسلم اذا وعد وفا ثم حمله الوجد على يوسف والشوق اليه ان قال « يا اسفا على يوسف فلم يكن عدم صبره عنه منافياً لقوله « فصبر جميل » فان الصبر الجميل الذى لاشكوى معه ولا تنافيه الشكوى الى الله سبحانه فانه قد قال انما أشكو بثى وحزنى الى الله » والله تعالى أمر رسوله بالصبر الجميل وقد امتثل ما أمر به وقال « اللهم اليك اشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى » الحديث . وأما قول بعضهم ان الصبر الجميل ان يكون صاحب المصيبة فى القوم لايدرى من هو فهذا من الصبر الجميل لان من فقده فقد الصبر الجميل فان ظهور أثر المصيبة على العبد مما لايمكن دفعه البتة وبالله التوفيق

وزاد بعضهم فى الصبر قسما آخر وسماه الصبر على الصبر وقال هو ان يستغرق فى الصبر حتى يعجز الصبر عن الصبر كما قيل :

صابر الصبر فاستغاث به الصبر   فصاح المحب بالصبر صبرا

وليس هذا خارجا عن اقسام الصبر وانما هو المرابطة على الصبر والثبات عليه والله أعلم

الباب الحادى عشر

فى الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام

كل أحد لابد ان يصبر على بعض مايكره إما اختيارا واما اضطرارا فالكريم يصبر اختيارا لعلمه بحسن عاقبة الصبر وانه يحمد عليه ويذم على الجزع وانه ان لم يصبر لم يرد الجزع عليه فائتا ولم ينزع عنه مكروهاً وان المقدور لاحيلة فى دفعه ومالم يقدر لاحيلة فى تحصيله فالجزع ضره أقرب من نفعه قال بعض العقلاء «العاقل عند نزول المصيبة يفعل مايفعله الاحمق بعد شهر كما قيل :

وان الامر يفضى الى آخر   فيصير آخره اولا

فاذا كان آخر الامر الصبر والعهد غير محمود فما احسن به ان يستقبل الامر فى اوله بما يستدبره الاحمق فى آخره . وقال بعض العقلاء « من لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم » فالكريم ينظر الى المصيبه فان رأى الجزع يردها ويدفعها فهذا قد ينفعه الجزع وان كان الجزع لاينفعه فانه يجعل المصيبة مصيبتين

فصل

واما اللئيم فانه يصبر اضطراراً فانه يحوم حول ساحة الجزع فلا يراها تجدى عليه شيئا فيصبر صبر الموثق للضرب . وأيضا فالكريم يصبر فى طاعة الرحمن واللئيم يصبر فى طاعة الشيطان فاللئام أصبر الناس فى طاعة أهوائهم وشهواتهم وأقل الناس صبراً فى طاعة ربهم ، فيصبر

على البذل فى طاعة الشيطان أتم صبر ولا يصبر على البذل فى طاعة الله فى أيسر شىء ، ويصبر على تحمل المشاق لهوى نفسه فى مرضاة عدوه ولا يصبر على ادنى المشاق فى مرضاة ربه ، ويصبر على مايقال فى عرضه فى المعصية ولا يصبر على مايقال فى عرضه اذا أوذى فى الله بل يفر من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر خشية ان يتكلم فى عرضه فى ذات الله ويبذل عرضه فى هوى نفسه ومرضاته صابرا على مايقال فيه وكذلك يصبر على التبذل بنفسه وجاهه فى هوى نفسه ومراده ولا يصبر على التبذل لله فى مرضاته وطاعته فهو أصبر شىء على التبذل فى طاعة الشيطان ومراد النفس واعجز شىء عن الصبر على ذلك فى الله وهذا أعظم اللؤم ، ولا يكون صاحبه كريما عند الله ولا يقوم مع أهل الكرم اذا نودى بهم يوم القيمة على رؤس الاشهاد ليعلم أهل الجمع من اولى بالكرم اليوم اين المتقون

الباب الثاني عشر — فى الاسباب التى تعين على الصبر

لما كان الصبر مأمورا به جعل الله سبحانه له اسبابا تعين عليه وتوصل اليه وكذلك ما أمر الله سبحانه بالامر الا اعان عليه ونصب له اسبابا تمده وتعين عليه كما انه ماقدر داء الا قدر له دواء وضمن الشفاء باستعماله فالصبر وان كان شاقا كريها على النفوس فتحصيله ممكن وهو يتركب من مفردين العلم والعمل فمنهما تركب جميع الادوية التى تداوى بها القلوب والابدان . فلا بد من جزء علمى وجزء عملى فمنهما يركب هذا الدواء الذى هو أنفع الادوية فاما الجزء العلمى فهو ادراك ما فى المأمور من الخير والنفع واللذة والكمال وادراك ما فى المحظور من الشر والضر والنقص

فاذا ادرك هذين العلمين كما ينبغى اضاف اليهما العزيمة الصادقة والهمة العالية والنخوة والمروءة الانسانية وضم هذا الجزء الى هذا الجزء فمتى فعل ذلك حصل له الصبر وهانت عليه مشاقه وحلت له مرارته وانقلب ألمه لذة . وقد تقدم ان الصبر مصارعة باعث العقل والدين لباعث الهوى والنفس وكل متصارعين ارادا ان يغلب احدهما على الآخر فالطريق فيه تقوية من أراد ان تكون الغلبة له ويضعف الاخر كالحال مع القوة والمرض سواء فاذا قوى باعث شهوة الوقاع المحرم وغلب بحيث لا يملك معها فرجه أو يملكه ولكن لا يملك طرفه أو يملكه ولكن لا يملك قلبه بل لا يزال يحدثه بما هناك ويعده ويمنيه ويصرفه عن حقائق الذكر والتفكر فيما ينفعه فى دنياه وآخرته فاذا عزم على التداوى ومقاومة هذا الداء فليضعفه اولا بأمور : احدها ان ينظر الى مادة قوة الشهوة فيجدها من الأغذية المحركة للشهوة اما بنوعها او بكميتها وكثرتها ليحسم هذه المادة بتقليلها فان لم تنحسم فليبادر الى الصوم فانه يضعف مجارى الشهوة ويكسر حدتها ولا سيما اذا كان اكله وقت الفطر معتدلا . الثانى ان يجتنب محرك الطلب وهو النظر فليقصر لجام طرفه ما امكنه فان داعى الارادة والشهوة انما يهيج بالنظر والنظر يحرك القلب بالشهوة وفى المسند عنه صلى الله عليه وسلم « النظر سهم مسموم من سهام ابليس » وهذا السهم يشرده ابليس نحو القلب ولا يصادف جنة دونه وليست الجنة الا غض الطرف او التحيز والانحراف عن جهة الرمى فانه انما يرمى هذا السهم عن قوس الصور فاذا لم تقف على طريقها اخطأ السهم وان نصبت قلبك غرضا فيوشك ان يقتله سهم من تلك السهام المسمومة : الثالث تسلية النفس بالمباح المعوض

عن الحرام فان كلما يشتهيه الطبع ففيما أباحه الله سبحانه غنية عنه وهذا هو
الدواء النافع فى حق اكثر الناس كما أرشد اليه النبى صلى الله عليه وسلم
فالدواء الاول يشبه قطع العلف عن الدابة الجموح وعن الكلب الضارى
لاضعاف قوتهما والدواء الثانى يشبه تغييب اللحم عن الكلب والشعير
عن البهيمة لئلا تتحرك قوتهما له عند المشاهدة . والدواء الثالث يشبه
اعطاءهما من الغذاء مايميل اليه طبعهما بحسب الحاجة لتبقى معه القوة
فتطيع صاحبهما ولا تغلب باعطاءها الزيادة على ذلك . الرابع التفكر فى
المفاسد الدنيوية المتوقعة من قضاء هذا الوطر فانه لو لم يكن جنة ولا نار
لكان فى المفاسد الدنيوية ماينهى عن اجابة هذا الداعى ولو تكلفنا عدها
لفاقت الحصر ولكن عين الهوى عمياء . الخامس الفكرة فى مقابح
الصورة التى تدعوه نفسه اليها ان كانت معروفة بالاجابة له ولغيره فيعز
نفسه ان يشرب من حوض ترده الكلاب والذئاب كما قيل :

سأترك وصلكم شرفاً وعزاً ... لخسة سائر الشركاء فيه

وقال آخر :

اذا كثر الذباب على طعام ... رفعت يدى ونفسى تشتهيه
وتجتنب الاسود ورود ماء ... اذا كان الكلاب يلغن فيه

وليذكر مخالطة ريقه لريق كل خبيث ريقه الداء الدوى فان ريق الفاسق
داء كما قيل

تسل ياقلب عن سمج بهجته ... مبذل كل من يلقاه يقرفه
كالماء أى صيد يأتيه ينهله ... والغصن أى نسيم من يعطفه
وان حلا ريق فاذكر مرارته ... فى فم ابخر يخفيه ويرشفه

ومن له أدنى مروءة ونخوة يأنف لنفسه من مواصلة من هذا شأنه
فان لم تجبه نفسه الى الاعراض ورضى بالمشاركة فلينظر الى ماوراء هذا
اللون والجمال الظاهر من القبائح الباطنة فان من مكن نفسه فعل القبائح
فنفسه أقبح من نفوس البهائم فانه لا يرضى لنفسه بذلك حيوان من
الحيوانات اصلا الا ما يحكى عن الخنزير وانه ليس فى البهائم لوطى
سواه فقد رضى هذا الممكن من نفسه انه يكون بمنزلة الخنزير وهذا
القبح يغطى كل جمال وملاحة فى الوجه والبدن غير ان حبك الشىء يعمى
ويصم وان كانت الصورة انثى فقد خانت الله ورسوله وأهلها وبعلها ونفسها
وأورث ذلك لمن بعدها من ذريتها فلها نصيب من وزرهم وعارهم ولا نسبة
لجمال صورتها الى هذا القبح البتة واذا أردت معرفة ذلك فانظر الى القبح
الذى يعلو وجه أحدهما فى كبره وكيف يقلب الله سبحانه تلك المحاسن
مقابح حتى تعلو الوحشة والقبح وجهه كما قيل شعرا

لو فكر العاشق فى منتهى ... حسن الذى يسبيه لم يسبه

وتفصيل هذه الوجوه يطول جداً فيكفى ذكر أصولها .

فصل

وأما تقوية باعث الدين فانه يكون بأمور : احدها اجلال الله تبارك
وتعالى أن يعصى وهو يرى ويسمع ومن قام بقلبه مشهد اجلاله لم يطاوعه
قلبه لذلك البتة . الثانى مشهد محبته سبحانه فيترك معصيته محبة له فان
المحب لمن يحب مطيع وأفضل الترك ترك المحبين كما ان أفضل الطاعة

طاعة المحبين فبين ترك المحب وطاعته وترك من يخاف العذاب وطاعته
بون بعيد . الثالث مشهد النعمة والاحسان فان الكريم لايقابل بالاساءة
من أحسن اليه وانما يفعل هذا لئام الناس فليمنعه مشهد احسان الله تعالى
ونعمته عن معصيته حياء منه أن يكون خير الله وانعامه نازلا اليه ومخالفاته
ومعاصيه وقبائحه صاعدة الى ربه فملك ينزل بهذا وملك يعرج بهذا فأقبح
بها من مقابلة . الرابع مشهد الغضب والانتقام فان الرب تعالى اذا تمادى
العبد فى معصيته غضب واذا غضب لم يقم لغضبه شىء فضلا عن هذا
العبد الضعيف . الخامس مشهد الفوات وهو مايفوته بالمعصية من خير
الدنيا والآخرة وما يحدث له بها من كل اسم مذموم عقلا وشرعا وعرفا
ويزول عنه من الاسماء الممدوحة شرعا وعقلا وعرفا ويكفى فى هذا
المشهد مشهد فوات الايمان الذى ادنى مثقال ذرة منه خير من الدنيا ومافيها
أضعافا مضاعفة فكيف يبيعه بشهوة تذهب لذاتها وتبقى تبعتها تذهب
الشهوة وتبقى الشقوة وقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لايزنى
الزانى حين يزنى وهو مؤمن . قال بعض الصحابة ينزع منه الايمان حتى
يبقى على رأسه مثل الظلة فان تاب رجع اليه وقال بعض التابعين ينزع عنه
الايمان كماينقص القميص فان تاب لبسه ولهذا روى عن النبى صلى الله عليه
وسلم فى الحديث الذى رواه البخارى الزناة فى التنور عراة لانهم تعروا
من لباس الايمان وعاد تنور الشهوة الذى كان فى قلوبهم تنورا ظاهرا يحمى
عليه فى النار . السادس مشهد القهر والظفر فان قهر الشهوة والظفر
بالشيطان له حلاوة ومسرة وفرحة عند من ذاق ذلك أعظم من الظفر بعدوه
من الآدميين واحلى موقعا وأتم فرحة وأما عاقبته فأحمد عاقبة وهو

كعاقبة شرب الدواء النافع الذى أزال داء الجسد وأعاده الى صحته
واعتداله . السابع مشهد العوض وهو ماوعد الله سبحانه من تعويض من
ترك المحارم لاجله ونهى نفسه عن هواها وليوازنه بين العوض والمعوض
فأيهما كان أولى بالايثار اختاره وارتضاه لنفسه . الثامن مشهد المعية وهو
نوعان معية عامة ومعية خاصة فالعامة اطلاع الرب عليه وكونه بعينه
لاتخفى عليه حاله وقد تقدم هذا والمقصود هنا المعية الخاصة كقوله ان
الله مع الصابرين وقوله ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وقوله وان
الله لمع المحسنين فهذه المعية الخاصة خير وأنفع فى دنياه وآخرته من قضى
وطره ونيل شهوته على التمام من أول عمره الى آخره فكيف يؤثر عليها
لذة منغصة منكدة فى مدة يسيرة من العمر انما هى كأحلام نائم أو كظل
زائل . التاسع مشهد المغافصة والمعاجلة وهو ان يخاف أن يغافصه الأجل
فيأخذه الله على غرة فيحال بينه وبين مايشتهى من لذات الدنيا وبينه وبين
مايشتهى من لذات الآخرة فيا لها من حسرة ماأمرها وما أصعبها لكن
مايعرفها الا من جربها وفى بعض الكتب القديمة يامن لايأمن على نفسه
طرفة عين ولا يتم له سرور يوم الحذر الحذر . العاشر مشهد البلاء والعافية
فان البلاء فى الحقيقة ليس الا الذنوب وعواقبها والعافية المطلقة هى الطاعات
وعواقبها فأهل البلاء هم أهل المعصية وان عوفيت ابدانهم وأهل العافية
هم أهل الطاعة وان مرضت أبدانهم وقال بعض أهل العلم فى الاثر المروى
اذا رأيتم أهل البلاء فسئلوا الله العافية فان اهل البلاء المبتلون بمعاصى الله
والاعراض والغفلة عنه وهذا وان كان أعظم البلاء فاللفظ يتناول أنواع
المبتلين فى أبدانهم وأديانهم والله أعلم . الحادى عشر أن يعود باعث الدين

ودواعيه مصارعة داعي الهوى ومقاومته على التدريج قليلا قليلا حتى
يدرك لذة الظفر فتقوى حينئذ همته فان من ذاق لذة شيء قويت همته
في تحصيله والاعتياد لممارسة الاعمال الشاقة تزيد القوى التي تصدر عنها
تلك الاعمال ولذلك تجد قوى الحمالين وارباب الصنائع الشاقة تتزايد بخلاف
البزاز والخياط ونحوهما ومن ترك المجاهدة بالكلية ضعف فيه باعث الدين
وقوى فيه باعث الشهوة ومتى عود نفسه مخالفة الهوى غلبه متى أراد .
الثاني عشر كف الباطل عن حديث النفس واذا مرت به الخواطر نفاها ولا
يؤويها ويساكنها فانها تصير مناوهي رؤوس أموال المفاليس ومتى ساكن
الخواطر صارت أماني ثم تقوى فتصير هموما ثم تقوى فتصير ارادات
ثم تقوى فتصير عزما يقترن به المراد فدفع الخاطر الاول اسهل وايسر
من رفع اثر المقدور بعد وقوعه وترك معاودته . الثالث عشر قطع العلائق
والاسباب التي تدعوه الى موافقة الهوى وليس المراد أن لا يكون له
هوى بل المراد ان يصرف هواه الى ماينفعه ويستعمله في تنفيذ مراد
الرب تعالى فان ذلك يدفع عنه شر استعماله في معاصيه فان كل شيء من
الانسان يستعمله لله فان الله يقيه شر استعماله لنفسه وللشيطان
ومالا يستعمله لله استعمله لنفسه وهواه ولا بد فالعلم ان لم يكن لله كان
للنفس والهوى والعمل ان لم يكن لله كان للريا والنفاق والمال أن لم ينفق
في طاعة الله أنفق في طاعة الشيطان والهوى والجاه ان لم يستعمله لله
استعمله صاحبه في هواه وحظوظه والقوة ان لم يستعملها في أمر الله
استعملته في معصيته فمن عود نفسه العمل لله لم يكن عليه أشق من العمل
لغيره ومن عود نفسه العمل لهواه وحظه لم يكن عليه أشق من الاخلاص

والعمل لله وهذا في جميع أبواب الاعمال فليس شيء أشق على المنفق لله
من الانفاق لغيره وكذا بالعكس . الرابع عشر صرف الفكر الى عجائب
آيات الله التي ندب عباده الى التفكر فيها وهي آياته المتلوة وآياته المجلوة
فاذا استولى ذلك على قلبه دفع عنه محاظرة الشيطان ومحادثته ووسواسه
وما اعظم غبن من امكنه ان لايزال محاظرا للرحمن وكتابه ورسوله
والصحابة فرغب عن ذلك الى محاظرة الشيطان من الانس والجن فلا غبن
بعد هذا الغبن والله المستعان . الخامس عشر التفكر في الدنيا وسرعة
زوالها وقرب انقضائها فلا يرضى لنفسه ان يتزود منها الى دار بقاءه
وخلوده اخس مافيها واقله نفعا الا ساقط الهمة دني المروءة ميت القلب
فان حسرته تشتد اذا عاين حقيقة ماتزوده وتبين له عدم نفعه له فكيف
اذا كان ترك تزود ماينفعه الى زاد يعذب به ويناله بسببه غاية الالم بل اذا
تزود ماينفعه وترك ماهو انفع منه له كان ذلك حسرة عليه وغبنا :
السادس عشر تعرضه الى من القلوب بين أصبعيه وازمة الامور بيديه
وانتهاء كل شيء اليه على الدوام فلعله ان يصادف أوقات النفحات كما في
الاثر المعروف ان لله في ايام دهره نفحات فتعرضوا لنفحاته واسئلوا الله ان
يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم ولعله في كثرة تعرضه ان يصادف ساعة
من الساعات التي لا يسأل الله فيها شيئا الا أعطاه فمن اعطى منشور
الدعاء اعطى الاجابة فانه لو لم يرد اجابته لما الهمه الدعاء كما قيل :

لو لم ترد نيل مارجو واطلبه — من جود كفك ماعودتني الطلبا

ولا يستوحش من ظاهر الحال فان الله سبحانه يعامل عبده معاملة
من ليس كمثله شيء في أفعاله كما ليس كمثله شيء في صفاته فانه ما حرمه

الا ليعطيه ولا أمرضه الا ليشفيه ولا افقره الا ليغنيه ولا اماته الا ليحييه
وما اخرج ابويه من الجنة الا ليعيدهما اليها على اكمل حال كما قيل يا آدم
لاتجزع من قولى لك اخرج منها فلك خلقتها وساعيدك اليها فالرب تعالى
ينعم على عبده بابتلائه ويعطيه بحرمانه ويصحه بسقمه فلا يستوحش
عبده من حالة تسوءه اصلا الا اذا كانت تغضبه عليه وتبعده منه .
السابع عشر ان يعلم العبد بان فيه جاذبين متضادين ومحنته بين الجاذبين
جاذب يجذبه الى الرفيق الاعلى من أهل عليين وجاذب يجذبه الى اسفل
سافلين فكلما انقاد مع الجاذب الاعلى صعد درجة حتى ينتهى الى حيث
يليق به من المحل الاعلى وكلما انقاد الى الجاذب الاسفل نزل درجة حتى
ينتهى الى موضعه من سجين ومتى أراد ان يعلم هل هو مع الرفيق الاعلى
أو الاسفل فلينظر اين روحه فى هذا العالم فانها اذا فارقت البدن تكون
فى الرفيق الاعلى الذى كانت تجذبه اليه فى الدنيا فهو أولى بها فالمرء مع
من احب طبعا وعقلا وجزاء وكل مهتم بشىء فهو منجذب اليه والى اهله
بالطبع وكل امرىء يصبو الى ما يناسبه وقد قال تعالى « قل كل يعمل على
شاكلته » فالنفوس العلوية تنجذب بذاتها وهممها وأعمالها الى أعلى والنفوس
السافلة الى أسفل . الثامن عشر ان يعلم العبد ان تفريغ المحل شرط لنزول
غيث الرحمة وتنقيته من الدغل شرط لكمال الزرع فمتى لم يفرغ المحل لم
يصادف غيث الرحمة محلا قابلا ينزل فيه وان فرغه حتى أصابه غيث
الرحمة لكنه لم ينقه من الدغل لم يكن الزرع زرعا كاملا بل ربما غلب
الدغل على الزرع فكان الحكم له وهذا كالذى يصلح أرضه ويهيئها لقبول
الزرع ويودع فيها البذور ينتظر نزول الغيث فاذا طهر العبد قلبه وفرغه

من ارادات السوء وخواطره وبذر فيه بذر الذكر والفكر والمحبة والاخلاص
وعرضه لمهاب رياح الرحمة وانتظر نزول غيث الرحمة فى أوانه كان جديرا
بحصول المغل وكما يقوى الرجاء لنزول الغيث فى وقته كذلك يقوى الرجاء
لاصابة نفحات الرحمن جل جلاله فى الاوقات الفاضلة والاحوال الشريفة
ولاسيما اذا اجتمعت الهمم وتساعدت القلوب وعظم الجمع كجمع عرفة
وجمع الاستسقاء وجمع أهل الجمعة فان اجتماع الهمم والانفاس أسباب
نصبها الله تعالى مقتضية لحصول الخير ونزول الرحمة كما نصب سائر الاسباب
مقتضية الى مسبباتها بل هذه الاسباب فى حصول الرحمة أقوى من
الاسباب الحسية فى حصول مسبباتها ولكن العبد بجهله يغلب عليه
الشاهد على الغائب الحسن وبظلمه يؤثر مايحكم به هذا ويقتضيه على
مايحكم به الآخر ويقتضيه ولو فرغ العبد المحل وهيئه وأصلحه لرأى
العجائب فان فضل الله لايرده الا المانع الذى فى العبد فلو زال ذلك المانع
لسارع اليه الفضل من كل صوب . فتأمل حال نهر عظيم يسقى كل ارض
يمر عليها فحصل بينه وبين بعض الارض المعطشة المجدبة سكر وسد كثيف
فصاحبها يشكو الجدب والنهر الى جانب ارضه . التاسع عشر ان يعلم العبد
ان الله سبحانه خلقه لبقاء لافناء له ولعز لاذل معه وأمن لاخوف فيه وغناء
لا فقر معه ولذة لا الم معها وكمال لانقص فيه وامتحنه فى هذه الدار بالبقاء
الذى يسرع اليه الفناء والعز الذى يقارنه الذل ويعقبه الذل والامن الذى معه
الخوف وبعده الخوف وكذلك الغناء واللذة والفرح والسرور والنعيم الذى
هنا مشوب بضده لانه يتعقبه ضده وهو سريع الزوال فغلط أكثر الخلق فى
هذا المقام اذ طلبوا النعيم والبقاء والعز والملك والجاه فى غير محله ففاتهم فى محله

واكثرهم لم يظفر بما طلبه من ذلك والذى ظفر به انما هو متاع قليل والزوال قريب فانه سريع الزوال عنه والرسل صلوات الله وسلامه عليهم انما جاؤا بالدعوة الى النعيم المقيم والملك الكبير فمن أجابهم حصل له ألذ مافى الدنيا وأطيبه فكان عيشه فيها أطيب من عيش الملوك فمن دونهم فان الزهد فى الدنيا ملك حاضر والشيطان يحسد المؤمن عليه أعظم حسد فيحرص كل الحرص على أن لايصل اليه فان العبد اذا ملك شهوته وغضبه فانقادا معه لداعى الدين فهو الملك حقا لان صاحب هذا الملك حر والملك المنقاد لشهوته وغضبه عبد شهوته وغضبه فهو مسخر مملوك فى زى مالك يقوده زمام الشهوة والغضب كما يقاد البعير فالمغرور المخدوع يقطع نظره على الملك الظاهر الذى صورته ملك وباطنه رق وعلى الشهوة التى اولها لذة وآخرها حسرة والبصير الموفق يعبر نظره من الاوائل الى الاواخر ومن المبادىء الى العواقب وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . العشرون أن لا يغتر العبد باعتقاده ان مجرد العلم بما ذكرنا كاف فى حصول المقصود بل لا بد أن يضيف اليه بذل الجهد فى استعماله واستفراغ الوسع والطاقة فيه وملاك ذلك الخروج عن العوائد فانها أعداء الكمال والفلاح فلا أفلح من استمر مع عوائده أبداً ويستعين على الخروج عن العوايد بالهرب عن مظان الفتنة والبعد عنها ما أمكنه وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم «من سمع بالدجال فلينأ عنه» فما استعين على التخلص من الشر بمثل البعد عن أسبابه ومظانه . وها هنا لطيفة الشيطان لا يتخلص منها الا حاذق وهى أن يظهر له فى مظان الشر بعض شىء من الخير ويدعوه الى تحصيله فاذا قرب منه القاه فى الشبكة والله أعلم

الباب الثالث عشر

فى بيان ان الانسان لا يستغنى عن الصبر فى حال من الاحوال

فانه بين أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه ونهى يجب عليه اجتنابه وتركه وقدر يجرى عليه اتفاقا ونعمة يجب شكر المنعم عليها واذا كانت هذه الاحوال لا تفارقه فالصبر لازم له الى الممات وكل مايلقى العبد فى هذه الدار لا يخلو من نوعين : أحدهما يوافق هواه ومراده والآخر يخالفه وهو محتاج الى الصبر فى كل منهما . أما النوع الموافق لغرضه فكالصحة والسلامة والجاه والمال وأنواع الملاذ المباحة وهو احوج شىء الى الصبر فيها من وجوه : احدها ان لا يركن اليها ولا يغتر بها ولا تحمله على البطر والاشر والفرح المذموم الذى لا يحب الله اهله . الثانى ان لا ينهمك فى نيلها ويبالغ فى استقصائها فانها تنقلب الى اضدادها ، فمن بالغ فى الاكل والشرب والجماع انقلب ذلك الى ضده وحرم الاكل والشرب والجماع . الثالث ان يصبر على اداء حق الله فيها ولا يضيعه فيسلبها . الرابع ان يصبر عن صرفها فى الحرام فلا يمكن نفسه من كل ماتريده منها فانها توقعه فى الحرام فان احترز كل الاحتراز اوقعته فى المكروه ولا يصبر على السراء الا الصديقون . قال بعض السلف «البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر ولا يصبر على العافية الا الصديقون» . وقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه «ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر» ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والازواج والاولاد فقال تعالى

« يا أيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » وقال تعالى « يا ايها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » وليس المراد من هذه العداوة مايفهمه كثير من الناس انها عداوة البغضاء والمحادة بل انما هى عداوة المحبة الصادرة للاباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين واعمال البر كما فى جامع الترمذى من حديث اسرائيل حدثنا سماك عن عكرمة عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية « ياأيها الذين آمنوا ان من ازواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » قال « هؤلاء رجال اسلموا من أهل مكة فارادوا ان يأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم ان يدعوهم ان يأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأوا الناس قد فقهوا فى الدين هموا ان يعاقبوهم فانزل الله « ياايها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم » الآية قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح . وما اكثر مافات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده وفى الحديث « الولد مبخلة مجبنة » وقال الامام احمد حدثنا زيد بن الحباب قال حدثنى زيد بن واقد قال حدثنى عبدالله بن بريدة قال سمعت ابى يقول كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبنا فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان احمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال صدق الله « انما أموالكم وأولادكم فتنة » نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما . وهذا من كمال رحمته صلى الله عليه وسلم ولطفه بالصغار وشفقته عليهم، وهو تعليم منه للامة الرحمة والشفقة واللطف بالصغار

فصل

وانما كان الصبر على السراء شديداً لانه مقرون بالقدرة والجائع عند غيبة الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره وكذلك الشبق عند غيبة المرأة أصبر منه عند حضورها

فصل

وأما النوع الثانى المخالف للهوى فلايخلو اما ان يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصى اولا يرتبط اوله باختياره كالمصائب أو يرتبط أوله باختياره ولكن لا اختيار له فى ازالته بعد الدخول فيه فهاهنا ثلاثة أقسام

احدها مايرتبط باختياره وهو جميع افعاله التى توصف بكونها طاعة أو معصية ، فأما الطاعة فالعبد محتاج الى الصبر عليها لان النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبودية اما فى الصلاة فلما فى طبعها من الكسل وايثار الراحة ولاسيما اذا اتفق مع ذلك قسوة القلب ورين الذنب والميل الى الشهوات ومخالطة أهل الغفلة فلايكاد العبد مع هذه الامور وغيرها ان يفعلها وان فعلها مع ذلك كان متكلفاً غائب القلب ذاهلا عنها طالبا لفراقها كالجالس الى الجيفة . وأما الزكاة فلما فى طبعها [١] من الشح والبخل وكذلك الحج والجهاد للامرين جميعا . ويحتاج العبد هاهنا الى الصبر فى ثلاثة أحوال أحدها قبل الشروع فيها بتصحيح النية والاخلاص وتجنب دواعى الرياء والسمعة وعقد العزم على توفية المأمورية حقه . الحالة الثانية الصبر حال العمل فيلازم العبد الصبر عن دواعى التقصير فيه والتفريط ويلازم الصبر على استصحاب ذكر النية وعلى حضور القلب بين يدى المعبود وان

(١) اى النفس

لاينساه فى أمره فليس الشأن فى فعل المأمور بل الشأن كل الشأن ان لاينسى الآمر حال الاتيان بأمره بل يكون مستصحبا لذكره فى أمره فهذه عبادة العبيد المخلصين لله فهو محتاج الى الصبر على توفيــة العبادة حقها بالقيام بادائها واركانها وواجباتها وسننها والى الصبر على استصحاب ذكر المعبود فيها ولا يشتغل عنه بعبادته فلا يعطله حضوره مع الله بقلبه عن قيام جوارحه بعبوديته ولا يعطله قيام الجوارح بالعبودية عن حضور قلبه بين يديه سبحانه . الحالة الثالثة الصبر بعد الفراغ من العمل وذلك من وجوه أحدها أن يصبر نفسه عن الاتيان بما يبطله عمله قال تعالى « ياأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » فليس الشأن الاتيــان بالطاعة انما الشأن فى حفظها مما يبطلها . الثانى أن يصبر عن رؤيتها والعجب بها والتكبر والتعظم بها فان هذا اضر عليه من كثير من المعاصى الظاهرة الثالث أن يصبر عن نقلها من ديوان السر الى ديوان العلانية فان العبــد يعمل العمل سرا بينه وبين الله سبحانه فيكتب فى ديوان السر فان تحدث به نقل الى ديوان العلانية فلا يظن ان بساط الصبر انطوى بالفراغ من العمل

فصل

وأما الصبر عن المعاصى فأمره ظاهر وأعظم مايعين عليه قطع المألوفات ومفارقة الاعوان عليها فى المجالسة والمحادثة وقطع العوائد فان العادة طبيعة خاصة فاذا انضافت الشهوة الى العادة تظاهر جندان من جند الشيطان فلا يقوى باعث الدين على قهرهما

فصل

القسم الثانى مالا يدخل تحت الاختيار وليس للعبد حيلة فى دفعه كالمصائب التى لاصنع للعبد فيها كموت من يعز عليه وسرقة ماله ومرضه ونحو ذلك وهذا نوعان . أحدهما مالاصنع للعبد لآدمى فيه والثانى ما اصابه من جهة آدمى مثله كالسب والضرب وغيرهما . فالنوع الاول للعبد فيــه اربع مقامات احدها مقام العجز وهو مقام الجزع والشكوى والسخط وهذا مالا يفعله الا اقل الناس عقلا ودينا ومروءة وهو أعظم المصيبتين . المقام الثانى مقام الصبر اما لله واما للمروءة الانسانية . المقام الثالث مقام الرضى وهو اعلى من مقام الصبر وفى وجوبه نزاع والصبر متفق على وجوبه . المقام الرابع مقام الشكر وهو اعلى من مقام الرضى فانه يشهد البلية نعمــة فيشكر المبتلى عليها . وأما النوع الثانى وهو ما أصابه من قبل النــاس فله فيه هذه المقامات وينضاف اليها أربعة أخر . احدها مقــام العفو والصفح والثانى مقام سلامة القلب من ارادة التشفى والانتقام وفراغه من ألم مطالعة الجناية كل وقت وضيقه بها . الثالث مقام شهود القدر وانه ان كان ظالما بايصال هذا الاذى اليك فالذى قدره عليك وأجراه على يد هــذا الظالم ليس بظالم وأذى الناس مثل الحر والبرد لاحيلة فى دفعه فالمتسخط من أذى الحر والبرد غير حازم والكل جار بالقدر وان اختلفت طرقه وأسبابه . المقام الرابع مقام الاحسان الى المسىء ومقابلة اساءته باحسانك وفى هذا المقام من الفوائد والمصالح مالا يعلمه الا الله فان فات العبــد هذا المقام العالى فلا يرض لنفسه بأخس المقامات وأسفلها

فصل

القسم الثالث ..مايكون وروده باختيـاره فاذا تمكن لم يكن له اختيار ولا حيلة فى دفعه وهدا كالعشق أوله اختيـار وآخره اضطرار ، وكالتعرض لاسباب الأمراض والآلام التى لاحيلة فى دفعها بعد مباشرة أسبابها كما لاحيلة فى دفع السكر بعد تناول المسكر . فهـذا كان فرضه الصبر عنه فى أوله فلما فاته بقى فرضه الصبر عليه فى آخره وأن لا يطيع داعى هواه ونفسه وللشيطان هاهنا دسيسة عجيبة وهى أن يخيل اليه أن ينل بعض مامنع قد يتعين عليه أو يباح له على سبيل التداوى، وغايته أن يكون كالتداوى بالخمر والنجاسة ، وقد أجازه كثير من الفقهاء وهذا من أعظم الجهل، فان هذا التداوى لايزيل الداء بل يزيده ويقويه وكم ممن تداوى بذلك فكان هلاك دينه ودنياه فى هذا الدواء بل الدواء النافع لهذا الداء الصبر والتقوى كما قال تعالى « وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور » وقال « انه من يتق ويصبر فان الله لايضيع أجر المحسنين » فالصبر والتقوى دواء كل داء من ادواء الدين ولا يستغنى أحدهما عن صاحبه ، فان قيل . فهل يثاب على الصبر فى هذا القسم اذا كان عاصياً مفرطا بتعاطى أسبابه وهل يكون معاقباً على ماتولد منـه وهو غير اختيارى له . قيل : نعم اذا صبر لله تعالى وندم على ماتعاطاه من السبب المحظور أثيب على صبره لانه جهاد منـه لنفسه وهو عمل صالح والله لايضيع أجر من أحسن عملا وأما عقوبته على ماتولد منه فانه يستحق العقوبة على السبب وما تولد منه كما يعاقب السكران على ماجناه فى حال

سـكره فاذا كان السبب محظوراً لم يكن السكران مقـدوراً فان الله سبحانه يعاقب على الاسباب المحرمة وعلى ما تولد منها كما يثيب على الاسباب المأمور بها وعلى ماتولد منها . ولذا كان من دعا الى بدعة وضلالة فعليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه لان اتباعهم له تولد عن فعله ولذلك كان على ابن آدم القاتل لأخيـه كفل من ذنب كل قاتل الى يوم القيامة ، وقد قال تعالى « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم » وقال تعالى «وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم» فان قيل : فـكيف التوبة من هذا المتولد وليس من فعله والانسان انما يتوب عما يتعلق باختياره قيل التوبة منه بالندم عليه وعدم اجابة دواعيه وموجباته وحبس النفس عن ذلك ، فان كان المتولد متعلقا بالغير فتوبته مع ذلك برفعه عن الغير بحسب الامكان ولهـذا كان من توبة الداعى الى البدعة أن يبين ان ما كان يدعو اليه بدعة وضلالة وان الهدى فى ضده كما شرط تعالى فى توبة اهل الـكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما انزل الله من البينات والهدى ليضلوا الناس بذلك أن يصلحوا العمل في نفوسهم ويبينوا للناس ما كانوا يكتمونهم اياه فقـال « ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للنـاس فى الكتاب اولئـك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون الا الذين تابوا واصلحوا وبينوا فأولئـك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم » وهذا كما شرط فى توبة المنـافقين الذين كان ذنبهم افساد قلوب ضعفاء المؤمنين وتحيزهم واعتصامهم باليهود والمشركين اعداء الرسول واظهارهم الاسلام رياء وسمعـة أن يصلحوا بدل افسادهم وان يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالـكفار من اهل الـكفار والمشركين وأن

يخلصوا دينهم لله بدل اظهارهم له رياء وسمعة فهكذا تفهم شرائط التوبة وحقيقتها والله المستعان

الباب الرابع عشر

فى بيان أشق الصبر على النفوس

مشقة الصبر بحسب قوة الداعى إلى الفعل وسهولته على العبد فاذا اجتمع فى الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشق شىء على الصابر، وان فقدا معا سهل الصبر عنه وان وجد احدهما وفقد الآخر سهل الصبر من وجه وصعب من وجه فمن لا داعى له إلى القتل والسرقة وشرب المسكر وانواع الفواحش ولا هو سهل عليه فصبره عنه من ايسر شىء وأسهله ومن اشتد داعيه الى ذلك وسهل عليه فعله فصبره عنه اشق شىء عليه ولهذا كان صبر السلطان عن الظلم وصبر الشاب عن الفاحشة وصبر الغنى عن تناول اللذات والشهوات عند الله بمكان وفى المسند وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم عجب ربك من شاب ليست له صبوة ولذلك استحق السبعة المذكورون فى الحديث الذين يظلهم الله فى ظل عرشه لكمال صبرهم ومشقته فان صبر الامام المتسلط على العدل فى قسمه وحكمه ورضاه وغضبه وصبر الشاب على عبادة الله ومخالفة هواه وصبر الرجل على ملازمة المسجد وصبر المتصدق على اخفاء الصدقة حتى عن بعضه، وصبر المدعو الى الفاحشة مع كمال جمال الداعى ومنصبه، وصبر المتحابين فى الله على ذلك فى حال اجتماعهما وافتراقهما، وصبر الباكى من خشية الله على كتمان ذلك واظهاره للناس من أشق الصبر، ولهذا كان عقوبة الشيخ الزانى والملك

الكذاب والفقير المختال أشد العقوبة لسهولة الصبر عن هذه الاشياء المحرمات عليهم لضعف دواعيها فى حقهم، فكان تركهم الصبر عنها مع سهولته عليهم دليلا على تمردهم على الله وعتوهم عليه ولهذا كان الصبر عن معاصى اللسان والفرج من أصعب أنواع الصبر لشدة الداعى اليهما وسهولتهما فان معاصى اللسان فاكهة الانسان كالنميمة والغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضا وتصريحا وحكاية كلام الناس والطعن على من يبغضه ومدح من يحبه ونحو ذلك فتتفق قوة الداعى وتيسر حركة اللسان فيضعف الصبر، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ « امسك عليك لسانك » فقال « وانا لمؤاخذون بما نتكلم به » فقال « وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم » ولا سيما اذا صارت المعاصى اللسانية معتادة للعبد فانه يعز عليه الصبر عنها . ولهذا تجد الرجل يقوم الليل ويصوم النهار ويتورع من استناده الى وسادة حرير ، لحظة واحدة، ويطلق لسانه فى الغيبة والنميمة والتفكه فى أعراض الخلق وربما خص أهل الصلاح والعلم بالله والدين والقول على الله مالا يعلم . وكثير ممن تجده يتورع عن الدقائق من الحرام والقطرة من الخمر ومثل رأس الابرة من النجاسة ، ولا يبالى بارتكاب الفرج الحرام كما يحكى ان رجلا خلا بامرأة اجنبية فلما أراد مواقعتها قال ياهذه غطى وجهك فان النظر الى وجه الاجنبية حرام وقد سأل رجل عبد الله بن عمر [1] عن دم البعوض فقال انظروا

(١) فى هامش الاصل : وفى نسخة : سأل عبد الله بن عمر رجل من أهل الكوفة »

الى هؤلاء يسألونى عن دم البعوض وقد قتلوا ابن ابنت رسول الله صلى
عليه وسلم . واتفق لى قريب من هذه الحكاية كنت فى حال الاحرام
فاتانى قوم من الاعراب المعروفين بقتل النفوس والاغارة على الاموال
يسألونى عن قتل المحرم القمل فقلت ياعجبا لقوم لايتورعون عن قتل
النفس التى حرم الله ويسألون عن قتل القملة فى الاحرام . والمقصود ان
اختلاف شدة الصبر فى أنواع المعاصى واحادها يكون باختلاف داعيه
الى تلك المعصية فى قوتها وضعفها . ويذكر عن على رضى الله عنه انه قال
« الصبر ثلاثة فصبر على المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية .
فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة
ومن صبر على الطاعة حتى يؤديها كما أمر الله كتب الله له ستمائة درجة
ومن صبر عن المعصية خوفا من الله ورجاء ماعنده كتب الله له تسعمائة
درجة » وقال ميمون بن مهران « الصبر صبران فالصبر على المصيبة حسن
وافضل منه الصبر عن المعصية » وقال الفضيل فى قوله تعالى « سلام عليكم
بما صبرتم » ثم قال « صبروا على ما أمروا به وصبروا عما نهوا عنه » وكأنه
جعل الصبر على المصيبة داخلا فى قسم المأمور به والله أعلم

الباب الخامس عشر

فى ذكر ماورد فى الصبر من نصوص الكتاب العزيز

قال الامام احمد رحمه الله « ذكر الله سبحانه الصبر فى القرآن فى
تسعين موضعاً » انتهى . ونحن نذكر الانواع التى سيق فيها الصبر وهى
عدة أنواع : احدها الامر به كقوله « واصبر وماصبرك الا بالله » « واصبر

لحكم ربك » الثانى النهى عما يضاده كقوله « ولا تستعجل لهم » وقوله
« ولا تهنوا ولا تحزنوا » وقوله « ولا تكن كصاحب الحوت » . وبالجملة
فكلما نهى عنه فانه يضاد الصبر المأمور به . الثالث تعليق الفلاح به كقوله
« ياايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون »
فعلق الفلاح بمجموع هذه الامور . الرابع الاخبار عن مضاعفة أجر
الصابر على غيره كقوله « اولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا »
وقوله « انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » قال سليمان ابن القاسم
كل عمل يعرف ثوابه الا الصبر قال الله تعالى « انما يوفى الصابرون
أجرهم بغير حساب » قال : كالماء المنهمر . الخامس تعليق الامامة فى
الدين به وباليقين قال الله تعالى « وجعلناهم ائمة يهدون بأمرنا لما صبروا
وكانوا بآياتنا يوقنون » فبالصبر واليقين تنال الامامة فى الدين . السادس
ظفرهم بمعية الله سبحانه لهم قال تعالى « ان الله مع الصابرين » قال أبو على
الدقاق « فاز الصابرون بعز الدارين لانهم نالوا من الله معيته . السابع انه
جمع للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم وهى الصلاة منه عليهم ورحمته
لهم وهدايته اياهم قال تعالى « وبشر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة
قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك
هم المهتدون » وقال بعض السلف وقد عزى على مصيبة نالته فقال مالى
لا أصبر وقد وعدنى الله على الصبر ثلاث خصال كل خصلة منها خير من
الدنيا وماعليها . الثامن انه سبحانه جعل الصبر عونا وعدة وأمر بالاستعانة
به فقال « واستعينوا بالصبر والصلاة » فمن لا صبر له لاعون له . التاسع
انه سبحانه علق النصر بالصبر والتقوى فقال تعالى « بلى ان تصبروا وتتقوا

يأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين»
ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « واعلم ان النصر مع الصبر » . العاشر
انه سبحانه جعل الصبر والتقوى جنة عظيمة من كيد العدو ومكره فما
استجن العبد من ذلك جنة أعظم منهما قال تعالى « وان تصبروا وتتقوا
لايضركم كيدهم شيئا » . الحادى عشر انه سبحانه أخبر ان ملائكته تسلم
عليهم فى الجنة بصبرهم كما قال تعالى « والملائكة يدخلون عليهم من كل
باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » الثانى عشر انه سبحانه اباح
لهم ان يعاقبوا على ماعوقبوا به ثم أقسم قسما مؤكدا غاية التأكيد ان
صبرهم خير لهم فقال « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم
لهو خير للصابرين » فتأمل هذا التأكيد بالقسم المدلول عليه بالواو ثم
باللام بعده ثم باللام التى فى الجواب . الثالث عشر انه سبحانه رتب المغفرة
والاجر الكبير على الصبر والعمل الصالح فقال « الا الذين صبروا وعملوا
الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » وهؤلاء ثنية (١) الله من نوع
الانسان المذموم الموصوف باليأس والكفر عند المصيبة والفرح والفخر
عند النعمة ولا خلاص من هذا الذم الا بالصبر والعمل الصالح كما لاتنال
المغفرة والاجر الكبير الا بهما . الرابع عشر انه سبحانه جعل الصبر
على المصائب من عزم الأمور أى مما يعزم من الامور التى انما يعزم على
اجلها وأشرفها فقال « ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور » وقال

(١) ثنيه الله أى الذين استثناهم الله . ومثله حديث كعب وقيل ابن جبير
« الشهداء ثنية الله فى الخلق » اى الذين استثناهم الله من الصعق الذى يصيب
الخلق اذا نفخ فى الصور .

لقمان لابنه وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك
من عزم الامور . الخامس عشر انه سبحانه وعد المؤمنين بالنصر والظفر
وهى كلمته التى سبقت لهم وهى الكلمة الحسنى واخبر انه انما نالهم ذلك
بالصبر فقال تعالى وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا .
السادس عشر انه سبحانه علق محبته بالصبر وجعلها لاهله فقال «وكأين من
نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا
وما استكانوا والله يحب الصابرين ». السابع عشر . انه سبحانه أخبر عن
خصال الخير انه لايلقاها الا الصابرون فى موضعين من كتابه فى سورة
القصص فى قصة قارون وان الذين أوتو العلم قالوا للذين تمنوا مثل ما أوتى
ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون وفى
سورة حم السجدة حيث أمر العبد أن يدفع بالتى هى أحسن فاذا فعل
ذلك، صار الذى بينه وبينه عداوة كأنه حبيب قريب ثم قال« ولا يلقاها الا
الذين صبروا ولا يلقاها الا ذو حظ عظيم» . الثامن عشر انه سبحانه أخبر
انه انما ينتفع بآياته ويتعظ بها الصبار الشكور فقال تعالى « ولقد أرسلنا
موسى بآياتنا ان أخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله ان
فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » وقال تعالى فى لقمان «ألم تر ان الفلك تجرى
فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور »
وقال فى قصة سبا « وجعلناهم احاديث ومزقناهم كل ممزق ان فى ذلك لآيات
لكل صبار شكور » وقال تعالى « ومن آياته الجوار فى البحر كالاعلام
ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ان فى ذلك لآيات لكل
صبار شكور » فهذه اربعة مواضع فى القرآن تدل على ان آيات الرب

انماينتفع بها أهل الصبر والشكر التاسع عشر – انه اثنى على عبده أيوب بأحسن الثناء على صبره فقال «اناوجدناه صابرا نعم العبد انه أواب» فأطلق عليه نعم العبد بكونه وجده صابرا وهذا يدل على أن من لم يصبر اذا ابتلى فانه بئس العبد. العشرون -- انه سبحانه حكم بالخسران حكما عاما على كل من لم يؤمن ولم يكن من أهل الحق والصبر وهذا يدل على انه لا رابح سواهم فقال «تعالى والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» ولهذا قال الشافعى لو فكر الناس كلهم فى هذه الآية لوسعتهم ولذلك ان العبد كماله فى تكميل قوتيه قوة العلم وقوة العمل وهما الايمان والعمل الصالح وكما هو محتاج الى تكميل نفسه فهو محتاج الى تكميل غيره وهو التواصى بالحق والتواصى بالصبر وأخية ذلك وقاعدته وساقه الذى يقوم عليه انما هو الصبر. الحادى والعشرون - انه سبحانه خص أهل الميمنة بأنهم أهل الصبر والمرحمة الذين قامت بهم هاتان الخصلتان ووصوا بهما غيرهم فقال تعالى «ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك اصحاب الميمنة» وهذا حصر لاصحاب الميمنة فيمن قام به هذان الوصفان والناس بالنسبة اليهما أربعة اقسام هؤلاء خير الاقسام وشرهم من لا صبر له ولا رحمة فيه ويليه من له صبر ولا رحمة عنده ويليه القسم الرابع وهو من له رحمة ورقة ولكن لا صبر له. الثانى والعشرون – انه سبحانه قرن الصبر بأركان الاسلام ومقامات الايمان كلها فقرنه بالصلاة كقوله «واستعينوا بالصبر والصلاة» وقرنه بالاعمال الصالحة عموما كقوله «الا الذين صبروا

وعملوا الصالحات وجعله قرين التقوى كقوله «انه من يتق ويصبر» وجعله قرين الشكر كقوله «ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور» وجعله قرين الحق كقوله «وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» وجعله قرين الرحمة كقوله «وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة» وجعله قرين اليقين كقوله «لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون» وجعله قرين الصدق كقوله «والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات» وجعله سبب محبته ومعيته ونصره وعونه وحسن جزاءه ويكفى بعض ذلك شرفا وفضلا والله أعلم.

الباب السادس عشر – فى ذكر ماورد فيه من نصوص السنة

فى الصحيحين من حديث انس ابن مالك رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اتى على أمرأة تبكى على صبى لها فقال لها اتقى الله واصبرى فقالت وما تبالى بمصيبتى فلما ذهب قيل لها انه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخذها مثل الموت فاتت بابه فلم تجد على بابه بوابين فقالت يارسول الله لم اعرفك فقال انما الصبر عند أول صدمة وفي لفظ عند الصدمة الاولى وقوله الصبر عند الصدمة الاولى مثل قوله ليس الشديد بالصرعة انما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب فان مفاجآت المصيبة بغتة لها روعة تزعزع القلب وتزعجه بصدمها فان صبر للصدمة الاولى انكسر حدها وضعفت قوتها فهان عليه استدامت الصبر وايضا فان المصيبة ترد على القلب وهو غير موطن لها فتزعجه وهى الصدمة الاولى واما اذا وردت عليه بعد ذلك فقدتوطن لها وعلم انه لابدله منها فيصير صبره شبيه

الاضطراروهذه المرأة لماعلمت ان جزعها لايجدىعليهاشيئاجاءت تعتذر
الى النبى صلى الله عليه وسلم كانها تقول له قد صبرت فاخبرها ان الصبر
انما هو عند الصدمة الاولى ويدل على هذا المعنى مارواه سعيد بن زربى
عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال مر النبى صلى الله عليه
وسلم على امرأة جاثمة على قبر تبكى فقال لها ياأمة الله اتقى الله واصبرى
قالت ياعبد الله ثكلى قال ياأمة الله اتقى الله واصبرى قالت ياعبد الله لو
كنت مصابا عذرتنى قال ياأمة الله اتقى الله واصبرى قالت ياعبد الله
قد اسمعت فانصرف عنى فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعه
رجل من أصحابه فوقف على المرأة فقال لها ماقال لك الرجل الذاهب
قالت قال لى كذا وكذا واجبته بكذا وكذا قال هل تعرفينه قالت لا قال
ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فوثبت سرعة نحوه حتى انتهت
اليه وهى تقول انا اصبر انا اصبر يارسول الله فقال الصبر عند الصدمة
الأولى الصبر عندالصدمة الأولى. قال ابن ابى الدنيا حدثنا بشر بن الوليد
وصالح السكندى بن مالك قالا حدثنا سعيد بن زربى فذكره فهذا السياق
يبين معنى الحديث قال ابو عبيد معناه ان كل ذى رزية فان قصاراه الصبر
ولكنه انما يحمد على صبره عند حدة المصيبة وحرارتها قلت وفى الحديث
انواع من العلم احدها وجوب الصبر على المصائب وانه من التقوى التى
أمر العبد بها الثانى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وان سكر المصيبة
وشدتها لايسقطه عن الآمر الناهى الثالث تكرار الامر والنهى مرة بعد مرة
حتى يعذر الامر الى ربه الرابع احتج به على جواز زيارة القبور للنساء فانه
صلى الله عليه وسلم لم ينكر عليها الزيارة وانما امرها بالصبر ولو كانت الزيارة

حراما لبين لها حكمها وهذا كان فى آخر الامر فان أبا هريرة انما أسلم
بعد السنة السابعة . واجيب عن هذا بأنه صلى الله عليه وسلم قد أمرها
بتقوى الله والصبر وهذا انكار منه لحالها من الزيارة والبكاء ويدل عليه
انها لما علمت ان الامر لها من تجب طاعته انصرفت مسرعة وأيضا فأبو
هريرة لم يخبر انه شهد هذه القصة فلا يدل الحديث على انها بعد اسلامه
ولو شهدها فلعنته صلى الله عليه وسلم زائرات القبور والمتخذين عليها
المساجد والسرج كان بعد هذا فى مرض موته وفى عدم تعريفه لها بنفسه
فى تلك الحال التى لا تملك فيها نفسها شفقة منه ورحمة بها اذا عرفها بنفسه
فى تلك الحال فربما لم تسمع منه فتهلك وكان معصيتها له وهى لا تعلم انه
رسول الله أخف من معصيتها له لو علمت به فهذا من كمال رأفته صلوات
الله وسلامه عليه وفى صحيح مسلم عن أم سلمة قالت سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول مامن مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله
انا لله وانا اليه راجعون اللهم اجرنى فى مصيبتى وأخلق لى خيراً منها
الا اخلق الله له خيراً منها . قالت فلما مات أبو سلمة قلت أى المسلمين
خير من أبى سلمة أول بيت هاجر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
ثم انى قلتها فاخلف الله لى رسوله صلى الله عليه وسلم فأرسل الى رسول
الله صلى الله عليه وسلم خاطب ابن أبى بلتعة يخطبنى له فقلت ان لى بنتا
وأنا غيور فقال أما بنتها فأدعو الله أن يغنيها عنها وادعو الله أن يذهب
بالغيرة فتزوجت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند أبى داود فى هذا
الحديث عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أصابت أحدكم

مصيبة فليقل انا لله وانا اليه راجعون اللهم عندك أحتسب مصيبتى فأجرنى فيها وابدلنى خيراً منها فلما احتضر أبو سلمة قال اللهم اخلفنى فى أهلى خيرا منى فلما قبض قالت أم سلمة انا لله وانا اليه راجعون عند الله احتسب مصيبتى فانظر عاقبة الصبر والاسترجاع ومتابعة الرسول والرضاء عن الله الى ما آلت وأنالت أم سلمة نكاح اكرم الخلق على الله . وفى جامع الترمذى ومسند الامام احمد وصحيح ابن حبان عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مات ولد العبد قال الله لملائكته قبضتم ولد عبدى فيقولون نعم فيقولون قبضتم ثمرة فؤاده فيقولون نعم فيقول ماذا قال عبدى فيقولون حمدك واسترجع فيقول ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد . وفى صحيح البخارى من حديث أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اذا ابتليت عبدى بحبيبتيه ثم صبر عوضته منهما الجنة يريد عينيه. وعند الترمذى فى الحديث اذا أخذت كريمتى عبدى فى الدنيا لم يكن له جزاء عندى الا الجنة . وفى الترمذى أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل من أذهبت حبيبتيه فصبر واحتسب لم ارض له ثوابا دون الجنة. وفى سنن ابى داود [1] من حديث عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لايرضى الله لعبده المؤمن اذا ذهب بصفيه من أهل الارض واحتسبه بثواب دون الجنة وفى صحيح البخارى من حديث ابى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله

---

(١) فى هامش الاصل : وفى نسخة « وفى سنن النسائى »

عز وجل مالعبدى المؤمن جزاء اذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه الا الجنة وفى صحيحه ايضا عن عطاء بن ابى رباح قال: قال لى ابن عباس الا اريك امرأة من أهل الجنه قلت بلى قال هذه المرأة السوداء اتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله انى اصرع وانى اتكشف فادع الله لى قال ان شئت صبرت ولك الجنة وان شئت دعوت الله تعالى ان يعافيك فقالت اصبر فقالت انى اتكشف فادع الله ان لا اتكشف فدعا لها وفى الموطأ من حديث عطاء بن يسار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا مرض العبد بعث الله اليه ملكين فقال انظرا ماذا يقول لعواده فان هو اذجاؤه حمد الله وأثنى الله عليه رفعا ذلك الى الله وهو أعلم فيقول ان لعبدى على ان توفيته أن ادخله الجنة وان اناشفتيه ان أبدله لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه وأن أكفر عنه سيئاته وفى صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جمع الله الخلائق نادى مناد أين أهل الصبر فيقوم ناس وهم قليل فينطلقون سراعا الى الجنة فتلقاهم الملائكة فيقولون انا نراكم سراعا الى الجنة فمن انتم فيقولون نحن أهل الفضل فيقولون ما كان فضلكم فيقولون كنا اذا ظلمنا صبرنا واذا أسىء الينا غفرنا واذا جهل علينا حلمنا فيقال لهم ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين وفى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم مالا فقال بعض الناس هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر. وفى الصحيحين من حديث الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

ما من مصيبة تصيب المسلم الا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها
وفيهما أيضا من حديث أبى سعيد وأبى هريرة عن النبى صلى الله عليه
وسلم قال ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولاهم ولا حزن ولاأذى
ولا غم حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه وفى صحيح
مسلم من حديث عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يصيب
المؤمن من شوكة فما فوقها الا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئته
وفى المسند من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لايزال
البلاء بالمؤمن أو المؤمنة فى جسده وفى ماله وفى ولده حتى يلقى الله وما
عليه خطيئة وفى الصحيح من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال
قلت يارسول الله اى الناس أشد بلاء قال الانبياء ثم الصالحون ثم الامثل
فالامثل يبتلى الرجل على حسب دينه فان كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه وان
كان فى دينه رقة خفف عنه وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على الارض
وليس عليه خطيئة وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال
دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يوعك وعكا شديداً قال فقلت
يارسول الله انك لتوعك وعكا شديدا قال أجل أنى لأوعك كما يوعك
رجلان منكم قلت أن لك لأجرين قال نعم والذى نفسى بيده ما على الارض
مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه الا حط الله عنه به خطاياه كما تحط
الشجرة اليابسة ورقها وفى الصحيحين أيضاً من حديث عائشة رضى الله
عنها قالت ما رأيت الوجع أشد منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم
وفى بعض المسانيد مرفوعاً أن الرجل لتكون له الدرجة عند الله لايبلغها

بعمل حتى يبتلى ببلاء فى جسمه فيبلغها بذلك ويروى عن عائشة رضى
الله عنها عنه صلى الله عليه وسلم اذا اشتكى المؤمن اخلصه ذلك من
الذنوب كما يخلص الكير الخبث من الحديد وفى صحيح البخارى من
حديث خباب بن الارت قال شكونا الى رسول الله صلى الله عليه
وسلم وهو متوسد ببردة له فى ظل الكعبة فقلنا الا تستنصر لنا الا
تدعو لنا فقال قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الارض فيجعل
فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط
الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا
الامر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله والذئب
على غنمه ولكنكم تستعجلون. وفى لفظ للبخارى اتيت رسول الله صلى
الله عليه وسلم وهو متوسد برده فى ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين
شدة فقلنا الا تدعو الله فقعد وهو محمر وجهه فقال لقد كان الرجل ليمشط
بامشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه وقد حمل اهل
العلم قول خباب شكونا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حر الرمضاء
فلم يشكنا على هذا المحمل وقال شكوا اليه حر الرمضاء الذى كان يصيب
جباههم واكفهم من تعذيب الكفار فلم يشكهم وانما دلهم على الصبر
وهذا الوجه انسب من تفسير من فسر ذلك بالسجود على الرمضاء واحتج
به على وجوب مباشرة المصلى بالجبهة لثلاثة اوجه أحدها انه لا دليل فى
اللفظ على ذلك الثانى انهم قد اخبروا انهم كانوا مع النبى صلى الله عليه
وسلم فكان احدهم اذا لم يستطع ان يسجد على الارض يبسط ثوبه
فسجد عليه والظاهر ان هذا يبلغه ويعلم به وقد اقرهم عليه الثالث ان

شدة الحر فى الحجاز تمنع من مباشرة الجبهة والكف للارض بل يكاد
يشوى الوجه والكف فلا يتمكن من الطمأنينة فى السجود ويذهب
خشوع الصلاة ويتضرر البدن ويتعرض للمرض والشريعة لاتأتى بهذا
فتأمل رواية خباب لهذا والذى قبله واجمع بين اللفظين والمعنيين والله اعلم
ولا تستوحش من قوله فلم يشكنا فانه هو معنى اعراضه عن شكايتهم
واخباره لهم بصبر من قبلهم والله اعلم . وفى الصحيح من حديث اسامة
ابن زيد قال ارسلت بنت النبى صلى الله عليه وسلم اليه ان ابنالى احتضر
فاتنا فارسل يقرئها السلام ويقول ان لله ما اخذ وله ما اعطى وكل شىء
عنده باجل مسمى فالتصبر والتحتسب فارسلت اليه تقسم عليه ليأتينها
فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وابى ابن كعب وزيد بن ثابت
ورجال فرفع الصبى الى رسول الله فاقعده فى حجره ونفسه تقعقع كأنها
شن ففاضت عيناه فقال سعد يارسول الله ماهذا قال هذه رحمة جعلها
الله فى قلوب من يشاء من عباده وانما يرحم الله عباده من الرحماء. وفى سنن
النسائى عن ابن عباس قال احتضرت بنت لرسول الله صلى الله عليه وسلم
صغيرة فاخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم وضمها الى صدره ثم وضع يده
عليها وهى بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت ام ايمن
فقلت لها اتبكين ورسول الله صلى الله عليه وسلم عندك فقالت مالى
لاابكى ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبكى فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم انى لست ابكى ولكنها رحمة ثم قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم المؤمن بخير على كل حال تنزع نفسه من بين جنبيه وهو يحمد الله
عز وجل وفى صحيح البخارى من حديث انس رضى الله عنه قال اشتكى

ابن لابى طلحة فمات وابو طلحة خارج فلما رأت امرأته انه قد مات
هيأت شيئا وسجته فى جانب البيت فلما جاء ابو طلحة قال كيف الغلام
قالت قد هدأت نفسه وارجو أن يكون قد استراح فظن ابو طلحة انها صادقة
قال فبات معها فلما اصبح اغتسل فلما اراد أن يخرج اعلمته انه قد مات فصلى مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم اخبره بما كان منهما فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم لعل الله ان يبارك لكما فى ليلتكما قال ابن عيينة فقال رجل من
الانصار فرأيت له تسعة اولاد كلهم قد قرؤا القرآن وفى موطأ مالك عن
القاسم بن محمد قال هلكت امرأة لى فاتانى محمد بن كعب القرظى يعزينى
بها فقال انه قد كان فى بنى اسرائيل رجل فقيه عابد عالم مجتهد وكانت له
امرأة وكان بها معجبا فماتت فوجد عليها وجدا شديدا حتى خلى فى بيت
واغلق على نفسه واحتجب من الناس فلم يكن يدخل عليه احد ثم ان امرأة
من بنى اسرائيل سمعت به فجاءته فقالت ان لى اليه حاجة استفتيه فيها ليس
يجزينى الا أن اشافهه بها فذهب الناس ولزمت الباب فاخبر فاذن لها
فقالت استفتيك فى امر قال وما هو قالت انى استعرت من جارة حليا
فكنت البسه واعيره زمانا ثم انهم ارسلوا الى فيه افاء أرده اليهم قال نعم
والله قالت أنه مكث عندى زمانا فقال ذلك احق لردك أياه فقالت له
يرحمك الله افتاسف على ما اعارك الله ثم اخذه منك وهو احق به منك
فابصر ما كان فيه ونفعه الله بقولها. وفى جامع الترمذى عن شيخ من بنى
مرة قال قدمت الكوفة فاخبرت عن بلال بن ابى بردة فقلت ان فيه
لمعتبرا فاتيته وهو محبوس فى داره التى كان بنى واذا كل شىء منه قد تغير
من العذاب والضرب واذا هو فى قشاش فقلت له الحمد لله يا بلال لقد رأيتك

تمر بنا وأنت تمسك انفك من غير غبار وانت فى حالتك هذه فكيف
صبرك اليوم فقال ممن أنت قلت من بنى مرة بن عباد قال الا احدثك حديثا عسى
ان ينفعك الله به قال هات قال حدثنى ابو بردة عن ابى موسى أن رسول
الله صلى عليه وسلم قال لا يصيب عبدا نكبة فما فوقها أو دونها الا
بذنب وما يعفو الله عنه اكثر قال وقرأ «وما أصابكم من مصيبة فبما
كسبت ايديكم ويعفو عن كثير» وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن
مسعود رضى الله عنه قال كانى انظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
يحكى ان نبيا من الانبياء ضربه قومه فادموه وهو يمسح الدم عن وجهه
ويقول اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون فتضمنت هذه الدعوة العفو
عنهم والدعاء لهم والاعتذار عنهم والاستعطاف بقوله لقومى وفى الموطأ
من حديث عبد الرحمن بن القاسم قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم ليعز المسلمين فى مصائبهم المصيبة بى . وفى الترمذى من حديث
يحى بن وثاب عن شيخ من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال
رسول الله صلى عليه وسلم الذى يخالط الناس ويصبر على اذاهم . قال
الترمذى كان شعبة يرى ان الشيخ ابن عمر وفى الصحيحين من حديث ابى
سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما أعطى
أحد عطاء خيرا واوسع من الصبر وفى بعض المسانيد عنه صلى الله عليه
وسلم أنه قال : قال الله عز وجل اذا وجهت الى عبد من عبيدى مصيبة فى
بدنه اوماله اوولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيمة
ان انصب له ميزانا أو انشر له ديوانا وفى جامع الترمذى عنه صلى الله
عليه وسلم اذا أحب الله قوما ابتلاهم فمن رضى فله الرضى ومن سخط فله

السخط وفى بعض المسانيد عنه صلى الله عليه وسلم مرفوعا اذا أراد الله
بعبد خيرا صب عليه البلاء صبا . وفى صحيح مسلم من حديث جابر بن
عبد الله رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على امرأة
فقال مالك تزفزفين قالت الحمى لا بارك الله فيها قال تسبى الحمى فانها
تذهب خطايا بنى آدم كما يذهب الكير خبث الحديد. ويذكر عن ابى هريرة
رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من وعك ليلة فصبر
ورضى عن الله تعالى خرج من ذنوبه كيوم ولدته امه وقال الحسن انه
ليكفر عن العبد خطاياه كلها بحمى ليلة. وفى المسند وغيره عن ابى سعيد
الخدرى رضى الله عنه قال دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم وهو محموم
فوضعت يدى من فوق القطيفة فوجدت حرارة الحمى فقلت ما أشد
حماك يارسول الله قال انا كذلك معاشر الانبياء يضاعف علينا الوجع
ليضاعف لنا الاجر قال قلت يارسول الله فاى الناس أشد بلاء قال الانبياء
قلت ثم من قال . الصالحون ان كان الرجل ليبتلى بالفقر حتى ما يجد الا
العباء فيجوبها فيلبسها وان كان الرجل ليبتلى بالقمل حتى يقتله القمل وكان
ذلك أحب اليهم من العطا اليكم وقال عقبة بن عامر الجهنى قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم ليس من عمل الا وهو يختم عليه فاذا مرض المؤمن
قالت الملائكة يا ربنا عبدك فلان قد حبسته عن العمل فيقول الرب تعالى
اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت . وقال ابو هريرة رضى الله عنه
اذا مرض العبد المسلم نودى صاحب اليمين ان اجر على عبدى صالح ما كان
يعمل وهو صحيح ويقال لصاحب الشمال اقصر عن عبدى ما دام فى وثاقى

فقال رجل عند ابى هريرة ياليتنى لا ازال ضاجعا فقال أبو هريرة كره العبد الخطايا ذكره ابن ابى الدنيا وذكر أيضا عن هلال بن يساق قال كنا قعودا عند عمار بن ياسر فذكروا الاوجاع فقال اعرابى مااشتكيت قط فقال عمار ماانت منا أولست منا ان المسلم يبتلى ببلاء فتحط عنه ذنوبه كما يحط الورق من الشجر وان الكافر او قال الفاجر يبتلى ببلية فمثله مثل البعير ان اطلق لم يدر لم اطلق وان عقل لم يدر لم عقل وذكر عن ابى معمر الازدى قال كنا اذا سمعنا من ابن مسعود شيئا نكرهه سكتنا حتى يفسره لنا فقال لنا ذات يوم الا ان السقم لايكتب له أجر فساءنا ذلك وكبر علينا فقال ولكن يكفر به الخطيئة فسرنا ذلك واعجبنا وهذا من كمال علمه وفقهه رضى الله عنه فان الاجر انما يكون على الاعمال الاختيارية ومما تولد منها كما ذكر الله سبحانه النوعين فى آخر سورة التوبة فى قوله فى المباشر من الانفاق وقطع الوادى الا كتب لهم وفى المتولد من اصابة الضماء والنصب والمخمصة فى سبيله وغيظ الكفار الا كتب لهم به عمل صالح فالثواب مرتبط بهذين النوعين وأما الاسقام والمصائب فان ثوابها تكفير الخطايا ولهذا قال تعالى «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم» والنبى صلى الله عليه وسلم انما قال فى المصائب كفر الله بها من خطاياه كما تقدم ذكر الفاظه صلى الله عليه وسلم وكذا قوله المرض حطة فالطاعات ترفع الدرجات والمصائب تحط السيئات ولهذا قال صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يصب منه وقال صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين فهذا يرفعه وهذا يحط خطاياه وقال يزيد بن ميسرة ان العبد ليمرض المرض وماله عند الله من عمل خير فيذكره الله سبحانه

بعض ماسلف من خطاياه فيخرج من عينه مثل رأس الذباب من الدمع من خشية الله فيبعثه الله ان يبعثه مطهرا أو يقبضه ان قبضه مطهرا ولا يرد على هذا حديث أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه فى ثواب من قبض الله ولده وثمرة فؤاده بان يبقى له بيتا فى الجنة ويسميه بيت الحمد وقال زياد بن زياد مولى بن عباس رضى الله عنه عن بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال دخلنا على النبى صلى الله عليه وسلم وهو موعوك أى محموم فقلنا اح اح بآبائنا وامهاتنا يارسول الله ما أشد وعكك قال انا معاشر الانبياء يضاعف علينا البلاء تضعيفا قال قلنا سبحان الله قال افعجبتم ان كان النبى من الانبياء ليقتله القمل قلنا سبحان الله قال افعجبتم ان أشد الناس بلاء الانبياء ثم الصالحون ثم الامثل فالامثل قلنا سبحان الله قال افعجبتم ان كان النبى من الانبياء ليقتله القمل قلنا سبحان الله قال افعجبتم ان كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء اح بالحاء المهملة هو المعروف من كلامهم ومن قاله بالخاء المعجمة فقد غلط . وذكر النسائى عن عبيدة ابن حذيفة عن عمته فاطمة قالت أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فى نسوة نعوده فاذا سقاء ملعقة يقطر ماءها من شدة ما كان يجد من الحمى فقلنا لو دعوت الله يارسول الله ان يذهبها عنك فقال ان أشد الناس بلاء الانبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وقال مسروق عن عائشة رضى الله عنها مارأيت أحدا أشد وجعا من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يشدد عليه اذا مرض حتى انه لربما مكث خمس عشرة لاينام وكان يأخذه عرق الكلية وهو الخاصرة فقلنا يارسول الله لو دعوت الله فيكشف عنك قال انا معاشر الانبياء يشدد علينا الوجع ليكفر عنا. وفى المسند والنسائى

من حديث أبي سعيد قال: قال رجل يارسول الله ارأيت هذه الامراض
التي تصيبنا مالنا بها قال كفارات فقال أبي بن كعب يارسول الله وان قلت
قال شوكة فما فوقها قال فدعا أبي على نفسه عند ذلك ان لايفرقه الوعك
حتى يموت ولايشغله عن حج ولا عمرة ولا جهاد في سبيل الله وصلاة
مكتوبة في جماعة قال فما مس رجل جلده بعدها الا وجد حرها حتى مات
وقال عبد الله بن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان العبد اذا كان
على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض قيل للملك الموكل به اكتب له مثل
عمله اذا كان طلقا او اكفته الى ناقة طلق بضم الطاء واللام اذا حل عقالها
ويقال كفته اليه اذا ضمن اليه. ذكره ابن ابي الدنيا وذكر ايضا عن ابي امامة
الباهلي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ليجرب احدكم
بالبلاء وهو اعلم به كما يجرب احدكم ذهبه بالنار فمنهم من يخرج كالذهب
الابريز فذلك الذي نجاه الله من السيئات ومنهم من يخرج كالذهب دون ذلك
فذلك الذي يشك بعض الشك ومنهم من يخرج كالذهب الاسود فذلك
الذي قد افتتن وذكر ايضا من مراسيل الحسن البصري عن النبي صلى الله
عليه وسلم ان الله ليكفر عن المؤمن خطاياه كلها بحمى ليلة قال ابن ابي الدنيا
قال ابن المبارك هذا من الحديث الجيد قال وكانوا يرجون في حمى ليلة كفارة
ما مضى من الذنوب وذكر عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
دخل على رجل وهو يشتكي فقال قل اللهم اني أسألك تعجيل عافيتك
وصبرا على بليتك وخروجا من الدنيا الى رحمتك وقالت عائشة قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ان الحمى تحط الخطايا كما تحط الشجرة ورقها وقال ابو هريرة
وقد عاد مريضا فقال له ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل يقول

هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن في الدنيا لتكون حظه من النار في
الآخرة وقال مجاهد الحمى حظ كل مؤمن من النار ثم قرأ « وان منكم الا
واردها كان على ربك حتما مقضيا » وهذا لم يرد به مجاهد تفسير الورود
الذي في القرآن فان السياق يأبى حمله على الحمى قطعاً وانما مراده ان الله
سبحانه وعد عباده كلهم بورود النار فالحمى للمؤمن تكفر خطاياه فيسهل
عليه الورود يوم القيامة فينجو منها سريعاً والله أعلم . ويدل عليه حديث
أبي ريحانة عن النبي صلى الله عليه وسلم الحمى كير من كير جهنم وهي نصيب
المؤمن من النار . وقال أنس رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم مثل المؤمن اذا برأ وصح من مرضه كمثل البردة تقع من السماء في
صفائها ولونها ذكره ابن ابي الدنيا وذكر أيضا عن ابي امامة برفعه ما من
مسلم يصرع صرعة من مرض الا بعث منها طاهراً وذكر عنه صلى الله
عليه وسلم مثل المؤمن حين يصيبه الوعك مثل الحديدة تدخل النار
فيذهب خبثها ويبقى طيبها وذكر أيضا عنه مرفوعاً أن العبد اذا مرض
أوحى الله الى ملائكته ياملائكتي أنا قيدت عبدي بقيد من قيودي
فأنا أقبضه أغفر له وأن أعافه فجسد مغفور لا ذنب له وذكر عن سهل
ابن أنس الجهني عن أبيه عن جده قال دخلت على أبي الدرداء في مرضه
فقلت ياأبي الدرداء انا نحب أن نصح ولا نمرض فقال أبو الدرداء سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الصداع والمليلة لايزالان بالمؤمن
وان كان ذنبه مثل أحد حتى لايدعان عليه من ذنبه مثقال حبة من خردل
المليلة فعيلة من التململ وأصلها من الملة التي يخبز فيها وقالت أم سلمة عن
النبي صلى الله عليه وسلم ما ابتلى الله عبدا ببلاء وهو على طريق يكرهها

لا جعل الله ذلك البلالة كفارة وطهورا مالم ينزل ما أصابه من البلاء بغير الله أو يدعو غير الله يكشفه وقال عطية بن قيس مرض كعب فعاده رهط من اهل دمشق فقالوا كيف تجدك يا اسحق قال بخير جسد أخذ بذنبه ان شاء ربه عذبه وان شاء رحمه وان بعثه بعثه خلقا جديدا لاذنب له . وقال سعيد بن وهب دخلنا مع سلمان الفارسى على رجل من كنده نعوده فقال سلمان ان المسلم يبتلى فيكون كفارة لما مضى ومستعتباً فى مابقى وان الكافر يبتلى فمثله كمثل البعير أطلق فلم يدر لم أطلق وعقل فلم يدر لم عقل وذكر أيضا عن أبى أيوب الانصارى قال عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الانصار وأكب عليه فسأله فقال يانبى الله ماغمضت منذ سبع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أى أخى أصبر ، أى أخى أصبر تخرج من ذنوبك كما دخلت فيها ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعات الأمراض يذهبن ساعات الخطايا وفى النسائى من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاعرابى هل أخذتك أم ملدم قال يارسول الله وما ام ملدم قال حر يكون بين الجلد والدم قال ما وجدت هذا قال يا اعرابى هل أخذك هذا الصداع قال يارسول الله وما الصداع قال عرق يضرب على الانسان فى رأسه : قال ما وجدت هذا فلما ولى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحب أن ينظر الى رجل من أهل النار فاينظر الى هذا وقالت أم سليم مرضت فعادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ياأم سليم اتعرفين النار والحديد وخبث الحديد قالت نعم يارسول الله قال ابشرى ياام سليم فانك ان تخلصى من وجعك هذا تخلصى منه كما يخلص الحديد من النار من خبثه .

وخرج بعض الصحابة زائرا لرجل من اخوانه فبلغه انه شاك قبل ان يدخل عليه فقال اتيتك زائراً واتيتك عائداً ومبشراً قال كيف جمعت هذا قال خرجت وانا اريد زيارتك فبلغنى شكاتك فصارت عيادة وابشرك بشىء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا سبقت للعبد من الله منزلة لم يبلغها او قال لم ينلها بعمله ابتلاه الله فى جسده او فى ولده او فى ماله ثم صبره حتى يبلغه المنزلة التى سبقت له من الله عز وجل . وقال الحسن وذكر الوجع اما والله ماهو بشر ايام المسلم ايام نورت له فيها مراحله وذكر فيها مانسى من معاده وكفر بها عنه من خطاياه . وقال بعض السلف لولا مصائب الدنيا وردنا الآخرة مفاليس . وقال انس ابن مالك رضى الله عنه انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى شجرة فهزها حتى سقط من ورقها ماشاء الله ثم قال المصائب والاوجاع فى احباط ذنوب امتى اسرع منى فى هذه الشجرة . وذكر ابن ابى الدنيا عن ابى هريرة يرفعه ما من مسلم الا وكل الله به ملكين من ملائكته لا يفارقانه حتى يقضى الله بأمره باحدى الحسنيين اما بموت واما بحياة فاذا قال له العواد كيف تجدك قال احمد الله اجدنى والله المحمود بخير قال له الملكان ابشر بدم هو خير من دمك وصحة هى خير من صحتك وان قال اجدنى مجهوداً فى بلاء شديد قال له الملكان ابشر بدم هو شر من دمك وببلاء اطول من بلائك ولا يناقض هذا قول النبى صلى الله عليه وسلم فى وجعه واراساه وقول سعد يارسول الله قد اشتد بى الوجع وانا ذومال وقول عائشة واراساه فان هذا انما قيل على وجه الاخبار لا على وجه شكوى الرب تعالى الى العواد . فاذا احمد المريض الله ثم اخبر بعلته لم يكن شكوى منه وان اخبر

بها تبرما وتسخطا كان شكوى منه فالكلمة الواحدة قد يثاب عليها وقد
يعاقب بالنية والقصد : وقال ثابت البنانى انطلقنا مع الحسن الى صفوان
ابن محرز نعوده فخرج الينا ابنه وقال هو مبطون لا تستطيعون ان تدخلوا
عليه فقال الحسن ان اباك ان يؤخذ اليوم من لحمه ودمه فيوجد فيه خير من
ان يأكله التراب . وقال ثابت ايضا دخلنا على ربيعة بن الحارث نعوده وهو
ثقيل فقال انه من كان فى مثل حالى هذه ملأت الآخرة قلبه وكانت
الدنيا اصغر فى عينيه من ذباب ويذكر عن انس عن النبى صلى الله عليه
وسلم قال اذا مرض العبد ثلاثة ايام خرج من ذنوبه كيوم ولدته امه .
ويذكر عنه صلى الله عليه وسلم لا ترد دعوة المريض حتى يبرأ وذكر ابن
ابى الدنيا عن ابن مسعود رضى الله عنه قال كنت مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم جالسا فتبسم فقلنا يارسول الله مم تبسمت قال تعجبا المؤمن
من جزعه من السقم ولو كان يعلم ماله فى السقم أحب ان يكون سقيما
حتى يلقى الله ثم تبسم ثانية ورفع رأسه الى السماء قلنا يارسول الله مما
تبسمت ورفعت رأسك إلى السماء قال عجبت من ملكين نزلا من
السماء يلتمسان عبداً مؤمناً كان فى مصلاه يصلى فلم يجده فعرجا الى الله
فقالا يارب عبدك فلان المؤمن كنا نكتب له من العمل فى يوم وليلة كذا
وكذا فوجدنا قد حبسته فى حبالك فلم نكتب له شيئاً من عمله فقال اكتبوا
لعبدى عمله الذى كان يعمل فى يومه وليلته ولا تنقصوا منه شيأ فعلى اجر
ما حبسته وله اجر ما كان يعمل . ويذكر عنه صلى الله عليه وسلم من وعك ليلة
فصبر ورضى بها عن الله عز وجل خرج من ذنوبه كهيئة يوم ولدته امه ومن

ومن مراسيل يحيى بن كثير قال فقد رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمان
فسأل عنه فأخبر انه عليل فأتاه يعوده فقال شفى الله سقمك وعظم أجرك
وغفر ذنبك ورزقك العافية فى دينك وجسمك الى منتهى أجلك ان لك
من وجعك خلالا ثلاثا أما واحدة فتذكرة من ربك يذكرك بها
وأما الثانية فتمحيص لما سلف من ذنوبك وأما الثالثة فادع بما شئت فان
المبتلى مجاب الدعوة . وقال زياد بن الربيع قلت لابى ابن كعب آية من
كتاب الله قد احزنتنى قال ماهى قلت « من يعمل سوءاً يجز به » قال
ما كنت أراك الا افقه مما أرى ان المؤمن لا يصيبه عثرة قدم ولا اختلاج
عرق الا بذنب وما يعفو الله عنه اكثر وسئلت عائشة عن هذه الآية
فقالت ماسألنى عنها أحد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
النبى صلى الله عليه وسلم ياعائشة هذه معاقبة الله تعالى لعبده بما يصيبه
من الحمى والبلية والشوكة وانقطاع شسعه حتى البضاعة يضعها فى كمه
فيفقدها فيفزع لها فيجدها فى اضبنه حتى ان المؤمن ليخرج من ذنوبه
كما يخرج الذهب الاحمر من الكير ضبن الانسان ماتحت يده يقال
اضطبن كذا اذا حمله تحت يده . وقال وهب بن منبه لا يكون الرجل
فقيها كامل الفقه حتى يعد البلاء نعمة ويعد الرخاء مصيبة وذلك ان صاحب
البلاء ينتظر الرخاء وصاحب الرخاء ينتظر البلاء وفى بعض كتب الله سبحانه
ان الله ليصيب العبد بالأمر يكرهه وانه ليحبه لينظر كيف تضرعه اليه
وقال كعب أجد فى التوراة لولا أن يحزن عبدى المؤمن لعصبت الكافر
بعصابة من حديد لا يصدع ابداً وقال معروف الكرخى ان الله ليبتلى

عبده المؤمن بالاسقام والاوجاع فيشكو الى اصحابه فيقول الله تبارك
وتعالى وعزتى وجلالى ما ابتليتك بهذه الاوجاع والاسقام الا لاغسلك
من الذنوب فلا تشكنى وذكر ابن ابى الدنيا ان رجلا قال يا رسول الله
ما الاسقام قال او ماسقمت قط قال لا فقال قم عنا فلست مؤمنا وكان
بعض اصحاب عبدالله بن مسعود قد اشتدت به العلة فدخل عليه بعض
اصحابه يعوده واهله تقول نفسى فداك ما نطعمك ما نسقيك فأجابها
بصوت ضعيف بليت الحراقيف وطالت الضجعة والله مايسرنى ان الله
نقصنى منه قلامة ظفر وطلق خالد بن الوليد امرأة له ثم احسن عليها الثناء
فقيل له يا أبا سليمان لاى شيء طلقتها قال ما طلقتها لامر رابنى منها
ولا ساءنى ولكن لم يصبها عندى بلاء . ويذكر عنه صلى الله عليه وسلم
ماضرب على مؤمن عرق الا كتب الله له به حسنة وحط عنه به سيئة
ورفع له به درجة ولا ينافى هذا ما قدمناه من ان المصائب مكفرات
لاغير لان حصول الحسنة انما هو بصبره الاختيارى عليها وهو عمل منه
وعاد رجل من المهاجرين مريضا فقال ان للمريض أربعا يرفع عنه القلم
ويكتب له من الأجر مثل ما كان يعمل فى صحته ويتبع المرض كل خطيئة
من مفصل من مفاصله فيستخرجها فان عاش عاش مغفورا له وان مات
مات مغفورا له فقال المريض اللهم لا ازل مضطجعا . وفى المسند صلى الله
عليه وسلم والذى نفسى بيده لايقضى الله للمؤمن قضاء الا كان خيراً له
ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له وان أصابته ضراء صبر فكان خيراً له
وليس ذلك الا للمؤمن وفى لفظ ان امر المؤمنين كله عجيب ان اصابته
سراء شكر فكان خيرا له وان اصابته ضراء صبر فكان خيراً له

الباب السابع عشر – فى الآثار الواردة عن الصحابة ومن بعدهم فى فضيلة الصبر

قال الامام احمد حدثنا وكيع عن مالك بن مغول عن السفر قال
مرض ابو بكر رضى الله عنه فعادوه فقالوا ألا ندعو لك الطبيب
فقال قد رآنى الطبيب قالوا فأى شيء قال لك قال انى فعال لما أريد. وقال
الامام احمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن مجاهد قال قال عمر بن
الخطاب رضى الله عنه وجدنا خير عيشنا بالصبر وقال أيضا أفضل عيش
أدركناه بالصبر ولو ان الصبر كان من الرجال كان كريما. وقال على بن أبى
طالب رضى الله عنه الا ان الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد
فاذا قطع الرأس بار الجسم ثم رفع صوته فقال الا انه لا ايمان لمن لاصبر له
وقال الصبر مطية لاتكبو . وقال الحسن الصبر كنز من كنوز الخير
لايعطيه الله الا لعبد كريم عنده . وقال عمر بن عبد العزيز ما أنعم الله على
عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه مكانها الصبر الا كان ماعوضه خيرا مما انتزعه
وقال ميمون بن مهران مانال احد شيئا من ختم الخير فما دونه الا بالصبر
وقال سليمان ابن القاسم كل عمل يعرف ثوابه الا الصبر . قال الله تعالى :
« انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » قال كالماء المنهمر. وكان بعض
العارفين فى جيبه رقعة يخرجها كل وقت فينظر فيها وفيها « واصبر لحكم
ربك فانك بأعيننا » . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لو كان الصبر
والشكر بعيرين لم أبال أيهما ركبت وكان محمد بن شبرمة اذا نزل به بلاء

قال سحابة صيف ثم تنقشع وقال سفيان بن عيينه فى قوله تعالى «وجعلناهم
أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا» لما أخذوا برأس الامر جعلناهم رؤسا. وقيل
للاحنف ابن قيس ما الحلم قال ان تصبر على ماتكره قليلا. وقال وهب
مكتوب فى الحكمة قصر السفه النصب وقصر الحلم الراحة وقصر الصبر
الظفر. قصر الشيء وقصاراه غايته وثمرته وقدم عروة بن الزبير على الوليد
ابن عبد الملك ومعه ابنه محمد وكان من أحسن الناس وجها فدخل يوما على
الوليد فى ثياب وشيء وله غديرتان وهو يضرب بيده فقال الوليد هكذا
تكون فتيان قريش فعانه فخرج من عنده متوسنا فوقع فى اصطبل
الدواب فلم تزل الدواب تطأه بأرجلها حتى مات. ثم ان الآكلة وقعت
فى رجل عروة فبعث اليه الوليد الاطباء فقالوا ان لم تقطعها سرت الى
باقى الجسد فتهلك فعزم على قطعها. فنشروها بالمنشار فلما صار
المنشار الى القصبة وضع رأسه على الوسادة ساعة فغشى عليه
ثم أفاق والعرق يتحدر على وجهه وهو يهلل ويكبر فأخذها وجعل
يقلبها فى يده ثم قال اما والذى حملنى عليك انه ليعلم انى ما مشيت
بك الى حرام ولا الى معصية ولا الى مالا يرضى الله ثم أمر بها فغسلت
وطيبت وكفنت فى قطيفة ثم بعث بها الى مقابر المسلمين فلما قدم من عند
الوليد المدينة تلقاه أهل بيته وأصدقاؤه يعزونه فجعل يقول لقد لقينا من
سفرنا هذا نصبا ولم يزد عليه ثم قال لا ادخل المدينة انما انا بها بين شامت
بنكبة أو حاسد لنعمة فمضى الى قصر بالعقيق فاقام هنالك فلما دخل
قصره قال له عيسى بن طلحة لاابا لشانيك ارنى هذه المصيبة التى نعزيك
عليها فكشف له عن ركبته فقال له عيسى اما والله ما كنا نعدك للصراع

قد ابقى الله أكثرك عقلك ولسانك وبصرك ويداك واحدى رجليك فقال
له ياعيسى ماعزانى احد مثل ماعزيتنى به ولما أرادوا قطع رجله قالوا له
لو سقيناك شيئا كيلا تشعر بالوجع فقال انما ابتلانى ليرى صبرى افا عارض
أمره. وسئل ابنه هشام كيف كان أبوك يصنع برجله التى قطعت اذا توضأ
قال يمسح عليها. وقال الامام احمد حدثنا عبد الصمد حدثنا سلام قال
سمعت قتادة يقول قال لقمان وسأله رجل أى شيء خير قال صبر لا يتبعه
أذى قال فأى الناس خير قال الذى يرضى بما اوتى قال فأى الناس أعلم قال
الذى يأخذ من علم الناس الى علمه قيل فمن خير الكنز من المال أو من
العلم قال سبحان الله بل المؤمن العالم الذى ان ابتغى عنده خير وجد وان
لم يكن عنده كف نفسه ويحسب المؤمن ان يكف نفسه وقال حسان
ابن أبى جبلة من بث فلم يصبر ورواه ابن ابى الدنيا مرفوعا الى النبى صلى
عليه وسلم وان صح فمعناه الى المخلوق لا من بث الى الله وقال حسان بن
ابى جبلة أيضا فى قوله تعالى «فصبر جميل» قال لاشكوى فيه ورفعه ابن
أبى الدنيا أيضا وقال مجاهد فصبر جميل فى غير جزع وقال عمرو بن قيس
فصبر جميل قال الرضاء بالمصيبة والتسليم وقال بعض السلف فصبر جميل
لاشكوى فيه وقال همام عن قتادة فى قوله تعالى «وابيضت عيناه من
الحزن فهو كظيم» قال كظم على حزن فلم يقل الا خيرا وقال يحيى بن
المختار عن الحسن الكظيم الصبور وقال همام عن قتادة فى قوله تعالى
وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم اى كميد أى كمد الحزن وقال الحسن
ماجرعتين احب الى الله من جرعة مصيبة موجعة محزنة ردها صاحبها
بحسن عزاء وصبر وجرعة غيظ ردها بحلم وقال عبدالله بن المبارك اناخبر

عبد الله بن لهيعة عن عطاء بن دينار ان سعيد بن جبير قال الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه الا الصبر فقوله اعتراف العبد لله بما أصاب منه كانه تفسير لقوله انا لله فيعترف انه ملك لله يتصرف فيه مالكه بما يريد وقوله راجيا به ماعند الله كأنه تفسير لقوله وانا اليه راجعون أى نرد اليه فيجزينا على صبرنا ولا يضيع أجر المصيبة. وقوله وقد يجزع الرجل وهو يتجلد أى ليس الصبر بالتجلد وانما هو حبس القلب عن التسخط على المقدور ورد اللسان عن الشكوى فمن تجلد وقلبه ساخط على القدر فليس بصابر. وقال يونس بن يزيد سألت ربيعة بن ابى عبدالرحمن مامنتهى الصبر قال ان يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل ان تصيبه وقال قيس بن الحجاج فى قول الله فاصبر صبرا جميلا قال ان يكون صاحب المصيبة فى القوم لا يعرف من هو وكان شمر اذا عزه مصابا قال اصبر لما حكم ربك وقال ابو عقيل رأيت سالم بن عبد الله بن عمر بيده سوط وعليه ازار فى موت واقد بن عبدالله بن عمر لا يسمع صارخة ينالها بالسوط الا ضربها قال ابن أبى الدنيا حدثنى محمد بن جعفر بن مهران قال قالت امرأة من قريش ، أما والذى لا خلد الا لوجهه ، ومن ليس فى العز المنيع له كفوا ، لئن كان بدء الصبر مرا مذاقه ، لقد يجنى من غبه الثمر الحلو ، قال وانشدنى عمرو بن بكير

صبرت فكان الصبر خير مغبة   وهل جزع يجدى على فاجزع
ملكت دموع العين حتى رددتها   الى ناظرى فالعين فى القلب تدمع

قال وانشدنى احمد بن موسى الثقفى

نبئت خولة امس قد جزعت   من ان تنوب نوائب الدهر
لاتجزعى ياخول واصبرى   ان الكرام بنوا على الصبر

قال وحدثنى عبد الله بن محمد بن اسماعيل التيمى ان رجلا عزى رجلا على ابنه فقال انما يستوجب على الله وعده من صبر له بحقه فلاتجمع الى ما أصبت به من المصيبة الفجيعة بالاجر فانها أعظم المصيبتين عليك وانكى الرزيتين لك والسلام وعزى ابن أبى السماك رجلا فقال عليك بالصبر فبه يعمل من احتسب واليه يصير من جزع وقال عمر بن عبدالعزيز اما الرضاء فمنزلة عزيزة أو منيعة ولكن جعل الله فى الصبر معولا حسنا ولما مات عبد الملك ابنه صلى عليه ثم قال رحمك الله لقد كنت لى وزيرا وكنت لى معينا قال والناس يبكون ومايقطر من عينيه قطرة واصيب مطرف بن عبد الله بابن له فاتاه قوم يعزونه فخرج اليهم احسن ما كان بشرا ثم قال انى لاستحى من الله ان اتضعضع لمصيبة وقال عمر بن دينار قال عبيد بن عمير ليس الجزع ان تدمع العين ويحزن القلب ولكن الجزع القول السىء والظن السىء وقال ابن ابى الدنيا حدثنى الحسين بن عبدالعزيز الحروزى قد مات ابن لى نفيس فقلت لامه اتقى الله واحتسبيه واصبرى فقالت مصيبتى اعظم من ان افسدها بالجزع قال ابن ابى الدنيا واخبرنى عمر بن بكير عن شيخ من قريش قال مات الحسن بن الحصين ابو عبيد الله بن الحسن وعبيد الله يومئذ قاض على البصرة وأمير فكثر من يعزيه فتذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره فاجمعوا انه اذا ترك شيئا مما كان يصنعه فقد جزع وقال خالد بن ابى عثمان القرشى كان

سعيد بن جبير يعزيني على ابني فرآني اطوف بالبيت متقنعا فكشف
القناع عن رأسي وقال الاستكانة من الجزع

فصل

واما قول كثير من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم لا بأس ان يجعل
المصاب على رأسه ثوبا يعرف به قالوا لان التعزية سنة وفي ذلك تيسير
لمعرفته حتى يعزيه ففيه نظر وأنكره شيخنا ولا ريب ان السلف لم يكونوا
يفعلون شيأ من ذلك ولا نقل هذا عن احد من الصحابة والتابعين والآثار
المتقدمة كلها صريحة في رد هذا القول وقد كره اسحق بن راهويه ان
يترك لبس ما عادته لبسه وقال هو من الجزع وبالجملة فعادتهم انهم لم
يكونوا يغيرون شيأ من زيهم قبل المصيبة ولا يتركون ما كانوا يعملونه
فهذا كله مناف للصبر والله سبحانه أعلم

الباب الثامن عشر — في ذكر أمور تتعلق بالمصيبة

من البكاء والندب وشق الثياب ودعوى الجاهلية ونحوها

فمنها البكاء على الميت ومذهب احمد وابي حنيفة جوازه قبل الموت
وبعده واختار ابو اسحق الشيرازي وكرهه الشافعي وكثيراً من أصحابه
بعد الموت ورخصوا فيه قبل خروج الروح واحتجوا بحديث جابر بن
عتيك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء يعود عبدالله بن ثابت فوجده
قد غلب فصاح به فلم يجب فاسترجع وقال غلبنا عليك يا أبا الربيع فصاح
النسوة وبكين فجعل ابن عتيك يسكتهن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

دعهن فاذا وجب فلا تبكين باكية قالوا وما الوجوب يارسول الله قال
الموت رواه ابو داود والنسائي قالوا وفي الصحيحين من حديث ابن عمر
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الميت ليعذب ببكاء أهله عليه
وهذا انما هو بعد الموت وأما قبله فلا يسمى ميتاً وعن ابن عمر ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم لما قدم من أحد سمع نساء بني عبدالاشهل يبكين
على هلكاهن فقال لكن حمزة لا بواكي له فجئن نساء الانصار فبكين
على حمزة عنده فاستيقظ فقال ويحهن اتين ها هنا يبكين حتى الآن
مروهن فليرجعن ولا يبكين على هالك بعد اليوم رواه الامام احمد وهذا
صريح في نسخ الاباحة المتقدمة والفرق بين ما قبل الموت وبعده انه قبل
الموت يرجى فيكون البكاء عليه حذراً فاذا مات انقطع الرجاء وأبرم
القضاء فلا ينفع البكاء . قال المجوزون قال جابر بن عبد الله أصيب أبي
يوم احد فجعلت أبكي فجعلوا ينهونني ورسول الله صلى الله عليه وسلم
لا ينهاني فجعلت عمتي فاطمة تبكي فقال النبي صلى الله عليه وسلم تبكين
أو لا تبكين ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه متفق عليه .
وفي الصحيحين أيضا عن ابن عمر قال اشتكى سعد بن عبادة شكوى له
فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن
أبي وقاص وعبد الله بن مسعود فلما دخل عليه وجده في غشية فقال قد
مضى قالوا لا يارسول الله فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأى
القوم بكاءه بكوا فقال الا تسمعون ان الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن
القلب ولكن يعذب بهذا وأشار الى لسانه او يرحم . وفي الصحيحين

أيضا من حديث أسامة بن زيد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق
الى احدى بناته ولها صبى فى الموت فرفع اليه الصبى ونفسه تقعقع كأنها
فى شنة ففاضت عيناه فقال سعد ماهذا يارسول الله قال هذه رحمة جعلها
الله فى قلوب عباده وانما يرحم الله من عباده الرحماء . وفى مسند الامام
احمد من حديث ابن عباس قال ماتت رقية ابنة رسول الله صلى الله عليه
وسلم فبكت النساء فجعل عمر يضربهن بسوطه فقال النبى صلى الله عليه
وسلم دعهن يا عمر يبكين واياكن ونعيق الشيطان ثم قال انه مهما كان
من العين ومن القلب فمن الله ومن الرحمة وما كان من اليد ومن اللسان فمن
الشيطان . وفى المسند أيضا عن عائشة ان سعد بن معاذ لما مات حضره
رسول الله صلى الله عليه وسلم وابو بكر وعمر قالت فوالذى نفسى بيده
انى لاعرف بكاء ابى بكر من بكاء عمر وانا فى حجرتى . وفى المسند
أيضا عن أبى هريرة قال مر على النبى صلى الله عليه وسلم بجنازة يبكى
عليها وأنا معه ومعه عمر بن الخطاب فانتهر عمر اللاتى يبكين عليها فقال
النبى صلى الله عليه وسلم دعهن يا بن الخطاب فان النفس مصابة وان
العين دامعة والعهد قريب . وفى جامع الترمذى عن جابر بن عبد الله
قال أخذ النبى صلى الله عليه وسلم بيد عبد الرحمن بن عوف فانطلق الى ابنه
ابراهيم فوجده يجود بنفسه فأخذه النبى صلى الله عليه وسلم فوضعه فى
حجره فبكى فقال له اتبكى او لم تكن نهيت عن البكاء قال لا ولكن
نهيت عن صوتين احمقين فاجرين صوت عند مصيبة خمش الوجه وشق
الجيوب ورنة شيطان . قال الترمذى هذا حديث حسن وقد صح عنه
صلى الله عليه وسلم انه زار قبر امه فبكى وأبكى من حوله وقد صح عنه

صلى الله عليه وسلم انه قبل عثمان بن مضعون حتى سالت دموعه على
وجهه وصح عنه انه نعى جعفر وأصحابه وعيناه تذرفان وصح عن أبى
بكر الصديق رضى الله عنه انه قبل النبى صلى الله عليه وسلم وهو ميت
وبكى . فهذه اثنا عشر حجة تدل على عدم كراهة البكاء فتعين حمل احاديث
النهى على البكاء الذى معه ندب ونياحة : ولهذا جاء فى بعض الفاظ حديث
عمر الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه وفى بعضها يعذب بما ينح عليه .
وقال البخارى فى صحيحه قال عمر دعهن يبكين على أبى سليمان يعنى خالد
ابن الوليد مالم يكن نقع أو لقلقة والنقع حث التراب واللقلقة الصوت .
وأما دعوى النسخ فى حديث حمزه فلا يصح اذ معناه لا يبكين على هالك
بعد اليوم من قتلى احد ويدل على ذلك ان نصوص الاباحة أكثرها متأخرة
عن غزوة احد منها حديث أبى هريرة اذ اسلامه وصحبته كانا فى السنة
السابعة . ومنها البكاء على جعفر وأصحابه وكان استشهادهم فى السنة
الثامنة . ومنها البكاء على زينب وكان موتها فى السنة الثامنة أيضا . ومنها
البكاء على سعد بن معاذ وكان موته فى الخامسة . ومنها البكاء عند قبر
أمه صلى الله عليه وسلم وكان عام الفتح فى الثامنة . وقولهم انما جاز قبل
الموت حذراً بخلاف ما بعد الموت جوابه ان الباكى قبل الموت يبكى
حزناً وحزنه بعد الموت أشد فهو اولى برخصة البكاء من الحالة التى يرجى
فيها . وقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم الى ذلك بقوله تدمع العين
ويحزن القلب ولا نقول مايسخط الرب وانا بك يا ابراهيم لمحزونون

فصل

وأما الندب والنياحة فنص احمد على تحريمهما . قال فى رواية حنبل
النياحة معصية . وقال أصحاب الشافعى وغيرهم النوح حرام . وقال ابن
عبد البر . اجمع العلماء على ان النياحة لا تجوز للرجال ولا للنساء . وقال
بعض المتأخرين من اصحاب احمد يكره تنزيها وهذا لفظ أبى الخطاب
فى الهداية قال ويكره الندب والنياحة وخمش الوجوه وشق الجيوب
والتحفى والصواب القول بالتحريم لما فى الصحيحين من حديث عبدالله
ابن مسعود ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ليس منا من ضرب الخدود
وشق الجيوب ودعى بدعوى الجاهلية . وفى الصحيحين ايضا عن أبى
بردة قال وجع أبو موسى وجعاً فغشى عليه ورأسه فى حجر امرأة من
أهله فصاحته امرأة من أهله فلم يستطع أن يرد عليها شيأ فلما أفاق قال
أنا برىء مما برىء منه رسول الله صلى الله عليه وسلم فان رسول الله
صلى الله عليه وسلم برىء من الصالقة والحالقة والشاقة . وفى الصحيحين
ايضاً عن المغيرة بن شعبة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
انه من ينح عليه يعذب بما ينح عليه . وفى الصحيحين أيضا عن أم عطيه
قالت أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى البيعة ألا ننوح فما وفت
منا امرأة الا خمس نسوة . وفى صحيح البخارى عن ابن عمر ان النبى
صلى الله عليه وسلم قال الميت يعذب فى قبره بما ينح عليه . وفى صحيح
مسلم عن أبى مالك الاشعرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اربع فى
امتى من امر الجاهلية لايتركونهن الفخر بالاحساب والطعن فى الانساب

والاستسقاء بالنجوم والنياحة وقال النائحة اذا لم تتب قبل موتها تقام
يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب . وفى سنن
ابى داود عن اسيد بن ابى اسيد عن امرأة من المبايعات قالت كان فيما اخذ
علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المعروف الذى أخذ علينا ان لا نعصيه
فيه ان لا نخمش وجها ولا ندعو ويلا ولا نشق جيبا ولا ننفش شعرا وفى
مسند الامام احمد عن أنس قال اخذ النبى صلى الله عليه وسلم على النساء
حين بايعهن ان لا ينحن فقلن يارسول الله ان نساء اسعدتنا فى الجاهلية
افنسعدهن فى الاسلام فقال لا اسعاد فى الاسلام وقد تقدم قوله ما كان
من اليد واللسان فمن الشيطان وقوله نهيت عن صوتين احمقين فاجرين
صوت عند مصيبة خمش وجوه وشق جيوب ورنة شيطان وفى مسند
الامام احمد من حديث ابى موسى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
الميت يعذب ببكاء الحى اذا قالت النائحة واعضداه واناصراه واكاسياه
جبذ الميت وقيل له انت عضدها انت ناصرها انت كاسيها وفى صحيح
البخارى عن النعمان بن بشير قال أغمى على عبد الله بن رواحه فجعلت اخته
عمرة تبكى وتقول واجبلاه واكذا واكذا تعدد عليه فقال حين افاق
ماقلت لى شيئا الا قيل لى انت كذا فلما مات لم تبك عليه وكيف لا تكون
هذه الخصال محرمة وهى مشتملة على التسخط على الرب وفعل ماينافض
الصبر والاضرار بالنفس من لطم الوجه وحلق الشعر ونتفه والدعاء عليها
بالويل والثبور والتظلم من الله سبحانه واتلاف المال بشق الثياب وتمزيقها
وذكر الميت بما ليس فيه ولا ريب ان التحريم الشديد يثبت ببعض هذا
قال المبيحون لمجرد الندب والنياحة مع كراهتهم له قد روى حرب عن

واثلة بن الاسقع وابى وائل انهما كانا يسمعانى النوح ويسكتان قالوا وفى
الصحيحين عن أم عطية قالت لما نزلت هذه الآية « يا أيها النبى اذا جاءك
المؤمنات يبايعنك على ان لا يشركن بالله شيئا » الى قوله ولا يعصينك
فى معروف كان منه النياحة فقلت يارسول الله الا آل فلان فانهم كانوا
اسعدونى فى الجاهلية فلا بد لى من ان اسعدهم فقال الا آل فلان وفى رواية
لها انها قالت بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا ان لا يشركن
بالله شيئا ونهانا عن النياحة فقبضت منا امرأة يدها فقالت فلانة اسعدتنى فانا
أريد ان اجزيها قالت فما قال لها شيئا فذهبت فانطلقت ثم رجعت فبايعها
قالوا وهذا الاذن لبعضهن فى فعله يدل على ان النهى عنه تنزيه لا تحريم
ويتعين حمله على المجرد من تلك المفاسد جمعاً بين الادلة قال المحرمون
لا تعارض سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم باحد من الناس كائنا من كان
ولا تضرب سنته بعضها ببعض وما ذكر من النصوص صحيحة صريحة
لا تحتمل تأويلا وقد انعقد عليها الاجماع واما المرأة التى قال لها الا آل
فلان والمرأة التى سكت عنها فذلك خاص بهما الوجهين احدهما انه قال
لغيرهما لما سألته ذلك لا اسعاد فى الاسلام والثانى انه اطلق لهما ذلك وهما
حديثا عهد بالاسلام وهما لم يميزا بين الجائز من ذلك وبين المحرم وتأخير
البيان عن وقت الحاجة لا يجوز فعلم ان الحكم لا يعدوهما الى غيرهما واما
الكلمة اليسيرة اذا كانت صدقا لا على وجه النوح والتسخط فلا تحرم
ولا تنافى الصبر الواجب نص عليه احمد فى مسنده من حديث أنس ان
ابا بكر رضى الله عنه دخل على النبى صلى الله عليه وسلم بعد وفاته فوضع
فمه بين عينيه ووضع يده على صدغيه وقال وانبياه واخليلاه واصفياه وفى

صحيح البخارى عن أنس أيضا قال لما ثقل النبى صلى الله عليه وسلم جعل
يتغشاه الكرب فقالت فاطمة واكرب ابتاه فقال ليس على ابيك كرب
بعد اليوم فلما مات قالت ياابتاه اجاب ربا دعاه ياابتاه جنة الفردوس
مأواه ياابتاه الى جبريل انعاه فلما دفن قالت فاطمة ياأنس اطابت انفسكم
ان تحثوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب وقال النبى صلى الله
عليه وسلم وانا بك ياابراهيم لمحزونون وهذا ونحوه من القول الذى ليس
فيه تظلم للمقدور ولا تسخط على الرب ولا إسخاط له فهو كمجرد البكاء

فصل

وأما قول النبى صلى الله عليه وسلم ان الميت ليعذب بالنياحة عليه
فقد ثبت عنه من رواية عمر بن الخطاب وابنه عبد الله والمغيرة بن شعبة
وروى نحوه عن عمران بن حصين وابى موسى رضى الله عنهم فاختلفت
طرق الناس فى ذلك فقالت فرقة يتصرف الله فى خلقه بما يشاء وافعال
الله لا تعلل ولا فرق بين التعذيب بالنوح عليه والتعذيب بما هو منسوب
اليه لان الله خالق الجميع والله تعالى يولم الاطفال والبهائم والمجانين بغير
عمل وقالت فرقة هذه الاحاديث لا تصح عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم وقد انكرتها عائشة أم المؤمنين واحتجت بقوله تعالى « ولا تزر
وازرة وزر أخرى » ولما بلغها رواية عمر وابنه قالت انكم لتحدثون عن غير
كاذبين ولا متهمين ولكن السمع يخطى وقالت انما مر النبى صلى الله عليه
وسلم على قبر يهودى فقال ان صاحب هذا القبر يعذب وأهله يبكون
عليه وفى رواية متفق عليها عنها انما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان
الله ليزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه وقالت حسبكم القرآن ولا تزر

وازرة وزر أخرى وقالت فرقة أخرى منهم المزنى وغيره ان ذلك محمول على من اوصى به اذا كانت عادتهم ذلك وهو كثير فى اشعارهم كقول طرفه :

اذا مت فانعينى بما انا أهله ... وشقى على الجيب يا ابنت معبد

وقول لبيد

فقوما فقولا بالذى قد علمتما ... ولا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر

وقولا هو المرء الذى لا صديقه ... اضاع ولا خان الامين ولا غدر

الى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

وقالت طائفة هو محمول على من سنته وسنة قومه ذلك اذا لم ينههم عنه لان ترك نهيه دليل على رضاه به وهذا قول ابن المبارك وغيره قال ابو البركات ابن تيمية وهو أصح الاقوال كلها لانه متى غلب على ظنه فعلهم ولم يوصهم بتركه فقد رضى به وصار كمن ترك النهى عن المنكر مع القدرة عليه فأما اذا اوصاهم بتركه فخالفوه فالله ا كرم من ان يعذبه بذلك وقد حصل بذلك العمل بالآية مع اجراء الخبر على عمومه فى كثير الموارد وانكار عائشة لذلك بعد رواية الثقاة لا يعول عليه فانهم قد يحضرون مالا تحضره ويشهدون ما تغيب عنه واحتمال السهو والغلط بعيد خصوصا فى حق خمسة من اكابر الصحابة وقوله فى اليهود لا يمنع أن يكون قد قال ماروه عنه هؤلاء الخمسة فى أوقات أخر ثم هى محجوجة بروايتها عنه انه قال ان الله يزيد الكافر عذابا ببكاء اهله عليه فاذا لم يمنع زيادة الكافر عذابا بفعل غيره مع كونه مخالفا لظاهر الآية لم يمنع ذلك فى حق المسلم ان الله سبحانه كما لا يظلم عبده المسلم لا يظلم الكافر والله أعلم

فصل

ولا تحتاج هذه الاحاديث الى شىء من هذه التكلفات وليس فيها بحمد الله اشكال ولا مخالفة لظاهر القرآن ولا لقاعدة من قواعد الشرع ولا تتضمن عقوبة الانسان بذنب غيره فان النبى صلى الله عليه وسلم لم يقل ان الميت يعاقب ببكاء أهله عليه ونوحهم وانما قال يعذب بذلك ولا ريب ان ذلك يؤلمه ويعذبه والعذاب هو الالم الذى يحصل له وهو أعم من العقاب والاعم لا يستلزم الأخص . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم السفر قطعة من العذاب وهذا العذاب يحصل للمؤمن والكافر حتى ان الميت ليتألم بمن يعاقب فى قبره فى جواره ويتأذى بذلك كما يتأذى الانسان فى الدنيا بما يشاهده من عقوبة جاره . فاذا بكى أهل الميت عليه البكاء المحرم وهو البكاء الذى كان اهل الجاهلية يفعلونه والبكاء على الميت عندهم اسم لذلك وهو معروف فى نظمهم ونثرهم تألم الميت بذلك فى قبره فهذا التألم هو عذابه بالبكاء عليه وهذه طريقة شيخنا فى هذه الاحاديث وبالله التوفيق

الباب التاسع عشر

فى ان الصبر نصف الايمان

والايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر قال غير واحد من السلف الصبر نصف الايمان وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر ولهذا جمع الله سبحانه بين

الصبر والشكر فى قوله « ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » فى
سورة ابراهيم وفى سورة حمعسق وفى سورة سبا وفى سورة لقمان . وقد
ذكر لهذا التنصيف اعتبارات احدها ان الايمان اسم لمجموع القول والعمل
والنية وهى ترجع الى شطرين فعل وترك فالفعل هو العمل بطاعة الله
وهو حقيقة الشكر. والترك هو الصبر عن المعصية والدين كله فى هذين
الشيئين فعل المأمور وترك المحظور . الاعتبار الثانى ان الايمان مبنى على
ركنين يقين وصبر وهما الركنان المذكوران فى قوله تعالى « وجعلناهم
ائمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون» فباليقين يعلم حقيقة
الأمر والنهى والثواب والعقاب وبالصبر ينفذ ما أمر به ويكف نفسه
عما نهى عنه ولا يحصل له التصديق بالأمر والنهى انه من عند الله
وبالثواب والعقاب الا باليقين ولا يمكنه الدوام على فعل المأمور وكف
النفس عن المحظور الا بالصبر فصار الصبر نصف الايمان والنصف الثانى
الشكر بفعل ما امر به وبترك مانهى عنه . الاعتبار الثالث ان الايمان
قول وعمل والقول قول القلب واللسان والعمل عمل القلب والجوارح
وبيان ذلك ان من عرف الله بقلبه ولم يقر بلسانه لم يكن مؤمنا كما قال
عن قوم فرعون « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » وكما قال عن قوم
عاد وقوم صالح « وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم
الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين » وقال موسى
لفرعون « لقد علمت ما انزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر »
فهؤلاء حصل قول القلب وهو المعرفة والعلم ولم يكونوا بذلك مؤمنين
وكذلك من قال بلسانه ماليس فى قلبه لم يكن بذلك مؤمنا بل كان من

المنافقين وكذلك من عرف بقلبه واقر بلسانه لم يكن بمجرد ذلك مؤمنا
حتى يأتى بعمل القلب من الحب والبغض والموالاة والمعاداة فيحب الله
ورسوله ويوالى أولياء الله ويعادى أعدائه ويستسلم بقلبه لله وحده وينقاد
لمتابعة رسوله وطاعته والتزام شريعته ظاهرا وباطنا واذافعل ذلك لم يكف
فى كمال ايمانه حتى يفعل ما أمر به فهذه الاركان الاربعة هى اركان الايمان
التى قام عليها بناؤه وهى ترجع الى علم وعمل ويدخل فى العمل كف النفس
الذى هو متعلق النهى وكلاهما لايحصل الا بالصبر فصار الايمان نصفين
احدهما الصبر والثانى ماتولد عنه من العلم والعمل . الاعتبار الرابع ان
النفس لها قوتان قوة الاقدام وقوة الاحجام وهى دائما تتردد بين احكام
هاتين القوتين فتقدم على ماتحبه وتحجم عن ماتكرهه والدين كله اقدام
واحجام اقدام على طاعة الله واحجام عن معاصى الله وكل منهما مايمكن
حصوله الا بالصبر . الاعتبار الخامس ان الدين كله رغبة ورهبة فالمؤمن
هو الراغب الراهب قال تعالى « انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا
رغباً ورهبا» وفى الدعاء عند النوم الذى رواه البخارى فى صحيحه اللهم انى
أسلمت نفسى اليك ووجهت وجهى اليك وفوضت أمرى اليك وألجأت
ظهرى اليك رغبة ورهبة اليك فلاتجد المؤمن ابدا الا راغبا راهبا. والرغبة
والرهبة لاتقوم الا على ساق الصبر فرهبته تحمله على الصبر ورغبته تقوده
الى الشكر . الاعتبار السادس ان جميع مايباشره العبد فى هذه الدار
لايخرج عما ينفعه فى الدنيا والآخرة او يضره فى الدنيا والآخرة اوينفعه
فى احد الدارين ويضره فى الاخرى واشرف الاقسام أن يفعل ماينفعه فى
الآخرة ويترك مايضره فيها وهو حقيقة الايمان ففعل ماينفعه هو الشكر

وترك مايضره هو الصبر . الاعتبار السابع ان العبد لاينفك عن أمر يفعله
ونهى يتركه وقدر يجرى عليه وفرضه فى الثلاثة الصبر والشكور ففعل
المأمور هو الشكر وترك المحظور والصبر على المقدور هو الصبر .
الاعتبار الثامن ان العبد فيه داعيان داع يدعوه الى الدنيا وشهواتها ولذاتها
وداع يدعوه الى الله والدار الآخرة وما أعد فيها لاوليائه من النعيم المقيم
فعصيان داعى الشهوة والهوى هو الصبر واجابة داعى الله والدار الآخرة
هو الشكر . الاعتبار التاسع ان الدين مداره على أصلين العزم والثبات
وهما الاصلان المذكوران فى الحديث الذى رواه احمد والنسائى عن النبى
صلى الله عليه وسلم اللهم انى أسألك الثبات فى الامر والعزيمة على الرشد
وأصل الشكر صحة العزيمة وأصل الصبر قوة الثبات فمتى ايد العبد بعزيمة
وثبات فقد أيد بالمعونة والتوفيق . الاعتبار العاشر ان الدين مبنى على
أصلين الحق والصبر وهما المذكوران فى قوله وتعالى « وتواصوا بالحق
وتواصوا بالصبر » ولما كان المطلوب من العبد هو العمل بالحق فى نفسه
وتنفيذه فى الناس وكان هذا هو حقيقة الشكر لم يمكنه ذلك بالصبر عليه
فكان الصبر نصف الايمان والله سبحانه أعلم

الباب العشرون – فى بيان تنازع الناس
فى الافضل من الصبر والشكر

حكى أبو الفرج بن الجوزى فى ذلك ثلاثة أقوال أحدها ان الصبر
أفضل والثانى أن الشكر أفضل والثالث انهما سواء كما قال عمر بن الخطاب
رضى الله عنه لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت ونحن
نذكر ما احتجت به كل فرقة وما لها وعليها فى احتجاجها بعون الله وتوفيقه

قال الصابرون قد اثنى الله سبحانه على الصبر وأهله ومدحه وأمر به وعلق
عليه خير الدنيا والاخرة وقد ذكره الله فى كتابه فى نحو تسعين موضعا
وقد تقدم من النصوص والاحاديث ما فيه وفى فضله ما يدل على انه افضل
من الشكر ويكفى فى فضله قوله صلى الله عليه وسلم الطاعم الشاكر
بمنزلة الصائم الصابر فذكر ذلك فى معرض تفضيل الصبر ورفع درجته
على الشكر فانه الحق الشاكر بالصابر وشبهه به ورتبة المشبه به اعلى
من رتبة المشبه وهذا كقوله مدمن الخمر كعابد وثن ونظائر ذلك قالوا
واذا وازنا بين النصوص الواردة فى الصبر والواردة فى الشكر وجدنا
نصوص الصبر اضعافها ولهذا لما كانت الصلاة والجهاد افضل الاعمال
كانت الاحاديث فيها فى سائر الابواب فلا تجد الاحاديث النبوية فى باب
الصلاة اكثر منها فى باب الصلاة والجهاد قالوا وايضا فالصبر يدخل فى كل
باب بل فى كل مسألة من مسائل الدين ولهذا كان من الايمان بمنزلة الرأس من
الجسد قالوا وايضا فالله سبحانه علق على الشكر الزيادة فقال «واذ تأذن
ربكم لئن شكرتم لازيدنكم» وعلق على الصبر الجزاء بغير حساب وايضا
فانه سبحانه اطلق جزاء الشاكرين فقال «وسيجزى الله الشاكرين» وقيد
جزاء الصابرين بالاحسان فقال « ولنجزين الذين صبروا اجرهم باحسن ما
كانوا يعملون » قالوا وقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يقول
الله تعالى كل عمل ابن آدم له الا الصوم فانه لى وانا اجزى به وفى لفظ كل
عمل ابن آدم يضاعف له الحسنة بعشر امثالها قال الله تعالى الا الصوم
فانه لى وانا اجزى به وما ذاك الا لانه صبر النفس ومنعها من شهواتها
كما فى الحديث نفسه يدع شهوته وطعامه وشرابه من اجلى ولهذا قال

النبى صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن افضل الاعمال عليك بالصوم فانه لاعدل له ولما كان الصبر حبس النفس عن اجابة داعى الهوى وكان هذا حقيقة الصوم فانه حبس النفس عن اجابة داعى شهوة الطعام والشراب والجماع فسر الصبر فى قوله تعالى «واستعينوا بالصبر والصلاة» أنه الصوم وسمى رمضان شهر الصبر وقال بعض السلف الصوم نصف الصبر وذلك ان الصبر حبس النفس عن إجابة داعى الشهوة والغضب فان النفس تشتهى الشىء لحصول اللذة بادراكه وتغضب لنفرتها من المولم لها والصوم صبر عن مقتضى الشهوة فقط وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب ولكن من تمام الصوم وكماله صبر النفس عن اجابة داعى الامرين وقد اشار الى ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح وهو قوله اذا كان يوم صوم احدكم فلا يجهل ولا يصخب فان احد سابه او شاتمه فليقل انى صائم فارشد صلى الله عليه وسلم الى تعديل قوى الشهوة والغضب وان الصائم ينبغى له ان يحتمى من افسادهما الصومه فهذه تفسد صومه وهذه تحبط اجره كما قال فى الحديث الاخر من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه قالوا ويكفى فى فضل الصبر على الشكر قوله تعالى « انى جزيتهم اليوم بما صبروا انهم هم الفائزون » فجعل فوزهم جزاء صبرهم وقال تعالى « والله مع الصابرين » لاشىء يعدل معيته لعبده كما قال بعض العارفين ذهب الصابرون بخير الدنيا والآخرة لانهم نالوا معية الله وقال تعالى « واصبر لحكم ربك فانك باعيننا » وهذا يتضمن الحراسة والكلاية والحفظ للصابر لحكمه وقد وعد الصابرين بثلاثة أشياء كل واحد خير من الدنيا وما عليها وهى صلواته تعالى عليهم ورحمته لهم

وتخصيصهم بالهداية فى قوله تعالى « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون » وهذا مفهم لحصر الهدى فيهم وأخبر أن الصبر من عزم الامور فى آيتين من كتابه وأمر رسوله ان يتشبه بصبر أولى العزم من الرسل وقد تقدم ذكر ذلك قالوا وقد دل الدليل على ان الزهد فى الدنيا والتقلل منها مهما أمكن من الاستكثار منها والزهد فيها حال الصابر والاستكثار منها حال الشاكر قالوا وقد سئل المسيح صلوات الله وسلامه عليه عن رجلين مرا بكنز فتخطاه احدهم ولم يلتفت اليه وأخذه الآخر وانفقه فى طاعة الله تعالى ايهما افضل فقال الذى لم يلتفت اليه واعرض عنه افضل عند الله قالوا ويدل على صحة هذا ان النبى صلى الله عليه وسلم عرضت عليه مفاتيح كنوز الارض فلم يأخذها وقال بل اجوع يوما واشبع يوما ولو اخذها لانفقها فى مرضات الله وطاعته فآثر مقام الصبر عنها والزهد فيها قالوا وقد علم ان الكمال الانسانى فى ثلاثة امور علوم يعرفها واعمال يعمل بها واحوال ترتب له على علومه واعماله وافضل العلم والعمل والحال العلم بالله واسمائه وصفاته وافعاله والعمل بمرضاته وانجذاب القلب اليه بالحب والخوف والرجاء فهذا اشرف ما فى الدنيا وجزاؤه اشرف ما فى الآخرة واجل المقاصد معرفة الله ومحبته والانس بقربه والشوق الى لقائه والتنعم بذكره وهذا اجل سعادة الدنيا والآخرة وهذا هو الغاية التى تطلب لذاتها وانما يشعر العبد تمام الشعور بان ذلك عين السعادة اذا انكشف له الغطاء وفارق الدنيا ودخل الآخرة والا فهو فى الدنيا وأن شعر بذلك بعض الشعور فليس شعوره به كاملا للمعارضات التى عليه والمحن التى امتحن بها والا فليس السعادة فى الحقيقة سوى ذلك وكل العلوم والمعارف

تبع لهذه المعرفة مرادة لاجلها وتفاوت العلوم فى فضلها بحسب قرب
افضائها الى هذه المعرفة وبعده فكل علم كان أقرب افضاء الى العلم بالله
وأسمائه وصفاته فهو أعلى مما دونه وكذلك حال القلب فكل حال كان اقرب
الى المقصود الذى خلق له فهو اشرف مما دونه وكذلك الاعمال فكل عمل
كان أقرب الى تحصيل هذا المقصود كان أفضل من غيره ولهذا كانت
الصلاة والجهاد من افضل الاعمال او أفضلها القرب افضائها الى هذا المقصود
وهكذا يجب أن يكون فان كل ما كان الشىء اقرب الى الغاية كان أفضل
من البعيد عنها فالعمل المعد للقلب المهىء له لمعرفة الله واسمائه
وصفاته ومحبته وخوفه ورجائه أفضل مما ليس كذلك وإذا اشتركت
عدة اعمال فى هذا الافضاء فافضلها أقربها الى هذا المفضى ولهذا اشتركت
الطاعات فى هذا الافضاء فكانت مطلوبة لله واشتركت المعاصى فى
حجب القلب وقطعه عن هذه الغاية فكانت منهيا عنها وتأثير الطاعات
والمعاصى بحسب درجاتها وها هنا أمر ينبغى التفطن له وهو أنه قد يكون
العمل المعين أفضل منه فى حق غيره فالغنى الذى بلغ له مال كثير ونفسه لا
تسمح ببذل شىء منه فصدقته وايثاره أفضل له من قيام الليل وصيام النهار نافلة
والشجاع الشديد الذى يهاب العدو سطوته وقوفه فى الصف ساعة وجهاده
اعداء الله أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع والعالم الذى قد عرف
السنة والحلال والحرام وطرق الخير والشر مخالطته للناس وتعليمهم ونصحهم فى
دينهم أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح
ووالى الامر الذى قد نصبه الله للحكم بين عباده جلوسه ساعة للنظر فى
المظالم وانصاف المظلوم من الظالم واقامة الحدود ونصر المحق وقمع المبطل

المبطل أفضل من عبادة سنين من غيره ومن غلبت عليه شهوة النساء
فصومه له أنفع وأفضل من ذكر غيره وصدقته وتأمل تولية النبى صلى الله
عليه وسلم لعمرو بن العاصى وخالد بن الوليد وغيرهما من أمرائه وعماله
وترك تولية أبى ذر بل قال انى أراك ضعيفا وانى أحب لك ما أحب لنفسى
لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم وامره وغيره بالصيام وقال عليك
بالصوم فانه لا عدل له وأمر آخر بأن لا يغضب وامر آخر بأن لا يزال
لسانه رطبا من ذكر الله ومتى اراد الله بالعبد كمالا وفقه لاستفراغ
وسعه فيما هو مستعد له قابل له قد هيء له فاذا استفرغ وسعه برز على
غيره وفاق الناس فيه كما قيل :

مازال يسبق حتى قال حاسده ‍ ‍ ‍ طريق الى العلياء مختصر

وهذا كالمريض الذى يشكو وجع البطن مثلا اذا استعمل دواء
ذلك الداء انتفع به واذا استعمل دواء وجع الرأس لم يصادف داءه فالشح
المطاع مثلا من المهلكات ولا يزيله صيام مائة عام ولا قيام ليلها وكذلك
داء اتباع الهوى والاعجاب بالنفس لا يلائمه كثرة قراءة القرآن واستفراغ
الوسع فى العلم والذكر والزهد وانما يزيله اخراجه من القلب بضده
ولو قيل ايما أفضل الخبز أو الماء لكان الجواب ان هذا فى موضعه افضل
وهذا فى موضعه أفضل واذا عرفت هذه القاعدة فالشكر ببذل المال
عمل صالح يحصل به للقلب حال وهو زوال البخل والشح بسبب خروج
الدنيا منه فتهيء لمعرفة الله ومحبته فهو دواء للداء الذى فى القلب يمنعه من
المقصود. وأما الفقير الزاهد فقد استراح من هذا الداء والدواء وتوفرت

قوته على استفراغ الوسع فى حصول المقصود ثم أوردوا على أنفسهم سؤالا فقالوا فان قيل فقد حث الشرع على الاعمال وانفصلوا عنه بأن قالوا الطبيب اذا ثنى على الدواء لم يدل على ان الدواء يراد لعينه ولا انه أفضل من الشفاء الحاصل به ولكن الاعمال علاج لمرض القلوب ومرض القلوب مما لا يشعر به غالباً فوقع الحث على العمل المقصود وهو شفاء القلب فالفقير الآخذ لصدقتك يستخرج منك داء البخل كالحجام يستخرج منك الدم المهلك قالوا واذا عرف هذا عرف ان حال الصابر حال المحافظ على الصحة والقوة وحال الشاكر حال المتداوى بأنواع الادوية لازالة مواد السقم

فصل

قال الشاكرون لقد تعديتم طوركم وفضلتم مقاما غيره افضل منه وقدمتم الوسيلة على الغاية والمطلوب لغيره على المطلوب لنفسه والعمل الكامل على الاكمل والفاضل على الافضل ولم تعرفوا للشكر حقه ولا وفيتموه مرتبته وقد قرن تعالى ذكره الذى هو المراد من الخلق بذكره وكلاهما هو المراد بالخلق والامر والصبر خادم لهما ووسيلة اليهما وعونا عليهما قال تعالى «اذكرونى اذكركم واشكروا لى ولا تكفرون» وقرن سبحانه الشكر بالايمان واخبر انه لا غرض له فى عذاب خلقه ان شكروا وآمنوا به فقال مايفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم أى ان وفيتم ماخلقتم له وهو الشكر والايمان فما اصنع بعذابكم بعد هذا واخبر سبحانه ان اهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده

فقال « وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين » وقسم الناس الى شكور وكفور فأبغض الاشياء اليه الكفر وأهله وأحب الاشياء اليه الشكر وأهله قال تعالى فى الانسان « إنا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً » وقال نبيه سليمان عليه السلام « هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم اكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم » وقال تعالى « واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد » وقال تعالى : « ان تكفروا فان الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم » وهذا كثير فى القرآن يقابل سبحانه بين الشكر والكفر فهو ضده . قال تعالى « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفأن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الايمان فلم ينقلبوا على أعقابهم وعلق سبحانه المزيد بالشكر والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره . وقد وقف سبحانه كثيرا من الجزاء على المشيئة كقوله « فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء » وقوله فى الاجابة « فيكشف ماتدعون اليه ان شاء » وقوله فى الرزق « يرزق من يشاء » وفى المغفرة « يغفر لمن يشاء » والتوبة « ويتوب الله على من يشاء » واطلق جزاء الشكر اطلاقا حيث ذكر كقوله « وسيجزى الشاكرين وسنجزى الله الشاكرين » ولما عرف عدو الله ابليس قدر مقام الشكر وانه من اجل المقامات واعلاها جعل غايته أن يسعى فى قطع الناس عنه فقال « ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد اكثرهم شاكرين » ووصف الله سبحانه

الشاكرين بأنهم قليل من عباده فقال تعالى « وقليل من عبادى الشكور »
وذكر الامام احمد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه سمع رجلا يقول
اللهم اجعلنى من الأقلين فقال ماهذا فقال ياأمير المؤمنين ان الله قال « وما
آمن معه الا قليل » وقال تعالى « وقليل من عبادى الشكور » وقال « الا
الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم » فقال عمر صدقت وقد اثنى الله
سبحانه وتعالى على أول رسول بعثه الى أهل الارض بالشكر فقال « ذرية
من حملنا مع نوح انه كان عبداً شكورا » . وفى تخصيص نوح هاهنا
بالذكر وخطاب العباد بأنهم ذريته اشارة الى الاقتداء به فانه أبوهم
الثانى فان الله تعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلا الا من ذريته كما قال
تعالى « وجعل ذريته هم الباقين » فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم فى الشكر
« فانه كان عبداً شكورا . وقد اخبر سبحانه انما يعبده من شكره فمن
لم يشكره لم يكن من أهل عبادته فقال « واشكروا الله ان كنتم اياه
تعبدون » وأمر عبده موسى أن يتلقى ما أتاه من النبوة والرسالة والتكليم
بالشكر فقال تعالى « ياموسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى
فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » وأول وصية وصى الله بها الانسان
بعد ماعقل عنه بالشكر له وللوالدين فقال « ووصينا الانسان بوالديه
حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك الى
المصير » واخبر ان رضاه فى شكره فقال تعالى « وان تشكروا يرضه
لكم » وأثنى سبحانه على خليله ابراهيم بشكر نعمه فقال « ان ابراهيم
كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين شاكراً لأنعمه اجتباه
وهداه الى صراط مستقيم » فأخبر عنه سبحانه بأنه أمة أى قدوة يؤتم به فى

الخير وانه قانتاً لله والقانت هو المطيع المقيم على طاعته والحنيف هو المقبل
على الله المعرض عما سواه ثم ختم له بهذه الصفات بانه شاكر لأنعمه فجعل
الشكر غاية خليله واخبر سبحانه ان الشكر هو الغاية من خلقه وامره
بل هو الغاية التى خلق عبيده لاجلها والله اخرجكم من بطون امهاتكم
لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون
فهذه غاية الخلق وغاية الامر فقال لقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة فاتقوا
الله لعلكم تشكرون ويجوز أن يكون قوله لعلكم تشكرون تعليلا
لقضائه لهم بالنصر ولأمره لهم بالتقوى ولهما معا وهو الظاهر فالشكر غاية
الخلق والأمر وقد صرح سبحانه بانه غاية امره وارساله الرسول فى قوله
تعالى « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم
الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون فاذكرونى أذكركم
واشكروا لى ولا تكفرون » قالوا فالشكر مراد لنفسه والصبر مراد لغيره
والصبر انما حمد لافضائه وايصاله الى الشكر فهو خادم الشكر وقد ثبت
فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قام حتى تفطرت قدماه .
فقيل له اتفعل هذا وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر قال
افلا اكون عبدا شكورا وثبت فى المسند والترمذى از النبى صلى الله
عليه وسلم قال لمعاذ والله انى لاحبك فلا تنس ان تقول فى دبر كل صلاة
اللهم اعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » وقال ابن ابى الدنيا حدثنا
اسحق بن اسماعيل حدثنا ابو معاوية وجعفر بن عون عن هشام ابن عروة
قال كان من دعاء النبى صلى الله عليه وسلم اللهم اعنى على ذكرك وشكرك
وحسن عبادتك قال وحدثنا محمود بن غيلان حدثنا المؤمل بن اسماعيل

حدثنا حماد بن سلمة حدثنا حميد الطويل عن طلق بن حبيب عن ابن عباس
رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اربع من اعطيهن
فقد اعطى خير الدنيا والآخرة قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وبدنا على البلاء
صابرا وزوجة لا تبغيه خونا فى نفسها ولا فى ماله وذكر أيضا من حديث
القاسم بن محمد عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ما انعم الله على
عبد نعمة فعلم انها من عند الله الا كتب الله له شكرها وما علم الله من
عبد ندامة على ذنب الا غفر الله له قبل ان يستغفره وان الرجل يشترى
الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد الله فما يبلغ ركبته حتى يغفر له وقد ثبت فى
صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله ليرضى عن العبد يأكل
الاكلة فيحمله عليها ويشرب الشربة فيحمله عليها فكان هذا الجزاء العظيم
الذى هو اكبر انواع الجزاء كما قال تعالى « ورضوان من الله اكبر » فى
مقابلة شكره بالحمد . وذكر ابن أبى الدنيا من حديث عبد الله بن صالح
حدثنا أبو زهير يحيى بن عطارد القرشى عن أبيه قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم لا يرزق الله عبدا الشكر فيحرمه الزيادة لان الله
تعالى يقول « لئن شكرتم لأزيدنكم » وقال الحسن البصرى ان الله
ليمتع بالنعمة ما شاء فاذا لم يشكر عليها قلبها عذابا ولهذا كانوا يسمون
الشكر الحافظ فانه الذى يحفظ النعم الموجودة والجالب فانه يجلب النعم
المفقودة وذكر ابن أبى الدنيا عن على بن أبى طالب رضى الله عنه انه قال
لرجل من همدان ان النعمة موصولة بالشكر والشكر يتعلق بالمزيد وهما
مقرونان فى قرن فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد
وقال عمر بن عبد العزيز قيدوا نعم الله بشكر الله وكان يقال الشكر قيد النعم

وقال مطرف بن عبد الله لأن أعافى فأشكر أحب الى من ان أبتلى فأصبر
وقال الحسن أكثروا ذكر هذه النعم فان ذكرها شكر وقد امر الله تعالى
نبيه ان يحدث بنعمة ربه فقال وأما بنعمة ربك فحدث والله تعالى يحب
من عبده ان يرى عليه أثر نعمته فان ذلك شكرها بلسان الحال
وقال على بن الجعد سمعت سفيان الثورى يقول ان داود عليه الصلاة
والسلام قال الحمد لله حمدا كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله فأوحى الله
اليه ياداود اتعبت الملائكة وقال شعبة حدثنا المفضل بن فضالة عن ابى
رجاء العطاردى قال اخرج علينا عمران ابن الحصينى وعليه مطرف خز
لم نره عليه قبل ولا بعد فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا
انعم الله على عبد نعمة يحب أن يرى اثر نعمته على عبده وفى صحيفة عمر
وابن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى صلى الله عليه وسلم قال كلوا واشربوا
وتصدقوا فى غير مخيلة ولا سرف فان الله يحب ان يرى اثر نعمته على عبده
وذكر شعبة عن ابى اسحاق عن ابى الاحوص عن ابيه قال اتيت رسول
الله صلى الله عليه وسلم وانا قشف الهيئة فقال هل لك من مال قال قلت
نعم قال من أى المال قلت من كل المال قد آتانى الله من الابل والخيل
والرقيق والغنم قال فاذا آتاك الله مالا فلير عليك وفى بعض المراسيل ان
الله يحب ان يرى اثر نعمته على عبده فى مأكله ومشربه وروى عبد الله
ابن يزيد المقرى عن ابى معمر عن بكير ابن عبد الله رفعه من اعطى خيرا
فروى عليه سمى حبيب الله محدثا بنعمة الله ومن اعطى خيرا فلم ير عليه
سمى بغيض الله معاديا لنعمة الله وقال « فضيل ابن عياض كان يقال من
عرف نعمة الله بقلبه وحمده بلسانه لم يستتم ذلك حتى يرى الزيادة لقول

الله تعالى « ولئن شكرتم لأزيدنكم وقال من شكر النعمة أن يحدث بها
وقد قال تعالى « يابن آدم اذا كنت تتقلب فى نعمتى وانت تتقلب فى معصيتى
فاحذرنى لا اصرعك بين معاصى يا ابن ادم اتقنى ونم حيث شئت وقال
الشعبى الشكر نصف الايمان واليقين الايمان كله وقال ابو قلابة لا تضركم
دنيا شكرتموها وقال الحسن اذا انعم الله على قوم سالهم الشكر فاذا
شكروه كان قادرا على ان يزيدهم واذا كفروه كان قادرا على ان يبعث نعمته
عليهم عذابا باوقد ذم الله سبحانه الكنود وهو الذى لا يشكر نعمه قال
الحسن ان الانسان لربه لكنود يعد المصائب وينسى النعم وقد اخبر النبى
صلى الله عليه وسلم ان النساء اكثر اهل النار بهذا السبب قال لو احسنت
الى احداهن الدهر ثم رأت منك شيئا ثم قالت ما رأيت منك خيرا قط
فاذا كان هذا بترك شكر نعمة الزوج وهى فى الحقيقة من الله فكيف
بمن ترك شكر نعمة الله

ياأيها الظالم فى فعله ... والظلم مردود على من ظلم
الى متى انت وحتى متى ... تشكو المصيبات وتنسى النعم

ذكر ابن ابى الدنيا من حديث ابى عبد الرحمن السلمى عن الشعبى
عن النعمان ابن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التحدث بالنعمة
شكر وتركها كفر ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير ومن لا يشكر
الناس لا يشكر الله والجماعة بركة والفرقة عذاب وقال مطرف بن عبد الله
نظرت فى العافية والشكر فوجدت فيهما خير الدنيا والآخرة ولأن
اعافى فاشكر احب الى من ان ابتلى فاصبر ورئى بكر بن عبد الله المزنى
حمالا عليه حمله وهو يقول الحمد لله استغفر الله قال فانتظرته حتى وضع

ما على ظهره وقلت له اما تحسن غير هذا قال بلى أحسن خيرا كثيرا
اقرأ كتاب الله غير ان العبد بين نعمة وذنب فأحمد الله على نعمه السابغة
واستغفره لذنوبى فقلت الحمال أفقه من بكر . وذكر الترمذى من حديث
جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم
على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها الى آخرها فسكتوا فقال
قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن رداً منكم كنت كلما أتيت على
قوله « فبأى آلاء ربكما تكذبان » قالوا لا بشىء من نعمك ربنا نكذب
فلك الحمد وقال مشعر لما قيل لآل داود «اعملوا آل داود شكراً » لم يأت
على القوم ساعة الا وفيهم مصلى . وقال عون بن عبد الله قال بعض الفقهاء
انى روات فى أمرى لم أر خيراً الا شر معه الا المعافاة والشكر فرب شاكر
فى بلاءه ورب معافى غير شاكر فاذا سألتموا الله فاسئلوها جميعاً . وقال
أبو معاوية لبس عمر بن الخطاب قميصاً فلما بلغ ترقوته قال الحمد لله الذى
كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى ثم مد يديه فنظر كل شىء
يزيد على يديه فقطعه ثم أنشأ يحدث. قال سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول من لبس ثوباً أحسبه قال جديداً فقال حين يبلغ ترقوته او
قال قبل أن يبلغ ركبتيه مثل ذلك ثم عمد الى ثوبه الخلق فكسا به مسكيناً
لم يزل فى جوار الله وفى ذمة الله وفى كنف الله حياً وميتاً ما بقى من ذلك
الثوب سلك . وقال عون بن عبد الله لبس رجل قميصاً جديداً فحمد الله
فغفر له فقال رجل ارجع حتى أشترى قميصاً فألبسه واحمد الله. وقال شريح
ما أصيب عبد بمصيبة الا كان لله عليه فيها ثلاث نعم ألا تكون كانت

فى دينه والا تكون أعظم مما كانت وانها لابد كائنة فقد كانت وقال عبد الله
ابن عمر بن عبد العزيز ماقلب عمر بن عبد العزيز بصره الى نعمة أنعم الله
بها عليه الا قال اللهم انى أعوذ بك أن أبدل نعمتك كفراً وان أكفرها
بعد ان عرفتها وأن أنساها ولا أثنى بها. وقال روح بن القاسم تنسك رجل
فقال لا آكل الخبيص لا أقوم بشكره فقال الحسن هذا احمق وهل يقوم
بشكر الماء البارد وفى بعض الآثار الالهية يقول الله عز وجل ابن آدم
خيرى اليك نازل وشرك الى صاعد اتحبب اليك بالنعم وتتبغض الىّ
بالمعاصى ولا يزال ملك كريم قد عرج الى منك بعمل قبيح .قال ابن أبى
الدنيا حدثنى أبو على قال كنت اسمع جارا لى يقول فى الليل يا ألهى
خيرك على نازلا وشرى اليك صاعد كم من ملك كريم قد صعد اليك منى
بعمل قبيح وأنت مع غناك عنى تحبب الى بالنعم وأنا مع فقرى اليك
وفاقتى أتمقت اليك بالمعاصى وأنت فى ذلك تجبرنى وتسترنى وترزقنى .
وكان أبو المغيرة اذا قيل له كيف أصبحت ياأبى محمد قال أصبحنا مغرقين
فى النعم عاجزين عن الشكر يتحبب الينا ربنا وهو غنى عنا ونتمقت اليه
ونحن اليه محتاجون. وقال عبدالله بن ثعلبة الهى من كرمك انك تطاع
ولا تعصى ومن حلمك انك تعصى وكأنك لاترى وأى زمن لم يعصك
فيه سكان أرضك وأنت بالخير عواد وكان معاوية بن قرة اذا لبس ثوباً
جديداً قال بسم الله والحمد لله وقال أنس بن مالك مامن عبد توكل بعبادة
الله الا عزم الله السموات والارض تعبر رزقه فجعله فى ايدى بنى آدم
يعملونه حتى يدفعوا عنه اليه فان العبد قبله أوجب عليه الشكر وان اباه
وجد الغني الحميد عباداً فقراء يأخذون رزقه ويشكرون له . وقال يونس

بن عبيد قال رجل لابى تميمة كيف أصبحت قال أصبحت بين نعمتين
لاأدرى أيتهما افضل ذنوب سترها الله فلا يستطيع ان يعيرنى بها احد
ومودة قذفها الله فى قلوب العباد لايبلغها عملى وروى ابن ابى الدنيا عن
سعيد المقبرى عن ابيه عن عبد الله بن سلام ان موسى عليه السلام قال
يارب مالشكر الذى ينبغى لك قال لا يزال لسانك رطبا من ذكرى
وروى سهيل بن ابى صالح عن ابيه عن ابى هريرة رضى الله عنه قال دعى
رجل من الانصار من أهل قباء النبى صلى الله عليه وسلم فانطلقنا معه فلما
طعم وغسل يديه قال الحمد لله الذى يطعم ولا يطعم من علينا فهدانا واطعمنا
وسقانا وكل بلاء حسن أبلانا الحمد لله غير مودع ربى ولا مكافأ ولا مكفور
ولا مستغنى عنه الحمد لله الذى اطعم من الطعام وسقى من الشراب وكسى
من العرى وهدى من الضلالة وبصر من العمى وفضل على كثير من
خلقه تفضيلا الحمد لله رب العالمين وفى مسند الحسن ابن الصلاح من
حديث انس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم ما انعم الله على عبد نعمة فى اهل ولا مال اوولد فيقول ماشاء الله
لا قوة الا بالله فيرى فيه آفة دون الموت. ويذكر عن عائشة رضى الله عنها
أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليها فراى كسرة ملقاة فمسحها وقال
ياعائشة أحسنى جوار نعم الله فأنها قل ما نفرت عن اهل بيت فكادت
أن ترجع اليهم. ذكره ابن ابى الدنيا وقال الامام احمد حدثنا هاشم بن
القاسم حدثنا صالح عن ابى عمران الجونى عن أبى الخلد قال قرأت فى
مسئلة داود انه قال يارب كيف لى أن اشكر وانا لا اصل الى شكرك
الا بنعمك قال فأتاه الوحى ياداود اليس تعلم ان الذى بك من النعم منى

قال بلى يارب قال فانى ارضى بذلك منك شكرا وقال عبد الله بن احمد
حدثنا ابو موسى الانصارى حدثنا ابو الوليد عن سعيد بن عبد العزيز
قال كان من دعاء داود سبحان مستخرج الشكر بالعطاء ومستخرج الدعاء
بالبلاء وقال الامام احمد حدثنا ابو معاوية حدثنى الاعمش عن المنهال عن
عبد الله بن الحارث قال اوحى الله الى داود احبنى واحب عبادتى وحببنى الى
عبادى قال يارب هذا حبك وحب عبادك فكيف احببك الى عبادك قال
تذكرنى عندهم فأنهم لايذكرون منى الا الحسن فجل جلال ربنا وتبارك
اسمه وتعالى جده وتقدست اسماؤه وجل ثناؤه ولا اله غيره. وقال احمد حدثنا
عبدالرزاق بن عمران قال سمعت وهبا يقول وجدت فى كتاب آل داود بعزتى
انه من اعتصم بى فان كادته السموات بمن فيهن والارضون بمن فيهن فانى
اجعل له من بين ذلك مخرجا ومن لم يعتصم بى فانى اقطع يديه من اسباب
السماء واخسف به من تحت قدميه الارض فاجعله فى الهواء ثم اكله الى
نفسه كفى بى لعبدى ما لا اذا كان عبدى فى طاعتى اعطيته قبل ان
يسألنى وأجبته قبل أن يدعونى وانى اعلم بحاجته التى ترفق به من نفسه . وقال
احمد حدثنا يسار حدثنا حفص حدثنا ثابت قال كان داود عليه السلام قد جزأ
ساعات الليل والنهار على اهله فلم يكن ساعة من ليل أو نهار الا وانسان
من آل داود قائم يصلى فيها قال فعمهم تبارك وتعالى فى هذه الآية :
« اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور » قال احمد وحدثنا
جابر بن زيد عن المغيرة بن عيينة قال داود يارب هل بات أحد من
خلقك الليلة أطول ذكراً لك منى فأوحى الله اليه نعم الضفدع وأنزل الله
عليه « اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور » قال يارب كيف

اطيق شكرك وانت الذى تنعم على ثم ترزقنى على النعمة الشكر ثم تزيدنى
نعمة بعد نعمة فالنعم منك والشكر منك فكيف اطيق شكرك قال
الآن عرفتنى ياداود. قال احمد وحدثنا عبدالرحمن حدثنا الربيع بن صبيح
عن الحسن قال : قال نبى الله داود الهى لوان لكل شعرة منى لسانين
يسبحك الليل والنهار والدهر له ماقفيت حق نعمة واحدة وذكر ابن ابى
الدنيا عن ابى عمران الجونى عن ابى الخلد قال : قال موسى يارب كيف لى
أن اشكرك واصغر نعمة وضعتها عندى من نعمك لايجازى بها عملى كله
قال فاتاه الوحى يا موسى الآن شكرتنى قال بكر بن عبد الله ماقال عبد
قط الحمدلله الا وجبت عليه نعمة بقوله الحمدلله فجزاء تلك النعمة ان يقول الحمدلله
فجاءت نعمة اخرى فلا تنفد نعم الله . وقال الحسن سمع نبى الله رجلا يقول
الحمد لله بالاسلام فقال انك لتحمد الله على نعمة عظيمة وقال خالد بن معدان
سمعت عبد الملك بن مروان يقول ماقال عبد كلمة احب الى الله وابلغ فى
الشكر عنده من ان يقول الحمد لله الذى انعم علينا وهدانا للاسلام وقال
سليمان التيمى ان الله سبحانه انعم على عبده على قدره وكلفهم الشكر على
قدرتهم . وكان الحسن اذا ابتدأ حديثه يقول الحمدلله اللهم ربنا لك الحمد
بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعلمتنا وانقذتنا وفرجت عنا لك الحمد بالاسلام
والقرآن ولك الحمد بالاهل والمال والمعافات كبت عدونا وبسطت رزقنا
واظهرت امننا وجمعت فرقتنا واحسنت معافاتنا ومن كل ماسألناك ربنا
اعطيتنا فلك الحمد على ذلك حمدا كثيرا لك الحمد بكل نعمة أنعمت بها
علينا فى قديم أوحديث اوسر أوعلانية او خاصة او عامة او حى او ميت
او شاهد او غائب لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد اذا رضيت. وقال الحسن

قال موسى يارب كيف يستطيع آدم ان يؤدى شكر ماصنعت اليه خلقته بيدك ونفخت فيه من روحك واسكنته جنتك وامرت الملائكة فسجدوا له فقال يا موسى علم ان ذلك منى فحمدنى عليه فكان ذلك شكر ماصنعت اليه وقال سعد بن مسعود الثقفى انما سمى نوح عبداً شكوراً لانه لم يلبس جديداً ولم يأكل طعاما الاحمد الله وكان على بن ابى طالب اذاخرج من الخلاء مسح بطنه بيده وقال يالها من نعمة لو يعلم العباد شكرها. وقال مخلد بن الحسين كان يقال الشكر ترك المعاصى. وقال ابو حازم كل نعمة لاتقرب من الله فهى بلية وقال ابو سليمان ذكر النعم يورث الحب لله وقال حماد بن زيد حدثنا ليث عن ابى بردة قال قدمت المدينة فلقيت عبد الله بن سلام فقال لى الا تدخل بيتا دخله النبى صلى الله عليه وسلم وتصلى فى بيت صلى فيه النبى صلى الله عليه وسلم ونطعمك سويقا وتمرا ثم قال لى ان الله اذا جمع الناس غدا ذكرهم ماانعم عليهم فيقول العبد بآية ماذا فيقول آية ذلك انك كنت فى كربة كذا وكذا فدعوتنى فكشفتها وآية ذلك انك كنت فى سفر كذا وكذا فاستصحبتنى فصحبتك قال يذكره حتى يذكر فيقول آية ذلك انك خطبت فلانة بنت فلان وخطبها معك خطاب فزوجتك ورددتهم يقف عبده بين يديه فيعدد عليه نعمه فبكى ثم بكى ثم قال انى لارجو الله ان لايقعد الله عبدا بين يديه فيعذبه وروى ليث بن ابى سليم عن عثمان عن بن سيرين عن انس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالنعم يوم القيامة والحسنات والسيئات فيقول الله عز وجل لنعمة من نعمه خذى حقك من حسناته فماتترك له من حسنة الا ذهبت بها وقال بكر بن عبد الله المزنى ينزل بالعبد الأمر فيدعو

الله فيصرف عنه فيأتيه الشيطان فيضعف شكره يقول ان الامر كان ايسر مما تذهب اليه قال او لايقول العبد كان الأمر اشد مما اذهب اليه ولكن الله صرفه عنى. وذكر ابن ابى الدنيا عن صدقة بن يسار قال بينا داود عليه السلام فى محرابه اذ مرت به ذرة فنظر اليها وفكر فى خلقها وعجب منها وقال مايعبؤ الله بهذه فانطقها الله فقالت يا داود اتعجبك نفسك فوالذى نفسى بيده لانا على ماأتانى الله من فضله اشكر منك على ماأتاك الله من فضله. وقال ايوب ان من اعظم نعمة الله على عبده ان يكون مأمونا على ماجاء به النبى صلى الله عليه وسلم. وقال سفيان الثورى كان يقال ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة. وقال زاذان مما يجب لله على ذى النعمة بحق نعمته ان لايتوصل بها الى معصية. قال ابن ابى الدنيا انشدنى محمود الوراق

اذا كان شكرى نعمة الله نعمة ... على له فى مثلها يجب الشكر
فكيف وقوع الشكر الا بفضله ... وان طالت الأيام واتصل العمر
اذا مس بالسراء عم سرورها ... وان مس بالضراء أعقبها الأجر
وما منهما الاله فيه منة ... تضيق بها الأوهام والبر والبحر

وقد روى الدراوردى عن عمرو بن ابى عمرو عن سعيد المقبرى عن ابى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى قال الله عز وجل ان المؤمن عندى بمنزلة كل خير يحمدنى وانا أنزع نفسه من بين جنبيه ومر محمد بن المنكدر بشاب يغامز امرأة فقال يافتى ماهذا جزاء نعم الله عليك. وقال حماد بن سلمة عن ثابت قال قال أبو العالية انى لأرجو أن لا يهلك عبد بين اثنتين نعمة يحمد الله عليها وذنب يستغفر

منه وكتب ابن السماك الى محمد بن الحسن حين ولى القضاء بالرقة أما بعد
فلتكن التقوى من بالك على كل حال وخف الله من كل نعمة أنعم بها
عليك من قلة الشكر عليها مع المعصية بها فان فى النعم حجة وفيها تبعة
فأما الحجة بها فالمعصية بها وأما التبعة فيها فقلة الشكر عليها فعفى الله
عنك كلما ضيعت من شكر أو ركبت من ذنب أو قصرت من حق. ومر
الربيع بن أبى راشد برجل به زمانة فجلس يحمد الله ويبكى قيل له ما يبكيك
قال ذكرت أهل الجنة وأهل النار فشبهت أهل الجنة بأهل العافية وأهل
النار بأهل البلاء فذلك الذى أبكانى وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه
عن النبى صلى الله عليه وسلم اذا أحب أحدكم أن يرى قدر نعمة الله
عليه فلينظر الى من تحته ولا ينظر الى من هو فوقه. قال عبد الله بن
المبارك أخبرنى يحيى بن عبيد الله قال سمعت ابى قال سمعت أبى هريرة
فذكره وقال بن المبارك حدثنا يزيد بن ابراهيم عن الحسن قال قال
ابو الدرداء من لم يعرف نعمة الله عليه الا فى مطعمه ومشربه فقد قل
عمله وحضر عذابه قال ابن المبارك اخبرنا مالك بن انس عن اسحق بن
عبد الله بن ابى طلحة عن انس رضى الله عنه قال سمعت عمر بن الخطاب
رضى الله عنه سلم على رجل فرد عليه السلام فقال عمر للرجل كيف أنت قال
الرجل احمد اليك الله قال عمر هذا اردت منك قال ابن المبارك واخبرنا مسعود
عن علقمة بن مرثد عن ابن عمر رضى الله عنهما قال لعلنا نلتقى فى اليوم
مراراً يسأل بعضنا عن بعض ولم يرد بذلك الا ليحمد الله عز وجل وقال
مجاهد فى قوله تعالى « واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » قال لا آله الا الله
وقال ابن عيينة ما انعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرفهم لا آله الا الله

قال وأن لا اله الا الله لهم فى الآخرة كالماء فى الدنيا . وقال بعض السلف
فى خطبته يوم عيد أصبحتم زهراً وأصبح الناس غبراً أصبح الناس ينسجون
وأنتم تلبسون وأصبح الناس يعطون وأنتم تأخذون وأصبح الناس ينتجون
وأنتم تركبون وأصبح الناس يزرعون وأنتم تأكلون فبكى وأبكاهم
وقال عبد الله بن قرط الازدى وكان من الصحابة على المنبر وكان يوم
أضحى ورأى على الناس ألوان الثياب يالها من نعمة ما أشبعها ومن
كرامة ما أظهرها مازال عن قوم شيئا أشد من نعمة لا يستطيعون ردها
وانما تثبت النعمة بشكر المنعم عليه للمنعم . وقال سلمان الفارسى رضى
الله عنه ان رجلا بسط له من الدنيا فانتزع مافى يديه فجعل يحمد الله ويثنى
عليه حتى لم يكن له فراش الا بارية قال فجعل يحمد الله ويثنى عليه وبسط
لآخر من الدنيا فقال لصاحب البارية أرأيتك أنت على ما تحمد الله قال
احمده على مالو أعطيت به ما أعطى الخلق لم أعطهم اياه قال وما ذاك قال
أرأيتك بصرك أرأيتك لسانك أرأيتك يديك أرأيتك رجليك وجاء رجل
الى يونس بن عبيد يشكو ضيق حاله فقال له يونس أيسرك ببصرك هذه
مائة الف درهم قال الرجل لا قال فبيديك مائة الف قال لا فبرجليك
مائة الف قال لا قال فذكره نعم الله عليه فقال يونس أرى عندك مئين
ألوف وأنت تشكو الحاجة وكان أبو الدرداء يقول الصحة الملك وقال
جعفر بن محمد رضى الله عنه فقد أبى بغلة له فقال ان ردها الله على لاحمدنه
بمحامد يرضاها فما لبث ان أتى بها بسرجها ولجامها فركبها فلما استوى عليها
وضم اليه ثيابه رفع رأسه الى السماء فقال الحمد لله لم يزد عليها فقيل له فى

ذلك فقال هل تركت وأبقيت شيئا جعلت الحمد كله لله وروى ابن أبي
الدنيا من حديث سعد بن اسحق بن كعب بن عجره عن أبيه عن جده
قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً من الانصار وقال ان
سلمهم الله وغنمهم فان لله على فى ذلك شكرا قال فلم يلبثوا ان غنموا
وسلموا فقال بعض أصحابه سمعناك تقول ان سلمهم الله وغنمهم فان لله
على فى ذلك شكراً قال قد فعلت اللهم لك الحمد شكراً ولك المن فضلا
وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال محمد بن المنكدر لابى حازم يا أبى
حازم ما أكثر من يلقانى فيدعو لى بالخير ماأعرفهم وماصنعت اليهم خيراً
قط فقال أبو حازم لاتظن ان ذلك من قبلك ولكن أنظر الى الذى ذلك
من قبله فأشكره وقرأ أبو عبد الرحمن « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات
سيجعل لهم الرحمن وداً » وقال على بن الجعد حدثنا عبد العزيز ابن أبي
سلمة الماجشون حدثنى من اصدقه ان ابا بكر الصديق رضى الله عنه
كان يقول فى دعائه اسألك تمام النعمة فى الاشياء كلها والشكر لك عليها حتى
ترضى وبعد الرضى والخيرة فى جميع ماتكون فيه الخيرة بجميع ميسر
الامور كلها لامعسورها يا كريم . وقال الحسن ماانعم الله على عبد نعمة
فقال الحمد لله الا كان ماأعطى أكثر مما أخذ « قال ابن ابى الدنيا وبلغنى
عن سفيان بن عيينة انه قال هذا خطأ لايكون فعل العبد افضل من
فعل الله ثم قال وقال بعض اهل العلم انما تفسير هذا ان الرجل اذا انعم
الله عليه نعمة وهو ممن يجب عليه إن يحمده عرفه ماصنع به فيشكر الله كما
ينبغى له ان يشكره فكان الحمد له افضل قلت لايلزم الحسن ماذكر
عن ابن عيينة فان قوله الحمد لله نعمة من نعم الله والنعمة التى حمد الله عليها

أيضا نعمة من نعم الله وبعض النعم اجل من بعض فنعمة الشكر اجل
من نعمة المال والجاه والولد والزوجة ونحوها والله اعلم . وهذا لا يستلزم
ان يكون فعل العبد أفضل من فعل الله وان دل على ان فعل العبد للشكر
قد يكون افضل من بعض مفعول الله وفعل العبد هو مفعول الله ولا
ريب ان بعض مفعولاته افضل من بعض. وقال بعض اهل العلم لنعم الله
علينا فيما ذوى عنا من الدنيا افضل من نعمه علينا فيما بسط لنا منها وذلك
ان الله لم يرض لنبيه الدنيا فان أكون فيما رضى الله لنبيه واحب له احب
الى ان أكون فيما كره له وسخطه . وقال ابن ابى الدنيا وبلغنى عن بعض
العلماء انه قال ينبغى للعالم ان يحمد الله على مازوى عنه من شهوات الدنيا
كما يحمده على مااعطاه واين يقع ماأعطاه الله والحساب يأتى عليه الى ماعافاه
الله ولم يبتله به فيشغل قلبه ويتعب جوارحه فيشكر الله على سكون قلبه
وجمع همه وحدثت عن ابن ابى الحوارى قال جلس فضيل بن عياض
وسفيان بن عيينة ليلة الى الصباح يتذاكران النعم فجعل سفيان يقول انعم
الله علينا فى كذا وكذا انعم الله علينا فى كذا فعل بنا كذا. وحدثنا عبدالله بن
داوود عن سفيان فى قوله «سنستدرجهم من حيث لايعلمون » قال يسبغ
عليهم النعم ويمنعهم الشكر وقال غير سفيان كلما احدثوا ذنبا احدث لهم
نعمة. وسئل ثابت البنانى عن الاستدراج فقال ذلك مكر الله بالعباد المضيعين
وقال يونس فى تفسيرها أن العبد اذا كانت له عند الله منزلة فحفظها وبقى عليها ثم
شكر الله بما أعطاه أعطاه أشرف منها واذا هو ضيع الشكر استدرجه الله
وكان تضييعه الشكر استدراجا وقال أبو حازم نعمة الله فيما زوى عنى من
الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطانى منها انى رأيته أعطاها أقواماً فهلكوا

وكل نعمة لا تقرب من الله فهى بلية واذا رأيت الله يتابع عليك نعمه
وأنت تعصيه فاحذره وذكر كاتب الليث عن هقل عن الاوزاعى أنه وعظهم
فقال فى موعظته أيها الناس تقووا بهذه النعم التى أصبحتم فيها على الهرب
من نار الله الموقدة التى تتطلع على الأفئدة فانكم فى دار الثوى فيها قليل
وأنتم فيها مرجون خلائف من بعد القرون اللذين استقبلوا من الدنيا
أنفها وزهرتها فهم كانوا أطول منكم أعماراً وأمد أجساماً وأعظم آثاراً
فقطعوا الجبال وجابوا الصخور ونقبوا فى البلاد مؤيدين ببطش شديد
وأجسام كالعماد فما لبثت الأيام والليالى أن طوت مددهم وعفت آثارهم وأخوت
منازلهم وأنست ذكرهم فما تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزاً كانوا
يلهون آمنين لبيات قوم غافلين أو لصباح قوم نادمين ثم انكم قد علمتم
الذى نزل بساحتهم بياتاً من عقوبة الله فأصبح كثير منهم فى دارهم جاثمين
وأصبح الباقون ينظرون فى آثار نقمة وزوال نعمة ومساكن خاوية فيها
أية للذين يخافون العذاب الأليم وعبرة لمن يخشى وأصبحتم من بعدهم فى
أجل منقوص ودنيا مقبوضة وزمان قد ولى عفوه وذهب رخاؤه فلم يبق
منه الا حمات شر وصبابة كدر وأهاويل عبر وعقوبات غير وارسال فتن
وتتابع زلازل ورذلة خلف بهم ظهر الفساد فى البر والبحر ولا تكونوا
أشباها لمن خدعه الأمل وغره طول الاجل وتبلغ بطول الأمانى نسأل
الله أن يجعلنا وإياكم ممن وعى انذاره وعقل بشراه فمهد لنفسه وكان يقال الشكر
ترك المعصية وقال ابن المبارك قال سيفان ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة
والرخاء مصيبة وكان مروان بن الحكم اذا ذكر الاسلام قال بنعمة ربى وصلت
اليه لا بما قدمت يدى ولا بارادتى انى كنت خاطئا وكم من مدخل لو مت فيه

لكنت فيه نكالا فى العشيرة ووقيت السوء والمكروه فيه ورحت بنعمة
منه كبيرة وكم من نعمة لله تمسى وتصبح فى العيان وفى السريرة ودعى
عثمان بن عفان رضى الله عنه الى قوم على ريبة فانطلق ليأخذهم فتفرقوا
قبل أن يبلغهم فأعتق رقبة شكرا لله اذ لا يكون جرى على يديه خزى
مسلم قال يزيد بن هارون اخبرنا اصبغ بن يزيد أن نوحا صلى الله عليه وسلم
كان اذا خرج من الخلاء قال الحمد لله اذاقنى لذته وابقى منفعته فى جسدى
واذهب عنى اذاه فسمى عبدا شكورا وقال ابن ابى الدنيا حدثنى العباس
ابن جعفر عن الحارث بن شبل قال حدثتنا ام النعمان ان عائشة حدثتها
عن النبى صلى الله عليه وسلم انه لم يقم عن خلاء قط الا قاله . وقال رجل
لابى حازم ما شكر العينين يا أبا حازم قال ان رايت بهما خيرا اعلنته وان
رأيت بهما شرا سترته قال فما شكر الاذنين قال ان سمعت بهما خيرا
وعيته وان سمعت بهما شرا دفنته قال فما شكر اليدين قال لا تأخذ بهما
ماليس لهما ولا تمنع حقا لله هو فيهما قال فما شكر البطن قال أن يكون
اسفله طعاما واعلاه علما قال فما شكر الفرج قال الله «والذين هم لفروجهم
حافظون الا على ازواجهم أو ماملكت ايمانهم فانهم غير ملومين فمن
ابتغى وراء ذلك فاؤلئك هم العادون» قال فما شكر الرجلين قال ان علمت
ميتا تغبطه استعملت بهما عمله وان مقته رغبت عن عمله وانت شاكر لله
واما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع اعضائه فمثله كمثل رجل له كساء
فاخذ بطرفه ولم يلبسه فما ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر وذكر
عبدالله بن المبارك ان النجاشى ارسل ذات يوم الى جعفر واصحابه فدخلوا
عليه وهو فى بيت عليه خلقان جالس على التراب قال جعفر فاشفقنا منه

حين رأيناه على تلك الحال فلما رأى ما فى وجوهنا قال انى ابشركم بما يسركم
أنه جاءنى من نحو ارضكم عين لى فأخبرنى ان الله قد نصر نبيه صلى الله
عليه وسلم وأهلك عدوه وأسر فلان وفلان وفلان وقتل فلان وفلان وفلان
التقوا بواد يقال له بدر كثير الاراك كانى انظر اليه كنت ارعى به لسيدى
رجل من بنى ضمرة فقال له جعفر ما بالك جالسا على التراب ليس تحتك
بساط وعليك هذه الاخلاق قال انا نجد فيما انزل الله على عيسى صلى الله
عليه وسلم ان حقا على عباد الله ان يحدثوا لله تواضعا عندما احدث الله لهم
من نعمة فلما أحدث الله لى نصر نبيه احدثت لله هذا التواضع وقال حبيب
ابن عبيد ما ابتلى الله عبدا ببلاء الا كان له عليه فيه نعمة الا يكون اشد
منه وقال عبد الملك بن اسحق ما من الناس الا مبتلى بعافية لينظر كيف شكره
او بلية لينظر كيف صبره وقال سفيان الثورى لقد انعم الله على عبد فى حاجة
اكثر من تضرعه اليه فيها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جاءه أمر
يسر به خر لله ساجدا شكرا له عز وجل ذكره احمد وقال عبد الرحمن بن
عوف رضى الله عنه خرج علينا النبى صلى الله عليه وسلم فتوجه نحو صدقته
فدخل فاستقبل القبلة فخر ساجدا فاطال السجود فقلت يا رسول الله
سجدت سجدة حسبت ان يكون الله قد قبض نفسك فيها فقال ان
جبريل أتانى فبشرنى أن الله عز وجل يقول لك من صلى عليك صليت
عليه ومن سلم عليك سلمت عليه فسجدت لله شكراً ذكره احمد وعن
سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال خرجنا مع النبى صلى الله عليه وسلم
من مكة نريد المدينة فلما كنا قريبا من عزور أنزل ثم رفع يديه ودعى الله
ساعة ثم خر ساجداً فمكث طويلا ثم قام فرفع يديه ساعة ثم خر

ساجداً فعله ثلاثا وقال انى سألت ربى وشفعت لامتى فاعطانى ثلث
امتى فخررت ساجداً شكرا لربى ثم رفعت راسى ثم فسألت ربى لامتى
فاعطانى ثلث امتى فخررت ساجداً لربى ثم رفعت راسى فسألت ربى فاعطانى
الثلث الآخر فخررت ساجداً لربى رواه ابو داوود وذكر محمد بن اسحاق
فى كتاب الفتوح قال لما جاء المبشر يوم بدر بقتل ابى جهل استحلفه رسول
الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة ايمان بالله الذى لا اله الا هو لقد رأيته قتيلا
فحلف له فخر رسول الله صلى الله عليه وسلم ساجداً وذكر سعيد بن
منصور ان ابى بكر الصديق رضى الله عنه سجد حين جاءه قتل مسيلمة
وذكر أحمد ان عليا رضى الله عنه سجد حين وجد ذا الثديه فى الخوارج
وسجد كعب بن مالك فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم لما بشر بتوبة الله عليه
والقصة فى الصحيحين فان قيل فنعم الله دائما مستمرة على العبد فما الذى
اقتضى تخصيص النعمة الحادثة بالشكر دون الدائمة وقد تكون المستدامة
أعظم قيل الجواب من وجوه أحدها أن النعمة المتجددة تذكر بالمستدامة
والانسان موكل بالادنى الثانى ان هذه النعمه المتجددة تستدعى عبودية
مجددة وكان اسهلها على الانسان واحبها الى الله السجود شكرا له الثالث
أن المتجددة لها وقع فى النفوس والقلوب بها اعلق ولهذا يهنى بها ويعزى
بفقدها الرابع ان حدوث النعم توجب فرح النفس وانبساطها وكثيرا ما يجر
ذلك الى الاشر والبطر والسجود ذل لله وعبودية وخضوع فاذا تلقى به نعمته
لسروره وفرح النفس وانبساطها فكان جديراً بدوام تلك النعمة واذا تلقاها
بالفرح الذى لا يحبه الله والاشر والبطر كما يفعله الجهال عند ما يحدث
الله لهم من النعم كانت سريعة الزوال وشيكة الانتقال وانقلبت نقمة

وعادت استدراجا وقد تقدم أمر النجاشى فان الله اذا أحدث لعبده نعمة
احب ان يحدث لها تواضعا وقال العلاء ابن المغيرة بشرت الحسن بموت
الحجاج وهو مختف فخر لله ساجدا

فصل

ومن دقيق نعم الله على العبد التى لا يكاد يفطن لها انه يغلق عليه
بابه فيرسل الله اليه من يطرق عليه الباب يسأله شيئا من القوت
ليعرفه نعمته عليه وقال سلام بن أبى مطيع دخلت على مريض أعوده
فاذا هو يئن فقلت له أذكر المطروحين على الطريق أذكر الذين
لا مأوى لهم ولا لهم من يخدمهم قال ثم دخلت عليه بعد ذلك فسمعته
يقول لنفسه اذكرى المطروحين فى الطريق اذكرى من لا مأوى له
ولا له من يخدمه وقال عبد الله بن ابى نوح قال لى رجل على بعض
السواحل كم عاملته تبارك اسمه بما يكره فعاملك بما تحب قلت ما أحصى
ذلك كثرة قال فهل قصدت اليه فى أمر كربك فخذلك قلت لا والله
ولكنه أحسن الى وأعاننى قال فهل سألته شيئا فأعطاكه قلت وهل
منعنى شيئا سألته ما سألته شيئا قط الا أعطانى ولا استعنت به الا أعاننى
قال أرأيت لو أن بعض بنى آدم فعل بك بعض هذه الخلال ما كان جزاؤه
عندك قلت ما كنت أقدر له على مكافأة ولا جزاء قال فربك أحق وأحرى
أن تدئب نفسك له فى أداء شكره وهو المحسن قديما وحديثا اليك والله
لشكره أيسر من مكافأة عباده انه تبارك وتعالى رضى من العباد بالحمد
شكرا وقال سفيان الثورى ما كان الله لينعم على عبد فى الدنيا فيفضحه

فى الآخرة ويحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه. وقال ابن أبى
الحوارى قلت لابى معاوية ما أعظم النعمة علينا فى التوحيد نسأل الله أن
لا يسلبنا اياه قال يحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه والله أكرم
من أن ينعم بنعمة الا اتمها ويستعمل بعمل الا قبله. وقال ابن أبى الحوارى قالت
لى امرأة انا فى بيتى قد شغل قلبى قلت وما هو قالت أريد ان
أعرف نعم الله على فى طرفة عين او اعرف تقصيرى عن شكر النعمة
على فى طرفة عين قلت تريدين ما لا تهتدى اليه عقولنا . وقال ابن زيد انه
ليكون فى المجلس الرجل الواحد يحمد الله عز وجل فيقضى لذلك المجلس
حوائجهم كلهم . قال وفى بعض الكتب الذى انزل الله تعالى انه قال سروا
عبدى المؤمن فكان لا يأتيه شىء الا قال الحمد لله الحمد لله ما شاء الله قال
روعوا عبدى المؤمن فكان لا يطلع عليه طليعة من طلائع المكروه الا قال
الحمد لله الحمد لله فقال الله تبارك وتعالى ان عبدى يحمدنى حين روعته كما
يحمدنى حين سررته ادخلوا عبدى دار عزى كما يحمدنى على كل حالاته . وقال
وهب عبد الله عابد خمسين عاما فأوحى الله اليه انى قد غفرت لك قال اى
رب وما تغفر لى ولم أذنب فأذن الله لعرق فى عنقه يضرب عليه فلم ينم ولم
يصل ثم سكن فنام ثم أتاه ملك فشكا اليه فقال ما لقيت من ضربان
العرق فقال الملك ان ربك يقول ان عبادتك خمسين سنة تعدل سكون
العرق . وذكر ابن أبى الدنيا ان داود قال يارب اخبرنى ما أدنى نعمك على
فأوحى الله اليه ياداود تنفس فتنفس قال هذا ادنى نعمى عليك

فصل

وبهذا يتبين معنى الحديث الذى رواه أبو داود من حديث زيد بن
ثابت وابن عباس ان الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو
غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من اعمالهم . والحديث
الذى فى الصحيح لن ينجى أحداً منكم عمله قالوا ولا أنت يارسول الله
قال ولا أنا الا ان يتغمدنى الله برحمة منه وفضل. فان أعمال العبد لا توافى
نعمة من نعم الله عليه. وأما قول بعض الفقهاء ان من حلف أن يحمد الله
بأفضل أنواع الحمد كان بر يمينه أن يقول الحمد لله حمدا يوافى نعمه ويكافىء
مزيده فهذا ليس بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد
من الصحابة وانما هو اسرائيلى عن آدم وأصح منه الحمد لله غير مكفى
ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا. ولا يمكن حمد العبد وشكره أن يوافى
نعمة من نعم الله فضلا عن موافاته جميع نعمه ولا يكون فعل العبد وحمده
مكافيا للمزيد ولكن يحمل على وجه يصح وهو ان الذى يستحقه الله
سبحانه من الحمد حمد يكون موافيا لنعمه ومكافياً لمزيده وان لم يقدر
العبد أن يأتى به كما اذا قال الحمد لله ملء السموات وملء الارض وملء
ما بينهما وملء ماشئت من شىء بعد وعدد الرمال والتراب والحصى والقطر
وعدد أنفاس الخلائق وعدد ماخلق الله وما هو خالق فهذا إخبار عما
يستحقه من الحمد لا عما يقع من العبد من الحمد

فصل

وقال أبو المليح قال موسى يارب ما أفضل الشكر قال ان تشكرنى

على كل حال. وقال بكر بن عبدالله قلت لاخ لى اوصنى فقال ما أدرى
ما أقول غير انه ينبغى لهذا العبد أن لا يفتر من الحمد والاستغفار فان ابن
آدم بين نعمة وذنب ولا تصلح النعمة الا بالحمد والشكر ولا يصلح
الذنب الا بالتوبة والاستغفار فأوسعنى علما ما شئت. وقال عبد العزيز
ابن أبى داود رأيت فى يد محمد بن واسع قرحة فكأنه رأى ماشق على
منها فقال لى أتدرى ماذا لله على فى هذه القرحة من نعمة حين لم يجعلها فى
حدقتى ولا طرف لسانى ولا على طرف ذكرى فهانت على قرحته
وروى الجريرى عن أبى الورد عن الجلاح عن معاذ بن جبل رضى الله عنه
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى على رجل وهو يقول اللهم انى أسألك
تمام النعمة فقال ابن آدم هل تدرى ماتمام النعمة قال يارسول الله دعوت
دعوة أرجو بها الخير فقال ان تمام النعمة فوز من النار ودخول
الجنة وقال سهم بن سلامة حدثت ان الرجل اذا ذكر اسم الله على أول
طعامه وحمده على آخره لم يسأل عن نعيم ذلك الطعام

فصل

ويدل على فضل الشكر على الصبر ان الله سبحانه يحب أن يسأل
العافية وما يسأل شيئا احب اليه من العافية كما فى المسند عن أبى صالح عن
أبى هريرة رضى الله عنه قال قام أبو بكر رضى الله عنه على المنبر ثم قال
سلوا الله العافية فانه لم يعط عبدا بعد اليقين خيرا من العافية.
وفى حديث آخر ان الناس لم يعطوا فى هذه الدنيا شيئا افضل من العفو
والعافية فسلوهما الله عز وجل. وقال لعمه العباس ياعم أكثر الدعاء بالعافية

وفى الترمذى قلت يارسول الله علمنى شيئا أسأله الله قال سل الله العافية فمكثت أياما ثم جئت فقلت علمنى شيئا أسأله الله فقال لى ياعباس ياعم رسول الله سل الله العافية فى الدنيا والآخرة. وقال فى دعائه يوم الطائف ان لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى غير ان عافيتك اوسع لى. فلاذ بعافيته كما استعاذ بها فى قوله اعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك وفى حديث آخر سلوا الله العفو والعافية والمعافاة. وهذا السؤال يتضمن العفو عما مضى والعافية فى الحال والمعافاة فى المستقبل بدوام العافية واستمرارها وكان عبد الاعلى التيمى يقول اكثروا من سؤال الله العافية فان المبتلى وان اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذى لا يأمن البلاء وما المبتلون اليوم الا من اهل العافية بالامس وما المبتلون بعد اليوم الا من أهل العافية اليوم ولو كان البلاء يجرّ الى خير ما كنا من رجال البلاء انه رب بلاء قد اجهد فى الدنيا وأخزى فى الآخرة فما يؤمن من أطال المقام على معصية الله أن يكون قد بقى له فى بقية عمره من البلاء ما يجهده فى الدنيا ويفضحه فى الآخرة ثم يقول بعد ذلك الحمد لله الذى ان نعد نعمه لا نحصيها وان نداب له عملا لا نجزيها وان نعمر فيها لا نبليها ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل يسأل الله الصبر فقال لقد سألت البلاء فاسأل العافية وفى صحيح مسلم انه صلى الله عليه وسلم عاد رجلا قد حفت أى هزل فصار مثل الفرخ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هل كنت تدعو الله بشىء أو تسأله اياه قال نعم كنت أقول اللهم ما كنت معاقبنى به فى الاخرة فعجله لى فى الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحانه لا تطيقه ولا تستطيعه افلا قلت اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الاخرة

حسنة وقنا عذاب النار فدعا الله له فشفاه. وفى الترمذى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال دعاء حفظته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ادعه اللهم اجعلنى أعظم شكرك واكثر ذكرك واتبع نصيحتك واحفظ وصيتك. وقال شيبان كان الحسن اذا جلس مجلسا يقول لك الحمد بالاسلام ولك الحمد بالقرآن ولك الحمد بالاهل والمال بسطت رزقنا وأظهرت امننا وأحسنت معافاتنا ومن كل ما سألناك أعطيتنا فلك الحمد كثيرا كما تنعم كثيرا اعطيت خيرا كثيرا وصرفت شرا كثيرا فلوجهك الجليل الباقى الدائم الحمد. وكان بعض السلف يقول اللهم ما أصبح بنا من نعمة أو عافية أو كرامة فى دين أو دنيا جرت علينا فيما مضى وهى جارية علينا فيما بقى فانها منك وحدك لا شريك لك فلك الحمد بذلك علينا ولك المن ولك الفضل ولك الحمد عدد ما أنعمت به علينا وعلى جميع خلقك لا اله الا انت. وقال مجاهد اذا كان ابن عمر فى سفر فطلع الفجر رفع صوته ونادى سمع سامع بحمد الله ونعمه وحسن بلائه علينا ثلاثا اللهم صاحبنا فافضل علينا عائذ بالله من النار ولا حول ولا قوة الا بالله ثلاثا. وذكر الامام احمد ان الله سبحانه أوحى الى موسى بن عمران عليه السلام ياموسى كن يقظان مرتادا لنفسك اخدانا وكل خدن لا يواتيك على مسرتى فلا تصحبه فانه عدو لك وهو يقسى قلبك واكثر ذكرى حتى تستوجب الشكر وتستكمل المزيد وقال الحسن خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى فدبوا على وجه الارض منهم الاعمى والاصم والمبتلى فقال آدم يارب الا سويت بين ولدى. قال ياآدم انى اريد ان أشكر وفى السنن عنه صلى الله عليه وسلم من قال حين يصبح

اللهم ماأصبح بى من نعمة أو باحد من خلقك فمنك وحدك لاشريك لك
فلك الحمد ولك الشكر الا ادى شكر ذلك اليوم ومن قال ذلك حين
يمسى فقد ادى شكر ليلته. ويذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم من ابتلى
فصبر وأعطى فشكر وظلم فغفر وظَلم فاستغفر اولئك لهم الامن وهم
مهتدون. ويذكر عنه صلى الله عليه وسلم انه أوصى رجلا بثلاث فقال اكثر
ذكر الموت يشغلك عما سواه وعليك بالدعاء فانك لاتدرى متى يستجاب
لك وعليك بالشكر فان الشكر زيادة ويذكر عنه صلى الله عليه وسلم انه
كان اذا اكل قال الحمد لله الذى أطعمنى وسقانى وهدانى وكل بلاء حسن
ابلانى الحمد لله الرازق ذى القوة المتين اللهم لاتنزع منا صالحا اعطيتنا
ولا صالحا رزقتنا واجعلنا لك من الشاكرين. ويذكر عنه صلى الله عليه
وسلم انه كان اذا اكل قال الحمد لله الذى اطعم وسقى وسوغه وجعل له
مخرجا. وكان عروة بن الزبير اذا أتى بطعام لم يزل مخمرا حتى يقول هذه
الكلمات الحمد لله الذى هدانا واطعمنا وسقانا ونعمنا الله اكبر اللهم الفتنا
نعمتك ونحن بكل شر فأصبحنا وامسينا منها بخير نسألك تمامها وشكرها
لاخير الا خيرك ولااله غيرك اله الصالحين ورب العالمين الحمد لله لا اله
الا الله ماشاء الله لا قوة الا بالله اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب
النار. وقال وهب بن منبه رؤس النعم ثلاثة فاولها نعمة الاسلام التى لاتتم
نعمة الا بها والثانية نعمة العافية التى لاتطيب الحياة الا بها والثالثة نعمة
الغنى التى لايتم العيش الا به. وقدم سعيد الجريرى من الحج فجعل يقول
أنعم الله علينا فى سفرنا بكذا وكذا ثم قال تعداد النعم من الشكر.
ومر وهب بمبتلى أعمى مجذوم مقعد عريان به وضح وهو يقول الحمد لله

على نعمه فقال رجل كان مع وهب أى شىء بقى عليك من النعمة تحمد الله
عليها فقال له المبتلى ارم ببصرك الى اهل المدينة فانظر الى كثرة اهلها افلا
احمد الله انه ليس فيها احد يعرفه غيرى. ويذكر عن النبى صلى الله عليه
وسلم انه قال اذا أنعم الله على عبد نعمة فحمده عندها فقد ادى شكرها.
وذكر على بن ابى طالب رضى الله عنه ان بختنصر اتى بدانيال فامر به فحبس
فى جب واضرى اسدين ثم خلى بينهما وبينه ثم فتح عنه بعد خمسة ايام
فوجده قائما يصلى والاسدان فى ناحية الجب لم يعرضا له فقال له ماقلت
حين دفع عنك قال قلت الحمد لله الذى لاينسى من ذكره والحمد لله الذى
لايخيب من رجاه والحمد لله الذى لايكل من توكل عليه الى غيره والحمد
لله الذى هو ثقتنا حين تنقطع عنا الحيل والحمد لله الذى هو رجاؤنا حين
يسوء ظننا باعمالنا والحمد لله الذى يكشف عناضرنا بعد كربتنا والحمد لله
الذى يجزى بالاحسان احسانا والحمد لله الذى يجزى بالصبر نجاة. ويذكر
عنه صلى الله عليه وسلم انه كان اذا نظر فى المرآة قال الحمد لله الذى احسن
خلقى وخلقى وزان منى ماشان من غيرى. وقال ابن سيرين كان ابن عمر
يكثر النظر فى المرآة وتكون معه فى الاسفار فقلت له ولم قال انظر فما
كان فى وجهى زين فهو فى وجه غيرى شين أحمد الله عليه. وسئل ابو بكر
ابن أبى مريم ماتمام النعمة قال أن تضع رجلا على الصراط ورجلا فى الجنة
وقال بكر بن عبد الله يا ابن آدم ان أردت أن تعرف قدر ماأنعم الله عليك
فغمض عينيك وقال مقاتل فى قوله واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة
قال اما الظاهرة فالاسلام وأما الباطنة فستره عليكم بالمعاصى. وقال

ابن شوذب قال عبدالله يعنى ابن مسعود رضى الله عنه ان الله على أهل النار
منة لو شاء أن يعذبهم باشد من النار لعذبهم . وقال أبو سليمان الدارانى
جلساء الرحمن يوم القيامة من جعل فيه خصالا الكرم والسخاء والحلم
والرأفة والرحمة والشكر والبر والصبر . وقال أبو هريرة رضى الله عنه
من رأى صاحب بلاء فقال الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به وفضلنى
عليك وعلى جميع خلقه تفضيلا فقد ادى شكر تلك النعمة . وقال عبدالله
ابن وهب سمعت عبد الرحمن بن زيد يقول الشكر يأخذ بجذم الحمد واصله
وفرعه قال ينظر فى نعم الله فى بدنه وسمعه وبصره ويديه ورجليه وغير
ذلك ليس من هذا شىء الا فيه نعمة من الله حق على العبد ان يعمل فى
النعمة التى هى فى بدنه لله فى طاعته ونعمة أخرى فى الرزق وحق عليه أن
يعمل لله فيما أنعم عليه به من الرزق بطاعته فمن عمل بهذا كان قد أخذ بجذم
الشكر وأصله وفرعه . وقال كعب ما أنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا
فشكرها لله وتواضع بها لله الا أعطاه الله نفعها فى الدنيا ورفع له بها
درجة فى الاخرى وما أنعم الله على عبد نعمة فى الدنيا فلم يشكرها لله
ولم يتواضع بها الا منعه الله نفعها فى الدنيا وفتح له طبقا من النار يعذبه
ان شاء أو يتجاوز عنه . وقال الحسن من لا يرى لله عليه نعمة الا فى
مطعم أو مشرب أو لباس فقد قصر علمه وحضر عذابه . وقال الحسن
يوما لبكر المزنى هات يا أبا عبد الله دعوات لاخوانك فحمد الله واثنى
عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال والله ما أدرى اى النعمتين
افضل على وعليكم أنعمة المسلك ام نعمة المخرج اذا أخرجه منا قال
الحسن انها لمن نعمة الطعام . وقالت عائشة رضى الله عنها ما من عبد

اناء القراح فيدخل بغير أذى ويخرج الاذى الا وجب عليه الشكر قال
الحسن يالها نعمة كل لذة وتخرج مسرحا لقد كان ملك من ملوك هذه
القرية يرى الغلام من غلمانه يأتى الحب فيكتال منه ثم يجرجر قائما فيقول
ياليتنى مثلك مايشرب حتى يقطع عنه العطاش فاذا شرب كان له فى تلك
الشربة موتات يالها من نعمة . وكتب بعض العلماء الى اخ له أما بعد
فقد أصبح بنا من نعم الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه فما ندرى
أيهما نشكر اجميل ما يسر أم قبيح ما ستر . وقيل للحسن هاهنا
رجل لا يجالس الناس فجاء اليه فسأله عن ذلك فقال انى أمسى
واصبح بين ذنب ونعمة فرأيت أن أشغل نفسى عن الناس بالاستغفار
من الذنب والشكر لله على النعمة فقال له الحسن أنت عندى يا عبد الله
افقه من الحسن فالزم ما أنت عليه . وقال ابن المبارك سمعت على بن صالح
يقول فى قوله تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم قال أى من طاعتى . والتحقيق
ان الزيادة من النعم وطاعته من أجل نعمه . وذكر ابن ابى الدنيا ان محارب
ابن دثار كان يقول بالليل ويرفع صوته احيانا انا الصغير الذى ربيته فلك
الحمد وانا الضعيف الذى قويته فلك الحمد وانا الفقير الذى أغنيته فلك الحمد
وأنا الصعلوك الذى مولته فلك الحمد وأنا العزب الذى زوجته فلك الحمد
وأنا الساغب الذى أشبعته فلك الحمد وانا العارى الذى كسوته فلك الحمد
وأنا المسافر الذى صاحبته فلك الحمد وانا الغائب الذى رددته فلك الحمد
وانا الراجل الذى حملته فلك الحمد وانا المريض الذى شفيته فلك الحمد
وأنا السائل الذى اعطيته فلك الحمد وأنا الداعى الذى اجبته فلك الحمد ربنا

ولك الحمد حمداً كثيراً . وكان بعض الخطباء يقول فى خطبته اختط لك الانف فأقامه واتمه فاحسن تمامه ثم أدار منك الحدقة فجعلها بجفون مطبقة وبأشفار معلقة ونقلك من طبقة الى طبقة وحنن عليك قلب الوالدين برقة ومقة. فنعمه عليك مورقة واياديه بك محدقة . وكان بعض العلماء يقول فى قوله تعالى «وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها» سبحان من لم يجعل لحد معرفة نعمه الا العلم بالتقصير عن معرفتها كما لم يجعل لحد ادرا كه أكثر من العلم انه لايدرك فجعل معرفة نعمه بالتقصير عن معرفتها شكراً كما شكر علم العالمين أنهم لايدركونه فجعله ايمانا علما منه ان العباد لايتجاوزون ذلك . وقال عبد الله بن المبارك اخبرنا مثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول خصلتان من كانتا فيه كتبه الله صابراً شاكراً ومن لم يكونا فيه لم يكتبه الله صابرا شاكراً من نظر فى دينه الى من هو فوقه فاقتدى به ومن نظر فى دنياه الى من هو دونه فحمد الله على مافضله به عليه كتبه الله صابرا شاكراً ومن نظر فى دينه الى من هو دونه ونظر فى دنياه الى من هو فوقه فأسف على مافاته منه لم يكتبه الله صابراً شاكراً . وبهذا الاسناد عن عبد الله بن عمر وموقوفا عليه اربع خصال من كن فيه بنى الله له بيتاً فى الجنة من كان عصمة أمره لااله الا الله واذا أصابته مصيبة قال انا لله وانا اليه راجعون واذا أعطى شيئاً قال الحمد لله واذا أذنب قال استغفر الله . وقال ابن المبارك عن شبل عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى «انه كان عبداً شكورا» قال لم يأكل شيئاً الا حمد الله عليه ولم يشرب شرابا قط الا حمد الله عليه ولم يمش مشياً قط الا حمد الله عليه ولم يبطش بشىء قط الا حمد الله

عليه فأثنى الله عليه انه كان عبداً شكوراً . وقال محمد بن كعب كان نوح اذا اكل قال الحمد لله واذا شرب قال الحمد لله واذا لبس قال الحمد لله واذا ركب قال الحمد لله فسماه الله عبداً شكورا . وقال ابن ابى الدنيا بلغنى عن بعض الحكماء قال لو لم يعذب الله على معصيته لكان ينبغى أن لا يعصى لشكر نعمته

فصل

ولله تبارك وتعالى على عبده نوعان من الحقوق لاينفك منهما أحدهما أمره ونهيه الذى هو محض حقه عليه والثانى شكر نعمه التى أنعم بها عليه فهو سبحانه يطالبه بشكر نعمه وبالقيام بأمره فشهد الواجب عليه لا يزال يشهده تقصيره وتفريطه وانه محتاج الى عفو الله ومغفرته فان لم يتداركه بذلك هلك وكلما كان أفقه فى دين الله كان شهوده للواجب عليه أتم وشهوده لتقصيره أعظم وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة بل بالقيام مع ذلك بالاوامر المحبوبة لله واكثر الديانين لايعبأون منها الا بما شاركهم فيه عموم الناس وأما الجهاد والامر بالمعروف والنهى عن المنكر والنصيحة لله ورسوله وعباده ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه فهذه الواجبات لاتخطر ببالهم فضلا عن ان يريدوا فعلها فضلا عن ان يفعلوها وأقل الناس دينا وأمقتهم الى الله من ترك هذه الواجبات وان زهد فى الدنيا جميعها وقل ان ترى منهم من يحمر وجهه ويمعره لله ويغضب لحرماته ويبذل عرضه فى نصرة دينه وأصحاب الكبائر احسن حالا عند الله من هؤلاء وقد ذكر ابو عمر وغيره ان الله تعالى أمر ملكا من الملائكة أن يخسف بقرية فقال يارب ان فيهم فلانا الزاهد العابد قال به فابدأ واسمعنى صوته انه لم يتمعر وجهه فى يوم قط

فصل

وأما شهود النعمة فانه لايدع له رؤية حسنة من حسناته أصلا ولو عمل أعمال الثقلين فان نعم الله عليه سبحانه اكثر من أعماله وادنى نعمة من نعمه تستنفد عمله فينبغى للعبد ألا يزال ينظر فى حق الله عليه . قال الامام احمد حدثنا حجاج حدثنا جرير بن حازم عن وهب قال بلغنى ان نبى الله موسى عليه السلام مرّ برجل يدعو ويتضرع فقال يارب ارحمه فانى قد رحمته فأوحى الله اليه لو دعانى حتى تنقطع قواه ما استجبت له حتى ينظر فى حقى عليه . فمشاهدة العبد النعمة والواجب لاتدع له حسنة يراها ولا يزال مزريا على نفسه ذاما لها وما أقربه من الرحمة اذا أعطى هذين المشهدين حقهما والله المستعان

الباب الحادي والعشرون

فى الحكم بين الفريقين ، والفصل بين الطائفتين

فنقول كل أمرين طلبت الموازنة بينهما ومعرفة الراجح منهما على المرجوح فان ذلك لايمكن الا بعد معرفة كل منهما . وقد ذكرنا حقيقة الصبر وأقسامه وأنواعه ونذكر حقيقة الشكر وماهيته . قال فى الصحاح الشكر الثناء على المحسن بما اولاكه من المعروف يقال شكرته وشكرت له وباللام افصح . وقوله تعالى « لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » يحتمل أن يكون مصدرا كالقعود وأن يكون جمعا كالبرود والكفور والشكران خلاف الكفران وتشكرت له مثل شكرت له والشكور من الدواب ما يكفيه العلف القليل واشتكرت السماء اشتد وقع مطرها واشتكر

الضرع امتلأ لبناً تقول منه شكرت الناقة بالكسر تشكر شكرا فهى شكرة وشكرت الشجرة تشكر شكرا اذا خرج منها الشكير وهو ماينبت حول الشجرة من أصلها فتأمل هذا الاشتقاق وطابق بينه وبين الشكر المأمور به وبين الشكر الذى هو جزاء الرب الشكور كيف تجد فى الجميع معنى الزيادة والنماء. ويقال أيضا دابة شكور اذا أظهرت من السمن فوق ماتعطى من العلف. وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان لا يكون شكورا إلا بمجموعها احدها اعترافه بنعمة الله عليه والثانى الثناء عليه بها والثالث الاستعانة بها على مرضاته. وأما قول الناس فى الشكر فقالت طائفة هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع. وقيل الشكر هو الثناء على المحسن بذكر احسانه اليه فشكر العبد ثناؤه عليه بذكر احسانه اليه. وقيل شكر النعمة مشاهدة المنة وحفظ الحرمة والقيام بالخدمة. وقيل شكر النعمة ان ترى نفسك فيها طفيلياً. وقيل الشكر معرفة العجز عن الشكر. ويقال الشكر على الشكر أتم من الشكر وذلك ان ترى شكرك بتوفيقه وذلك التوفيق من أجلّ النعم عليك وتشكر على الشكر ثم تشكره على الشكر الا ترى نفسك للنعمة أهلا. وقيل الشكر استفراغ الطاقة فى الطاعة. وقيل الشاكر الذى يشكر على الموجود والشكور الذى يشكر على المفقود. وقيل الشاكر الذى يشكر على الرفد والشكور الذى يشكر على الرد. وقيل الشاكر الذى يشكر على النفع والشكور الذى يشكر على المنع وقيل الشاكر الذى يشكر على العطاء والشكور الذى يشكر على البلاء وقال الجنيد كنت بين يدى السرى ألعب وانا ابن سبع سنين وبين جماعة يتكلمون فى الشكر فقال لى ياغلام ما الشكر فقلت الا تعصى الله بنعمه

فقال يوشك ان يكون حظك من الله لسانك. فلا أزال ابكى على هذه
الكلمة التى قالها السرى. وقال الشبلى الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعم
وهذا ليس بجيد بل من تمام الشكر ان يشهد النعمة من المنعم. وقيل الشكر
قيد الموجود وصيد المفقود. وقال أبو عثمان شكر العامة على المطعم والملبس
وشكر الخواص على مايرد على قلوبهم من المعانى. وحبس السلطان رجلا
فأرسل اليه صاحبه اشكر الله فضرب فارسل اليه اشكر الله فجيء بمحبوس
مجوسى مبطون فقيد وجعل حلقة من قيده فى رجله وحلقة فى الرجل
المذكور فكان المجوسى يقوم بالليل مرات فيحتاج الرجل ان يقف على
راسه حتى يفرغ فكتب اليه صاحبه اشكر الله فقال له الى متى تقول اشكر
الله وأى بلاء فوق هذا فقال لو وضع الزنار الذى فى وسطه فى وسطك
كما وضع القيد الذى فى رجله فى رجلك ماذا كنت تصنع فاشكر الله.
ودخل رجل على سهل بن عبد الله فقال اللص دخل دارى وأخذ متاعى
فقال اشكر الله فلو دخل اللص قلبك وهو الشيطان وافسد عليك التوحيد
ماذا كنت تصنع. وقيل شكر التلذذ بثنائه على مالم يستوجبه من عطائه.
وقيل اذا قصرت يدك عن المكافاة فليطل لسانك بالشكر. وقيل أربعة
لاثمرة لها مشاورة الاصم ووضع النعمة عند من لايشكرها والبذر فى
السباخ والسراج فى الشمس. والشكر يتعلق بالقلب واللسان والجوارح
فالقلب للمعرفة والمحبة واللسان للثناء والحمد والجوارح لاستعمالها فى طاعة
المشكور وكفها عن معاصيه وقال الشاعر

افادتكم النعماء عندى ثلاثة ... يدى ولسانى والضمير المحجبا

والشكر أخص بالافعال والحمد أخص بالاقوال وسبب الحمد أعم

من سبب الشكر ومتعلق الشكر ومابه الشكر أعم مما به الحمد فما يحمد
الرب تعالى عليه أعم مما يشكر عليه فانه يحمد على اسمائه وصفاته وافعاله
ونعمه ويشكر على نعمه ومايحمد به أخص مما يشكر به فانه يشكر بالقلب
واللسان والجوارح ويحمد بالقلب واللسان

فصل

اذا عرف هذا فكل من الصبر والشكر داخل فى حقيقة الآخر
لايمكن وجوده الا به وانما يعبر عن أحدهما باسمه الخاص به باعتبار الاغلب
عليه والاظهر منه والا فحقيقة الشكر انما يلتئم من الصبر والارادة والفعل
فان الشكر هو العمل بطاعة الله وترك معصيته والصبر أصل ذلك فالصبر
على الطاعة وعن المعصية هو عين الشكر واذا كان الصبر مأمورا به فاداؤه
هو الشكر. فان قيل فهذا يفهم منه اتحاد الصبر والشكر وانهما اسمان
لمسمى واحد وهذا محال عقلا ولغة وعرفا وقد فرق الله سبحانه بينهما قيل
بل هما معنيان متغايران وانما بينا تلازمهما وافتقار كل واحد منهما فى وجود
ماهيته الى الآخر ومتى تجرد الشكر عن الصبر بطل كونه شكرا واذا
تجرد الشكر عن الصبر بطل كونه صبرا اما الاول فظاهر وأما الثانى اذا
تجرد عن الشكر كان كفورا ومنافاة الكفور للصبر أعظم من منافاة
السخوط فان قيل بل هاهنا قسم آخر وهو الا يكون كفورا ولاشكورا
بل صابرا على مضض وكراهة شديدة فلم يأت بحقيقة الشكر ولم يخرج
عن ماهية الصبر قيل كلامنا فى الصبر المأمور به الذى هو طاعة لا فى الصبر
الذى هو تجلد كصبر البهايم وصبر الطاعة لايأتى به الا شاكر ولكن

اندرج شكره فى صبره فكان الحكم للصبر كما اندرج صبر الشكور فى شكره فكان الحكم للشكر فمقامات الايمان لاتعدم بالتنقل فيها بل تندرج وينطوى الادنى فى الاعلى كما يندرج الايمان فى الاحسان وكما يندرج الصبر فى مقامات الرضى لا أن الصبر يزول ويندرج الرضى فى التفويض ويندرج الخوف والرجاء فى الحب لا أنهما يزولان . فالمقدور الواحد يتعلق به الشكر والصبر سواء كان محبوبا أو مكروها فالفقر مثلا يتعلق به الصبر وهو أخص به لما فيه من الكراهة ويتعلق به الشكر لما فيه من النعمة . فمن غلب شهود نعمته وتلذذ به واستراح واطمأن اليه عده نعمة يشكر عليها ومن غلب شهود ما فيه من الابتلاء والضيق والحاجة عده بلية يصبر عليها وعكسه الغنا. على ان الله سبحانه ابتلى العباد بالنعم كما ابتلاهم بالمصائب وعد ذلك كله ابتلاء فقال « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » وقال « فاما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فاكرمه ونعمه فيقول ربى اكرمن واما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول رب اهانن » وقال « انا جعلنا ماعلى الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » وقال « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم أحسن عملا » وقال « وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا » فأخبر سبحانه انه خلق العالم العلوى والسفلى وقدر أجل الخلق وخلق ماعلى الارض للابتلاء والاختبار وهذا الابتلاء انما هو ابتلاء صبر العباد وشكرهم فى الخير والشر والسراء والضراء فالابتلاء من النعم من الغناء والعافية والجاه والقدرة وتاتى الاسباب أعظم الابتلائين والصبر على طاعة الله أشق الصبرين كما قال الصحابة رضى الله عنهم ابتلينا

بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر. والنعمة بالفقر والمرض وقبض الدنيا واسبابها واذى الخلق قد تكون اعظم النعمتين. وفرض الشكر عليها اوجب من الشكر على اضدادها فالرب تعالى يبتلى بنعمه وينعم بابتلائه. غير أن الصبر والشكر حالتان لازمتان للعبد فى أمر الرب ونهيه وقضائه وقدره لايستغنى عنهما طرفة عين. والسؤال عن ايهما أفضل كالسؤال عن الحس والحركة ايهما افضل وعن الطعام والشراب ايهما افضل وعن خوف العبد ورجائه ايهما أفضل. فالمأمور لايؤدى الا بصبر وشكر والمحظور لايترك الا بصبر وشكر. وأما المقدور الذى يقدر على العبد من المصائب فمتى صبر عليه اندرج شكره فى صبره كما يندرج صبر الشاكر فى شكره. ومما يوضح هذا ان الله سبحانه امتحن العبد بنفسه وهواه وأوجب عليه جهادهما فى الله فهو فى كل وقت فى مجاهدة نفسه حتى تأتى بالشكر المأمور به ويصبر عن الهوى المنهى عن طاعته فلا ينفك العبد عنهما غنيا كان او فقيرا معافى أو مبتلى. وهذه هى مسئلة الغنى الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل وللناس فيها ثلاثة اقوال وهى التى حكاها أبو الفرج بن الجوزى وغيره فى عموم الصبر والشكر أيهما افضل وقد احتجت كل فرقة بحجج وأدلة على قولها والتحقيق أن يقال أفضلهما اتقاهما لله تعالى فان فرض استواؤهما فى التقوى استويا فى الفضل فان الله سبحانه لم يفضل بالفقر والغنى كما لم يفضل بالعافية والبلاء وانما فضل بالتقوى كما قال تعالى ان اكرمكم عند الله أتقاكم وقد قال صلى الله عليه وسلم لافضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى الا بالتقوى الناس من آدم وآدم من تراب. والتقوى مبنية على

اصلين الصبر والشكر وكل من الغنى والفقير لابد له منهما فمن كان صبره
وشكره اتم كان افضل فان قيل فاذا كان صبر الفقير أتم وشكر الغنى أتم
فايهما أفضل قيل اتقاهما لله فى وظيفته ومقتضى حاله ولا يصح التفضيل
بغير هذا البتة. فان الغنى قديكون اتقى لله فى شكره من الفقير فى صبره
وقد يكون الفقير اتقى لله فى صبره من الغنى فى شكره فلا يصح أن
يقال هذا بغناه أفضل ولا هذا بفقره أفضل ولا يصح أن يقال هذا
بالشكر أفضل من هذا بالصبر ولا بالعكس. لانهما مطيتان للايمان لابد
منهما. بل الواجب أن يقال أقومهما بالواجب والمندوب هو الافضل فان
التفضيل تابع لهذين الامرين كما قال تعالى فى الاثر الالهى وما تقرب الى
عبدى بمثل مداومة ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل
حتى أحبه. فأى الرجلين كان اقوم بالواجبات واكثر نوافل كان أفضل. فان
قيل فقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يدخل فقراء أمتى الجنة
قبل أغنيائهم بنصف يوم وذلك خمسمائة عام قيل هذا لايدل على فضلهم
على الاغنياء فى الدرجة وعلو المنزلة وان سبقوهم بالدخول فقد يتأخر الغنى
والسلطان العادل فى الدخول لحسابه فاذا دخل كانت درجته أعلى ومنزلته
أرفع كسبق الفقير القفل فى المضائق وغيرها ويتأخر صاحب الاحمال
بعده. فان قيل فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم للفقراء لما شكوا اليه زيادة
عمل الاغنياء عليهم بالعتق والصدقة الا أدلكم على شىء اذا فعلتموه
ادركتم به من سبقكم فدلهم على التسبيح والتحميد والتكبير عقب كل
صلاة فلما سمع الاغنياء ذلك عملوا به فذكروا ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم
فقال ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. وهذا يدل على ترجيح حال الغنى

الشاكر. قيل هذا حجة للقول الذى نصرناه وهو ان أفضلهما اكثرهما نوافل
فان استويا وهاهنا قدساوى الاغنياء الفقراء فى أعمالهم المفروضة والنافلة
وزادوا عليهم بنوافل العتق والصدقة وفضلوهم بذلك فساووهم فى صبرهم
على الجهاد والاذى فى الله والصبر على المقدور وزادوا عليهم بالشكر بنوافل
المال فلو كان للفقراء بصبرهم نوافل تزيد على نوافل الاغنياء لفضلوهم
بها. فان قيل فان النبى صلى الله عليه وسلم عرضت عليه مفاتيح كنوز
الدنيا فردها وقال بل أشبع يوما وأجوع يوما وقال هشام بن عروة عن
أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم
من الدنيا ولم يشبع من خبز البر ومات ودرعه مرهونة عند يهودى على
طعام أخذه لاهله وقال الامام احمد حدثنا وكيع حدثنا الاعمش عن عمارة
ابن القعقاع عن أبى زرعة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا وقال الامام احمد
حدثنا اسماعيل بن محمد حدثنا عباد بن عباد حدثنا مجالد بن سعيد عن الشعبى
عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها قالت دخلت على امرأة من الانصار
فرأت فراش النبى صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية فرجعت الى منزلها
فبعثت الى بفراش حشوه الصوف فدخل على رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال ماهذا فقلت فلانة الانصارية دخلت على فرأت فراشك
فبعثت الى بهذا فقال رديه فلم أرده وأعجبنى أن يكون فى بيتى حتى
قال لى ذلك ثلاث مرات فقال ياعائشة رديه فوالله لو شئت لاجرى الله معى
جبال الذهب والفضة فرددته. ولم يكن الله سبحانه ليختار لرسوله الا الافضل
هذا مع انه لو أخذ الدنيا لانفقها كلها فى مرضاة الله ولكان شكره بها

فوق شكر جميع العالمين. قيل احتج بحال رسول الله صلى الله عليه وسلم
كل واحدة من الطائفتين والتحقيق ان الله سبحانه وتعالى جمع له بين
المقامين كليهما على أتم الوجوه وكان سيد الاغنياء الشاكرين وسيد الفقراء
الصابرين فحصل له من الصبر على الفقر مالم يحصل لاحد سواه ومن
الشكر على الغنى مالم يحصل لغنى سواه ومن تأمل سيرته وجد الامر كذلك
فكان صلى الله عليه وسلم اصبر الخلق فى مواطن الصبر وأشكر الخلق فى
مواطن الشكر وربه تعالى كمل له مراتب الكمال فجعله فى أعلى رتب
الاغنياء الشاكرين وفى أعلى مراتب الفقراء الصابرين قال تعالى «ووجدك
عائلا فاغنى» واجمع المفسرون ان العائل هو الفقير يقال عال الرجل يعيل
اذا افتقر واعال يعيل اذا صار ذا عيال مثل لبن واثمر واثرى اذا صار ذا لبن
وثمر وثروة وعال يعول اذا جار ومنه قوله تعالى ذلك أدنى ان لا تعولوا
وقيل المعنى الا تكثر عيالكم والقول هو الاول لوجوه احدها انه لا يعرف
فى اللغة عال يعول اذا كثر عياله وانما المعروف فى ذلك أعال يعيل وأما
عال يعول فهو بمعنى الجور ليس الا هذا الذى ذكره أهل اللغة قاطبة.
الثانى انه سبحانه قابل ذلك بالعدل الذى نقلهم عند خوفهم من فقده الى
الواحدة والتسرى بما شاؤا من ملك ايمانهم ولا يحسن هنا التعليل بعدم
العيال يوضحه الوجه الثالث انه سبحانه نقلهم عند الخوف من عدم القسط
فى نكاح اليتامى الى من سواهن من النساء لئلا يقعوا فى ظلم أزواجهم
اليتامى وجوز لهم نكاح الواحدة وما فوقها الى الاربع ثم نقلهم عند خوف
الجور وعدم العدل فى القسمة الى الواحدة أو النوع الذى لا قسمة عليهم
فى الاستمتاع بهن وهن الاماء فانتظمت الآية بيان الجائز من نكاح اليتامى

والبوالغ والاولى من ذينك القسمين عند خوف العدل فما لكثرة العيال
مدخل هاهنا البتة يوضحه الوجه الرابع انه لو كان المحذور كثرة العيال
لما نقلهم الى ما شاؤا من كثرة الاماء بلا عدد فان العيال كما يكونون من
الزوجات يكونون من الاماء ولا فرق فانه لم ينقلهم الى اماء الاستخدام
بل الى اماء الاستفراش يوضحه الوجه الخامس ان كثرة العيال ليس أمرا
محذورا مكروها للرب تعالى كيف وخير هذه الامة اكثرها نساء وقد
قال النبى صلى الله عليه وسلم تزوجوا الودود الولود فانى مكاثر بكم الامم
فأمر بنكاح الولود ليحصل منها ما يكاثر به الامم يوم القيامة والمقصود
انه سبحانه جعل نبيه غنيا شاكرا بعد ان كان فقيرا صابرا فلا تحتج به
طائفة لحالها الا كان للطائفة الاخرى ان تحتج به أيضا لحالها فان قيل فقد
كان عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه من الشاكرين وقد قال الامام
احمد فى مسنده حدثنا عبد الصمد حدثنا عمارة عن ثابت عن انس رضى الله
عنه قال بينما عائشة فى بيتها سمعت صوتا فى المدينة فقالت ماهذا فقالوا
عير لعبد الرحمن قدمت من الشام تحمل من كل شىء قال وقد كانت سبعمائة
بعير فارتجت المدينة من الصوت فقالت عائشة سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبوا فبلغ ذلك
عبد الرحمن فقال ان استطعت لادخلنها قائما فجعلها بأحمالها واقتابها كلها فى
سبيل الله قيل قد قال الامام احمد هذا الحديث كذب منكر قالوا وعمارة يروى
احاديث مناكير وقال ابو حاتم الرازى عمارة بن زاذان لا يحتج به قال
ابو الفرج وقد روى الجراح بن منهال باسناده عن عبد الرحمن بن عوف ان
النبى صلى الله عليه وسلم قال له يا ابن عوف انك من الاغنيا وانك لا تدخل

الجنة الا زحفا فأقرض ربك يطلق قدميك قال أبو عبد الرحمن النسائي
هذا حديث موضوع والجراح متروك الحديث وقال يحيى ليس حديث
الجراح بشيء وقال ابن المديني لايكتب حديثه وقال ابن حبان كان يكذب
وقال الدارقطني متروك فان قيل فما تصنعون بالحديث الذي رواه البيهقي
من حديث احمد بن علي بن اسماعيل بن محمد حدثنا سليمان بن عبد الرحمن
أخبرني خالد بن يزيد بن أبي مالك عن أبيه عن عطاء بن أبي رباح عن
ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
انه قال يا ابن عوف انك من الاغنياء ولن تدخل الجنة الا زحفا فأقرض
الله يطلق قدميك قال وما الذي أقرض يارسول الله قال تتبرأ مما امسيت
فيه قال امن كله أجمع يارسول الله قال نعم فخرج وهو يهم بذلك فأتاه
جبريل فقال مر ابن عوف فليضيف الضيف وليطعم المساكين وليبدأ
بمن يعول وليعط السائل فاذا فعل ذلك كان تزكية ماهو فيه قيل هذا
حديث باطل لايصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فان أحد رواته
خالد بن يزيد بن أبي مالك قال الامام احمد ليس بشيء وقال ابن معين واهٍ
وقال النسائي غير ثقة وقال الدارقطني ضعيف وقال يحيى بن معين لم يرض
ان يكذب على ابيه حتى كذب على الصحابة فان قيل فما تصنعون بالحديث
الذي قال الامام احمد حدثنا الهذيل بن ميمون عن مطارح بن يزيد عن
عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي امامة قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم دخلت الجنة فسمعت فيها خشفة بين يدي قلت
ماهذا قال بلال فمضيت فاذا أكثر أهل الجنة فقراء المهاجرين وذراري
المسلمين ولم أر فيها أحدا أقل من الاغنياء والنساء قيل لي أما الاغنيا فهم

في الباب يحاسبون ويمحصون وأما النساء فألهاهن الاحمران الذهب
والحرير ثم خرجنا من أحد أبواب الجنة الثمانية فلما كنت عند الباب
أتيت بكفة فوضعت فيها ووضعت أمتي في كفة فرجحت بها ثم أتي بأبي
بكر فوضع في كفة وجيء بجميع امتي فوضعوا في كفة فرجح أبو بكر
ثم أتي بعمر فوضع في كفة ووضع أمتي في كفة فرجح عمر وعرضت علي
أمتي رجلا رجلا فجعلوا يمرون واستبطأت عبد الرحمن بن عوف ثم جاء
بعد الاياس فقلت عبد الرحمن فقال بأبي وأمي يارسول الله والذي بعثك
بالحق ماخلصت اليك حتى ظننت اني لا أصل اليك الا بعد المشيبات
قال وماذاك قال من كثرة مالي أحاسب فأمحص قيل هذا حديث
لايحتج باسناده وقد ادخله أبو الفرج هو والذي قبله في كتاب الموضوعات
وقال أما عبيد الله بن زحر فقال يحيى ليس بشيء وعلي بن يزيد متروك
وقال ابن حبان عبيد الله يروي الموضوعات عن الاثبات واذا روى عن
علي بن يزيد أتى بالطامات واذا اجتمع في اسناد خبر عبيد الله بن زحر
وعلي بن يزيد والقاسم بن عبد الرحمن لم يكن متن ذلك الخبر الا مما عملته
أيديهم قال أبو الفرج وبمثل هذا الحديث الباطل يتعلق جملة المتزهدين
ويرون ان المال مانع من السبق الى الخير ويقولون اذا كان ابن عوف يدخل
الجنة زحفا لاجل ماله كفى ذلك في ذم المال والحديث لايصح وحاشا
عبد الرحمن المشهود له بالجنة ان يمنعه ماله السبق لان جمع المال مباح وانما
المذموم كسبه من غير وجهه ومنع الحق الواجب فيه وعبد الرحمن منزه عن
الحالين وقد خلف طلحة ثلاثمائة حمل من الذهب وخلف الزبير وغيره ولو
علموا ان ذلك مذموم لاخرجوا الكل وكم قاص يتسوف بمثل هذا الحديث

يحث على الفقر ويذم الغنى فلله در العلماء الذين يعرفون الصحيح ويفهمون
الاصول انتهى. قلت وقد بالغ فى رد هذا الحديث وتجاوز الحد فى ادخاله
فى الاحاديث الموضوعة المختلقة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكأنه
استعظم احتباس عبد الرحمن بن عوف وهو أحد السابقين الأولين
المشهود لهم بالجنة عن السبق اليها ودخول الجنة حبوا ورأى ذلك مناقضا
لسبقه ومنزلته التى أعد الله له فى الجنة وهذا وهم منه رحمه الله وهب أنه
وجد السبيل الى الطعن فى هذين الخبرين افيجد سبيلا الى القدح
فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام
قال الترمذى حديث حسن صحيح وفى حديث ابن عمر الذى رواه مسلم
فى صحيحه عن النبى صلى الله عليه وسلم ان فقراء المهاجرين يسبقون
الاغنياء يوم القيامة بأربعين خريفا وفى مسند الامام احمد عنه عن النبى
صلى الله عليه وسلم هل تدرون أول ن يدخل الجنة قالوا الله ورسوله اعلم
قال فقراء المهاجرين الذين يتقى بهم المكاره يموت احدهم وحاجته فى
صدره لايستطيع لها قضاء وفى جامع الترمذى من حديث جابر رضى الله
عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يدخل فقراء امتى الجنة قبل
الاغنياء بأربعين خريفا فهذا الحديث وأمثاله صحيح صريح فى سبق فقراء
الصحابة الى الجنة لاغنيائهم وهم فى السبق متفاوتون فمنهم من يسبق
بخمسمائة عام ومنهم من يسبق باربعين عاما ولا يقدح ذلك فى منزلة
المتأخرين فى الدخول فانهم قد يكونون أرفع منزلة ممن سبقهم الى الدخول
وان تأخروا بعدهم للحساب فان الامام العادل يوقف للحساب ويسبقه

من لم يل شيئا من أمور المسلمين الى الجنة فاذا دخل الامام العادل بعده
كانت منزلته اعلى من منزلة الفقير بل يكون أقرب الناس من الله منزلة
كما فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه عن النبى صلى
الله عليه وسلم قال المقسطون عند الله يوم القيمة على منابر من نور عن
يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وماولوا. وفى
الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عنه صلى الله عليه وسلم
ان أحب الناس الى الله يوم القيمة وأقربهم منه مجلسا امام عادل وأبغض
الناس الى الله يوم القيمة وأشدهم عذابا امام جائر. فالامام العادل والغنى
قد يتأخر دخوله للحساب ويكون بعد الدخول أرفع منزلة من الفقير
السابق. ولا يلزم من احتباس عبد الرحمن بن عوف لكثرة ماله حتى
يحاسبه عليه ثم يلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه غضاضة
عليه ولا نقص من مرتبته ولا يضاد ذلك سبقه وكونه مشهودا له بالجنة
وأما حديث دخوله الجنة زحفا فالأمر كما قال فيه الامام احمد رحمه
الله انه كذب منكر وكما قال النسائى انه موضوع ومقامات عبد الرحمن
وجهاده ونفقاته العظيمة وصدقاته تقتضى دخوله مع المارين كالبرق أو
كالطرف أو كاجاويد الخيل ولا يدعه يدخلها زحفا

فصل

والله سبحانه كما هو خالق الخلق فهو خالق مابه غناهم وفقرهم فخلق
الغنى والفقر ليبتلى بهما عباده أيهم أحسن عملا وجعلهما سببا للطاعة والمعصية

والثواب والعقاب قال تعالى « ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون »
قال ابن عباس رضى الله عنهما بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى
والفقر والحلال والحرام وكلها بلاء وقال ابن زيد نبلوكم بما تحبون وما تكرهون
لننظر كيف صبركم وشكركم فيما تحبون وما تكرهون . وقال الكلبي
بالشر بالفقر والبلاء والخير بالمال والولد فاخبر سبحانه ان الغنى والفقر مطيتا
الابتلاء والامتحان وقال تعالى « فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فاكرمه
ونعمه فيقول ربى اكرمن وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى
أهانن كلا » فأخبر سبحانه انه يبتلى عبده باكرامه له وبتنعيمه له وبسط
الرزق عليه كما يبتليه بتضييق الرزق وتقديره عليه وان كليهما ابتلاء منه
وامتحان ثم أنكر سبحانه على من زعم أن بسط الرزق وتوسعته اكرام
من الله لعبده وان تضييقه عليه اهانة منه له فقال كلا أى ليس الأمر كما
يقول الانسان بل قد ابتلى بنعمتى وأنعم ببلائى . واذا تأملت الفاظ الآية
وجدت هذا المعنى يلوح على صفحاتها ظاهراً للمتامل وقال تعالى « وهو
الذى جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم
فيما آتاكم » وقال تعالى « انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن
عملا » فأخبر سبحانه انه زين الارض بما عليها من المال وغيره للابتلاء
والامتحان كما أخبر أنه خلق الموت والحياة لذلك وخلق السموات والارض
لهذا الابتلاء أيضاً . فهذه ثلاثة مواضع فى القرآن يخبر فيها سبحانه انه
خلق العالم العلوى والسفلى وما بينهما وأجل العالم وأجل أهله وأسباب معائشهم
التى جعلها زينة للارض من الذهب والفضة والمساكن والملابس والمراكب
والزروع والثمار والحيوان والنساء والبنين وغير ذلك كل ذلك خلقه للابتلاء

والامتحان ليختبر خلقه أيهم أطوع له وأرضى فهو الاحسن عملا . وهذا
هو الحق الذى خلق به وله السموات والارض وما بينهما وغايته الثواب
والعقاب وفواته وتعطيله هو العبث الذى نزه نفسه عنه وأخبر أنه يتعالى
عنه وان ملكه الحق وتفرده بالالهية وحده وربوبية كل شئ ينفى هذا
الظن الباطل والحساب الكاذب كما قال تعالى « أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً
وأنكم الينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش
الكريم » فنزه سبحانه نفسه عن ذلك كما نزهها عن الشريك والولد
والصاحبة وسائر العيوب والنقائص من السنة والنوم واللغوب والحاجة
واكترائه بحفظ السموات والارض وتقدم الشفعاء بين يديه بدون اذنه
كما يظنه أعداؤه المشركون يخرجون عن علمه جزئيات العالم أو شيئاً منها
فكما ان كماله المقدس وكمال أسمائه وصفاته يأبى ذلك ويمنع منه فكذلك
يبطل خلقه لعباده عبثاً وتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يردهم
اليه فيثيب محسنهم باحسانه ومسيئهم باساءته ويعرف المبطلون منهم انهم
كانوا كاذبين ويشهدهم أن رسله وأتباعهم كانوا أولى بالصدق والحق منهم
فمن أنكر ذلك فقد أنكر الهيته وربوبيته وملكه الحق وذلك عين
الجحود والكفر به سبحانه كما قال المؤمن لصاحبه الذى حاوره فى المعاد
وأنكره « أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا »
فأخبر ان انكاره للمعاد كفر بذات الرب سبحانه وقال تعالى « وان
تعجب فعجب قولهم اذا كنا تراباً انا لفى خلق جديد أولئك الذين كفروا
بربهم » وذلك ان انكار المعاد يتضمن انكار قدرة الرب وعلمه وحكمته

وملكه الحق وربوبيته والهيته كما ان تكذيب رسله وجحد رسالتهم يتضمن ذلك أيضاً فمن كذب رسله وجحد المعاد فقد أنكر ربوبيته سبحانه ونفى أن يكون رب العالمين والمقصود انه سبحانه وتعالى خلق الغنى والفقر مطيتين للابتلاء والامتحان ولم ينزل المال لمجرد الاستمتاع به كما فى المسند عنه صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى انا نزلنا المال لاقام الصلاة وايتاء الزكاة ولو كان لابن آدم واد من مال لابتغى الله اليه ثانياً ولو كان له ثان لابتغى له ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب فأخبر سبحانه انه انزل المال ليستعان به على اقامة حقه بالصلاة واقامة حق عباده بالزكاة لا للاستمتاع والتلذذ كما تأكل الانعام فاذا زاد المال عن ذلك أو خرج عن هذين المقصودين فات الغرض والحكمة التى أنزل لها وكان التراب أولى به فرجع هو والجوف الذى امتلأ به بما خلق له من الايمان والعلم والحكمة فانه خلق لان يكون وعاء لمعرفة ربه وخالقه والايمان به ومحبته وذكره وانزل عليه من المال ما يستعين على ذلك فعطل الجاهل بالله وبأمر الله وبتوحيد الله وبأسمائه وصفاته جوفه عما خلق له وملأه بمحبة المال الفانى الذاهب الذى هو ذاهب عن صاحبه أو بالعكس وجمعه والاستكثار منه ومع ذلك فلم يمتل بل ازداد فقراً وحرصاً الى أن امتلأ جوفه بالتراب الذى خلق منه فرجع الى مادته الترابية التى هو خلق منها هو وماله ولم تتكمل مادته بامتلاء جوفه من العلم والايمان الذى بهما كماله وفلاحه وسعادته فى معاشه ومعاده فالمال ان لم ينفع صاحبه ضرّه ولا بد وكذلك العلم والملك والقدرة كل ذلك ان لم ينفعه ضره فان هذه الامور وسائل لمقاصد يتوسل بها اليها فى الخير والشر فان عطلت

عن التوسل بها الى المقاصد والغايات المحمودة توسل بها الى اضدادها فاربح الناس من جعلها وسائل الى الله والدار الآخرة وذلك الذى ينفعه فى معاشه ومعاده واخسر الناس من توسل بها الى هواه ونيل شهواته وأغراضه العاجلة فخسر الدنيا والآخرة فهذا لم يجعل الوسائل مقاصد ولو جعلها كذلك لكان خاسراً لكنه جعلها وسائل الى ضد ما جعلت له فهو بمثابة من توسل بأسباب اللذة الى اعظم الآلام وأدوائها فالاقسام أربعة لا خامس لها احدها معطل الاسباب معرض عنها . الثانى مكب عليها واقف مع جمعها وتحصيلها . الثالث متوصل بها الى ما يضره ولا ينفعه فى معاشه ومعاده فهؤلاء الثلاثة فى الخسران . الرابع متوصل بها الى ما ينفعه فى معاشه ومعاده وهو الرابح قال تعالى « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » وقد أشكل فهم هذه الآية على كثير من الناس حيث فهموا منها ان من كان له ارادة فى الدنيا وزينتها فله هذا الوعيد ثم اختلفوا فى معناها فقالت طائفة منهم ابن عباس من كان يريد تعجيل الدنيا فلا يؤمن بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب قالوا والآية فى الكفار خاصة على قول ابن عباس وقال قتادة من كانت الدنيا همه وسدمه ونيته وطلبه جازاه الله فى الدنيا بحسناته ثم يفضى الى الآخرة وليس له حسنة يجازى بها وأما المؤمن فيجزى فى الدنيا بحسناته ويثاب عليها فى الآخرة . قال هؤلاء فالآية فى الكفار بدليل قوله « أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » قالوا والمؤمن يريد الدنيا والآخرة

فأما من كانت ارادته مقصورة على الدنيا فليس بمؤمن . وقال ابن عباس
رضى الله عنهما فى رواية أبى صالح عنه نزلت فى أهل القبلة قال مجاهدهم
أهل الرياء وقال الضحاك من عمل صالحا من أهل الايمان من غير تقوى
عجل له ثواب عمله فى الدنيا واختار الفراء هذا القول وقال من أراد بعمله
من أهل القبلة ثواب الدنيا عجل له ثوابه ولم يبخس وهذا القول أرجح
ومعنى الاية على هذا من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وهذا لا يكون
مؤمنا البته فان العاصى والفاسق ولو بالغا فى المعصية والفسق فايمانهما
يحملهما على أن يعملا أعمال البر لله فيريدان بأعمال البر وجه الله وان عملا
بمعصيته « فأما من لم يرد بعمله وجه الله وانما أراد به الدنيا وزينتها فهذا
لا يدخل فى دائرة أهل الايمان . وهـذا هو الذى فهمه معاوية من الآية
واستشهد بها على حديث أبى هريرة الذى رواه مسلم فى صحيحه فى الثلاثة
الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيمة القارىء الذى قرأ القرآن ليقال
فلان قارىء والمتصدق الذى أنفق أمواله ليقال فلان جواد والغازى الذى
قتل فى الجهاد ليقال هو جرىء . وكما أن خيار خلق الله هم النبيون
والصديقون والشهداء والصالحون فشرار الخلق من تشبه بهم وليس منهم
فمن تشبه بأهل الصدق والاخلاص وهو مراء كمن تشبه بالأنبياء
وهو كاذب . وقال ابن أبى الدنيا حدثنى محمد بن ادريس قال أخبرنى عبد
الحميد بن صالح حدثنا قطن بن الحباب عن عبد الوارث عن انس بن مالك
رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة
صارت أمتى ثلاث فرق فرقة يعبدون الله عز وجل للدنيا وفرقة يعبدون
رياء وسمعة وفرقة يعبدونه لوجهه ولداره . فيقول للذين كانوا يعبدونه

للدنيا بعزتى وجلالى ومكانى ما أردتم بعبادتى فيقولون بعزتك وجلالك
ومكانك الدنيا فيقول انى لم أقبل من ذلك شيئا اذهبوا بهم الى النار .
ويقول للذين كانوا يعبدون رياء وسمعة بعزتى وجلالى ومكانى ما أردتم
بعبادتى فيقولون بعزتك وجلالك ومكانك رياء وسمعة قال فانى لم أقبل
من ذلك شيئا اذهبوا بهم الى النار . ويقول للذين كانوا يعبدونه لوجهه
وداره بعزتى وجلالى ومكانى ما أردتم بعبادتى فيقولون بعزتك وجلالك
وجهك ودارك فيقول صدقتم اذهبوا بهم الى الجنة . هـذا حديث غنى
عن الاسناد والقرآن والسنة شاهدان بصدقة . ويدل على صحة هذا
القول فى الآية قوله تعالى « نوف اليهم أعمالهم فيها » وذلك على أنها فى قوم
لهم أعمال لم يريدوا بها وجه الله وانما أرادوا بها الدنيا ولها عملوا فوفاهم
الله ثواب أعمالهم فيها من غير بخس وافضوا الى الآخرة بغير عمل يستحقون
عليه الثواب وهذا لا يقع ممن يؤمن بالآخرة الا كما يقع منه كبائر الاعمال
وقوعا عارضا يتوب منه ويراجع التوحيد . وقال ابن الانبارى فعلى هذا
القول المعنى فى قوم من أهل الاسلام يعملون العمل الحسن لتستقيم به دنياهم
غير متفكرين فى الآخرة وما ينقلبون اليه فهؤلاء يعجل لهم جزاء
حسناتهم فى الدنيا فاذا جاءت الآخرة كان جزاؤهم عليها النار اذا لم يريدوا
بها وجه الله ولم يقصدوا التماس ثوابه وأجره . ثم أورد أصحاب هذا القول
على أنفسهم سؤالا قالوا فان قيل الآية الثانية على هذا القول توجب تخليد
المؤمن المريد بعمله الدنيا فى النار وأجابوا عنه بأن ظاهر الآية يدل على
ان من راءى بعمله ولم يلتمس به ثواب الآخرة بل كانت نيته الدنيا فان الله
يبطل ايمانه عند الموافاة فلا يوافى ربه بالايمان قالوا ويدل عليه قوله وحبط

ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون وهذا يتناول أصل الايمان وفروعه
وأجابت فرقة أخرى بأن الآية لاتقتضى الخلود الابدى فى النار وانما
تقتضى ان الذى يستحقونه فى الآخرة النار وانهم ليس لهم عمل صالح
يرجون به النجاة فاذا كان مع أحدهم عمود التوحيد فانه يخرج به من النار
مع من يخرج من أصحاب الكبائر الموحدين وهذا جواب ابن الانبارى
وغيره والآية بحمد الله لااشكال فيها والله سبحانه ذكر جزاء من يريد
بعمله الحياة الدنيا وزينتها وهو النار وأخبر بحبوط عمله وبطلانه فاذا أحبط
ماينجو به وبطل لم يبق معه ماينجيه فان كان معه ايمان لم يرد به الدنيا
وزينتها بل أراد الله به والدار الآخرة لم يدخل هذا الايمان فى العمل الذى
حبط وبطل وأنجاه ايمانه من الخلود فى النار وان دخلها بحبوط عمله الذى به
النجاة المطلقة. والايمان ايمانان ايمان يمنع من دخول النار وهو الايمان الباعث
على أن تكون الاعمال لله يبتغى بها وجهه وثوابه وايمان يمنع الخلود فى النار وان
كان مع المرائى شىء منه والا كان من أهل الخلود فالآية لها حكم نظائرها
من آيات الوعيد والله الموفق وذلك قوله « من كان يريد حرث الآخرة نزد
له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته وماله فى الآخرة من نصيب »
ومنه قوله « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له
جهنم يصلاها مذموما مدحورا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن
فأولئك كان سعيهم مشكورا » فهذه ثلاثة مواضع من القرآن يشبه بعضها
بعضا ويصدق بعضها بعضا وتجتمع على معنى واحد وهو ان من كانت
الدنيا مراده ولها يعمل فى غاية سعيه لم يكن له فى الآخرة نصيب ومن
كانت الآخرة مراده ولها عمل وهى غاية سعيه فهى له. بقى ان يقال فما

حكم من يريد الدنيا والآخرة فانه داخل تحت حكم الارادتين فبأيهما يلحق
قيل من هاهنا نشأ الاشكال وظن من ظن من المفسرين ان الآية فى حق
الكافر فانه هو الذى يريد الدنيا دون الآخرة وهذا غير لازم طردا ولا
عكسا فان بعض الكفار قد يريد الآخرة وبعض المسلمين قد لا يكون
مراده الا الدنيا والله تعالى قد علق السعادة بارادة الآخرة والشقاوة
بارادة الدنيا فاذا تجردت الارادتان تجرد موجبهما ومقتضاها وان اجتمعتا
فحكم اجتماعهما حكم اجتماع البر والفجور والطاعة والمعصية والايمان
والشرك فى العبد وقد قال تعالى لخير الخلق بعد الرسل « منكم من يريد
الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » وهذا خطاب للذين شهدوا معه الوقعة
ولم يكن فيهم منافق ولهذا قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ماشعرت
ان أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا حتى كان
يوم أحد ونزلت هذه الآية والذين أرادوا فى هذه الآية هم اخلوا مركزهم
الذى أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظه وهم من خيار المسلمين
ولكن هذه ارادة عارضة حملتهم على ترك المركز والاقبال على كسب
الغنائم بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها فهذه الارادة لون وارادة
هؤلاء لون. وهاهنا أمر يجب التنبيه له وهو انه لايمكن ارادة الدنيا وعاجلها
باعمال البر دون الآخرة مع الايمان بالله ورسوله ولقائه ابداً فان الايمان
بالله والدار الآخرة يستلزم ارادة العبد لرحمة الله والدار الآخرة باعماله
فحيث كان مراده بها الدنيا فهذا لايجامع الايمان أبداً وان جامع الاقرار
والعلم فالايمان وراء ذلك والاقرار والمعرفة حاصل لمن شهد الله سبحانه

له بالكفر مع هذه المعرفة كفرعون وثمود واليهود الذين شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفوه كما عرفوا ابناءهم وهم من اكفر الخلق فارادة الدنيا وعاجلها بالاعمال قد يجامع هذه المعرفة والعلم ولكن الايمان الذى هو وراء ذلك لابد ان يريد صاحبه باعماله الله والدار الآخرة والله المستعان

فصل

والمقصود انه سبحانه جعل الغنى والفقر ابتلاء وامتحاناً للشكر والصبر والصدق والكذب والاخلاص والشرك . قال تعالى « ليبلوكم فيما آتاكم » وقال تعالى « الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » وقال تعالى « انما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم » فجعل الدنيا عرضا عاجلا ومتاع غرور وجعل الآخرة دار جزاء وثواب وحف الدنيا بالشهوات وزينها بها كما قال تعالى « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » فأخبر سبحانه ان هذا الذى زين به الدنيا من ملاذها وشهواتها وما هو غاية أمانى طلابها ومؤثريها على الآخرة وهو سبعة أشياء النساء اللاتى هنّ أعظم زينتها وشهواتها وأعظمها فتنة والبنين الذين بهم كمال الرجل وفخره وكرمه وعزه والذهب والفضة اللذين هما مادة الشهوات على اختلاف أجناسها وأنواعها والخيل المسومة التى هى عز أصحابها وفخرهم وحصونهم

وآلة قهرهم لاعدائهم فى طلبهم وهربهم والانعام التى منها ركوبهم وطعامهم ولباسهم وأثاثهم وأمتعتهم وغير ذلك من مصالحهم والحرث الذى هو مادة قوتهم وقوت أنعامهم ودوابهم وفاكهتهم وأدويتهم وغير ذلك . ثم اخبر سبحانه ان ذلك كله متاع الحياة الدنيا ثم شوّق عباده الى متاع الآخرة وأعلمهم انه خير من هذا المتاع وأبقى فقال « قل أأنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد » ثم ذكر سبحانه من يستحق هذا المتاع ومن هم أهله الذين هم أولى به فقال « الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالاسحار » فأخبر سبحانه ان ما أعد لاوليائه المتقين من متاع الآخرة خير من متاع الدنيا وهو نوعان ثواب يتمتعون به وأكبر منه وهو رضوانه عليهم وقال تعالى « اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما » فأخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مشاهداً لاولى البصائر وانها لعب ولهو تلهو بها النفوس وتلعب بها الأبدان واللهو واللعب لاحقيقة لهما وانهما مشغلة للنفس مضيعة للوقت يقطع بها الجاهلون العمر فيذهب ضائعاً فى غير شىء ثم اخبر انها زينة زينت للعيون وللنفوس فأخذت بالعيون والنفوس استحساناً ومحبة ولو باشرت القلوب معرفة حقيقتها ومآلها ومصيرها لابغضتها ولآثرت عليها الآخرة ولما آثرتها على الآجل الدائم الذى هو خير وأبقى . قال الامام حدثنا وكيع حدثنا المسعودى عن عمرو

ابن مرة عن ابراهيم عن علقمة عن عبدالله رضى الله عنه عن النبي صلى الله
عليه وسلم قال مالى وللدنيا انما مثلى ومثل الدنيا كمثل راكب قال فى ظل
شجرة فى يوم صائف ثم راح وتركها وفى جامع الترمذى من حديث سهل
ابن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كانت الدنيا تزن
عندالله جناح بعوضة ماسقى كافرا منها شربة ماء قال الترمذى حديث
صحيح وفى صحيح مسلم من حديث المستورد بن شداد قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ما الدنيا فى الآخرة الا مثل مايجعل احدكم أصبعه
فى اليم فلينظر بما يرجع وأشار بالسبابة وفى الترمذى من حديثه قال كنت
مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على السخلة
الميتة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أترون هذه هانت على أهلها حتى
القوها قالوا ومن هوانها القوها يارسول الله قال فالدنيا أهون على الله
من هذه على أهلها . وفى الترمذى أيضا من حديث أبى هريرة رضى الله
عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا ملعونة ملعون مافيها
الا ذكر الله وما والاه وعالما او متعلما والحديثان حسنان وقال الامام احمد
حدثنا هيثم بن خارجة انبأنا اسماعيل بن عياش عن عبدالله بن دينار
البهرانى قال قال عيسى عليه السلام للحواريين بحق أقول لكم ان حلاوة
الدنيا مرارة الآخرة وان مرارة الدنيا حلاوة الآخرة وان عباد الله
ليسوا بالمتنعمين بحق أقول لكم ان شركم عملا عالم يحب الدنيا ويؤثرها
على الآخرة انه لو يستطيع جعل الناس كلهم فى عمله مثله . وقال احمد
حدثنا يحيى بن اسحق قال اخبرنى سعيد بن عبد العزيز عن مكحول قال
قال عيسى بن مريم عليه السلام يامعشر الحواريين ايكم يستطيع أن

تُبنى على موج البحر دارا قالوا ياروح الله ومن يقدر على ذلك قال اياكم
والدنيا فلا تتخذوها قرارا وفى كتاب الزهد لاحمد ان عيسى بن مريم
عليه السلام كان يقول بحق أقول لكم ان اكل الخبز وشرب الماء العذب
ونوما على المزابل مع الكلاب كثير لمن يريد أن يرث الفردوس . وفى
المسند عنه صلى الله عليه وسلم « ان الله ضرب طعام ابن آدم مثلا للدنيا
وان قزّحه وملحه [1] فلينظر الى ماذا يصير »

فصل

ثم اخبر سبحانه وتعالى عنها انها يفاخر بعضنا بعضا بها فيطلبها ليفخر
بها على صاحبه وهذا حال كل من طلب شيئا للمفاخره من مال أو جاه
أو قوة أو علم أو زهد والمفاخرة نوعان مذمومة ومحمودة فالمذمومة
مفاخرة أهل الدنيا بها والمحمودة أن يطلب المفاخرة فى الآخرة فهذه من جنس
المنافسة المأمور بها وهى ان الرجل ينفس على غيره بالشيء ويغار ان يناله
دونه ويأنف من ذلك ويحمى انفه له يقال نفست عليه الشيء أنفسه نفاسة
اذا ضننت به ولم تحب ان يصير اليه دونك والتنافس تفاعل من ذلك كأن
كل واحد من المتنافسين يريد ان يسبق صاحبه اليه . وحقيقة المنافسة
الرغبة التامة والمبادرة والمسابقة الى الشيء النفيس

فصل

ثم اخبر تعالى عنها انها تكاثر فى الاموال والاولاد فيجب كل واحد

---

(١) قال المجد ابن الأثير : قزحه وملحه أى توبله من القزح وهو التابل الذى
يطرح فى القدر كالكمون والكزبرة . أى ان الطعام وان تكلف الانسان
التنوق فى صنعته وتطييبه فانه عائد الى حال يكره ويستقذر . فكذلك الدنيا
المحروص على عمارتها راجعة الى خراب وادبار

ان يكثر بنى جنسه فى ذلك ويفرح بان يرى نفسه أكثر من غيره مالا وولدا وان يقال فيه ذلك وهذا من أعظم مايلهى النفوس عن الله والدار الآخرة كما قال تعالى « الهكم التكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون » والتكاثر فى كل شئ فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمر من الامور عن الله والدار الآخرة فهو داخل فى حكم هذه الآية فمن الناس من يلهيه التكاثر بالمال ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه أو بالعلم فيجمعه تكاثرا وتفاخرا وهذا اسوأ حالا عند الله ممن يكاثر بالمال والجاه فانه جعل أسباب الآخرة للدنيا وصاحب المال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر باسبابها

فصل

ثم أخبر سبحانه عن مصير الدنيا وحقيقتها وانها بمنزلة غيث أعجب الكفار نباته والصحيح انشاء الله ان الكفار هم الكفار بالله وذلك عرف القرآن حيث ذكروا بهذا النعت فى كل موضع ولو أراد الزراع لذكرهم باسمهم الذى يعرفون به كما ذكرهم به فى قوله يعجب الزراع وانما خص الكفار به لانهم أشد اعجاباً بالدنيا فانها دارهم التى لها يعملون ويكدحون فهم أشد اعجابا بزينتها وما فيها من المؤمنين ثم ذكر سبحانه عاقبة هذا النبات وهو اصفراره ويبسه وهذا آخر الدنيا ومصيرها ولو ملكها العبد من أولها الى آخرها فنهايتها ذلك فاذا كانت الآخرة انقلبت الدنيا واستحالت الى عذاب شديد أو مغفرة من الله وحسن ثوابه وجزائه كما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها ومطلب نجح لمن سالم فيها مساجد أنبياء الله ومهبط

وحيه ومصلى ملائكته ومتجر أوليائه فيها اكتسبوا الرحمة وربحوا فيها العافية فمن ذا يذمها وقد آذنت ببينها ونعت نفسها وأهلها فتمثلت ببلائها وشوقت بسرورها الى السرور تخويفا وتحذيرا وترغيباً فذمها قوم غداة الندامة وحمدها آخرون ذكرتهم فذكروا ووعظتهم فاتعظوا فيا أيها الذام للدنيا المغتر بتغريرها متى استذمت اليك بل متى غرتك أبمنازل آبائك فى الثرى أم بمضاجع أمهاتك فى البلا. كم رأيت موروثا كم عللت بكفيك عليلا كم مرضت مريضا بيديك تبتغى له الشفاء وتستوصف له الاطباء ثم لم تنفعه شفاعتك ولم تسعفه طلبتك مثلت لك الدنيا غداة مصرعه مصرعك ومضجعه مضجعك. ثم التفت الى المقابر فقال ياأهل الغربه ويا أهل التربة أما الدور فسكنت وأما الاموال فقسمت وأما الازواج فنكحت فهذا خبر ما عندنا فهاتوا خبر ما عندكم. ثم التفت الينا فقال اما لو اذن لهم لاخبروكم ان خير الزاد التقوى. فالدنيا فى الحقيقة لاتذم وانما يتوجه الذم الى فعل العبد فيها وهى قنطرة أو معبر الى الجنة أوالى النار ولكن لما غلبت عليها الشهوات والحظوظ والغفلة والاعراض عن الله والدار الآخرة فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها وهو الغالب على اسمها صار لها اسم الذم عند الاطلاق والا فهى مبنى الآخرة ومزرعتها ومنها زاد الجنة وفيها اكتسبت النفوس الايمان ومعرفة الله ومحبته وذكره وابتغاء مرضاته وخير عيش ناله أهل الجنة فى الجنة انما كان بما زرعوه فيها وكفى بها مدحا وفضلا لاولياء الله فيها من قرة العيون وسرور القلوب وبهجة النفوس ولذة الارواح والنعيم الذى لايشبهه نعيم بذكره ومعرفته ومحبته وعبادته والتوكل عليه والانابة اليه والانس به والفرح بقربه والتذلل

له ولذة مناجاته والاقبال عليه والاشتغال به عمن سواه وفيها كلامه ووحيه وهداه وروحه الذى ألقاه من أمره فأخبر به من شاء من عباده . ولهذا فضل ابن عقيل وغيره هذا على نعيم الجنة وقالوا هذا حق الله عليهم وذاك حظهم ونعيمهم وحقه أفضل من حظهم. قالوا والايمان والطاعة أفضل من جزائه. والتحقيق انه لا يصح التفضيل بين أمرين فى دارين مختلفتين ولو أمكن اجتماعهما فى دار واحدة لامكن طلب التفضيل . والايمان والطاعة فى هذه الدار أفضل مافيها ودخول الجنة والنظر الى وجه الله جل جلاله وسماع كلامه والفوز برضاه أفضل مافى الآخرة فهذا أفضل مافى هذه الدار وهذا أفضل مافى الدار الاخرى . ولا يصح أن يقال فأى الأمرين أفضل فهذا أفضل الأسباب وهذا أفضل الغايات وبالله التوفيق

فصل

ولما وصف سبحانه حقيقة الدنيا وبين غايتها ونهايتها وانقلابها فى الآخرة الى عذاب شديد ومغفرة من الله وثواب أمر عباده بالمسابقة والمبادرة الى ماهو خير وأبقى وأن يؤثروه على الفانى المنقطع المشوب بالانكاد والتنغيص ثم اخبر ان ذلك فضله يؤتيه من يشاء والله ذوالفضل العظيم وقال تعالى « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا » ثم ذكر سبحانه ان المال والبنين زينة الحياة الدنيا وان الباقيات الصالحات وهى الاعمال والاقوال الصالحة التى يبقى ثوابها ويدوم

جزاؤها خير مايؤمله العبد ويرجو ثوابه وقال تعالى « انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها انهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » ولما اخبر عباده عن آفات هذه الدار دعا عباده الى دار السلام التى سلمت من التغير والاستحالة والزوال والفناء وعم عباده بالدعوة اليها عدلا وخص من شاء بالهداية الى طريقها فضلا واخبر سبحانه ان الاموال والاولاد لا تقرب الخلق اليه وانما يقربهم اليه تقوى الله ومعاملته فيهم وحذر سبحانه عباده أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكره واخبر ان من فعل ذلك فهو الخاسر حقيقة لا من قل ماله وولده فى الدنيا ونهى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يمد عينيه الى ماتمتع به أهل الدنيا فيها فتنة لهم واختبارا واخبر ان رزقه الذى أعده له فى الآخرة خير وابقى من هذا الذى متعوا به وأخبر سبحانه انه آتاه السبع المثانى والقرآن العظيم وذلك خير وأفضل مما متع به أهل الدنيا فى دنياهم وجعل ما آتاه مانعا له من مد عينيه الى ذلك فهذا العطاء فى الدنيا وما ادخر له من رزق الآخرة خير مما متع به أهل الدنيا فلا تمدن عينيك

فصل

واذا عرف ان الغنى والفقر والبلاء والعافية فتنة وابتلاء من الله لعبده يمتحن بها صبره وشكره علم ان الصبر والشكر مطيتان للايمان لا يحمل

الا عليهما ولا بد لكل مؤمن منهما وكل منهما فى موضعه أفضل فالصبر
فى مواطن الصبر افضل والشكر فى مواضع الشكر افضل هذا ان صح
مفارقة كل واحد منهما للآخر واما اذا كان الصبر جزء مسمى الشكر
والشكر جزء مسمى الصبر وكل منهما حقيقة مركبة من الامرين معاً كما
تقدم بيانه فالتفضيل بينهما لا يصح الا اذا جرد أحدهما عن الآخر وذلك
فرض ذهنى يقدره الذهن ولا يوجد فى الخارج ولكن يصح على وجه وهو
ان العبد قد يغلب صبره على شكره الذى هو قدر زائد على مجرد الصبر
من الاقوال والاعمال الظاهرة والباطنة فلا يبقى فيه اتساع لغير صبر النفس
على ما هو فيه لقوة الوارد وضيق المحل فتنصرف قواه كلها الى كف النفس
وحبسها لله وقد يغلب شكره بالاقوال والاعمال الظاهرة والباطنة على قوة
كفه لنفسه وحبسها لله فتكون قوة ارادته وعمله اقوى من قوة امتناعه وحبس
نفسه واعتبر هذا بشخصين احدهما حاكم على نفسه متمكن من حبسها عن
الشهوات قليل التشكى للمصيبات وذلك جل عمله وآخر كثير الاعطاء
لفعل الخير القاصر والمتعدى سمح النفس ببذل المعروف وآخر ضعيف
النفس عن قوة الصبر فللنفس قوتان قوة الصبر والكف وامساك النفس
وقوة البذل وفعل الخير والاقدام على فعل ما تكمل به وكمالها باجتماع
هاتين القوتين فيها والناس فى ذلك أربع طبقات فاعلاهم من اجتمعت له
القوتان وسفلتهم من عدم القوتين ومنهم من قوة صبره أكمل من قوة
فعله وبذله ومنهم من هو بالعكس فى ذلك فاذا فضل الشكر على الصبر
فاما ان يكون باعتبار ترجيح مقام على مقام واما ان يكون باعتبار تجريد

كل من الامرين عن الآخر وقطع النظر عن اعتباره وتمام ايضاح هذا
بمسألة الغنى الشاكر والفقير الصابر فلنذكر لهما بابا يخصها ويكشف
عن الصواب فيها

الباب الثاني والعشرون

فى اختلاف الناس فى الغنىّ الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل وما هو الصواب فى ذلك

هذه مسألة كثر فيها النزاع بين الاغنياء والفقراء واحتجت كل طائفة
على الاخرى بما لم يمكنها دفعه من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار
ولذلك يظهر للمتأمل تكافؤ الطائفتين فان كلا منهما أدلت بحجج لا تدفع
والحق لا يعارض بعضه بعضا بل يجب اتباع موجب الدليل اين كان . وقد
أكثر الناس الكلام فى المسئلة من الجانبين وصنفوا فيها من الطرفين وتكلم
الفقهاء والفقراء والاغنياء والصوفية وأهل الحديث والتفسير لشمول
معناها وحقيقتها للناس كلهم وحكوا عن الامام احمد فيها روايتين ذكرهما
ابو الحسين فى كتاب التمام فقال: مسألة الفقير الصابر افضل من الغنى الشاكر
فى اصح الروايتين وفيه رواية ثانية الغنى الشاكر أفضل وبها قال جماعة منهم
ابن قتيبه ووجّه الاولى واختارها ابو اسحق بن شاقلا والوالد السعيد قوله
تعالى « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا » قال محمد بن على بن الحسين
الغرفة الجنة بما صبروا قال على الفقر فى الدنيا وروى أنس عن النبى صلى الله
عليه وسلم قال اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة
المساكين يوم القيامة فقالت عائشة ولم يارسول الله قال انهم يدخلون الجنة

قبل الاغنياء بأربعين خريفا ياعائشة لا تردى المسكين ولو بشق تمرة
ياعائشة أحبى المساكين وقربيهم فان الله يقربك يوم القيامة قلت لا حجة
له فى واحدة من الحجتين أما الآية فالصبر فيها يتناول صبر الشاكر على طاعته
وصبره عن معصيته وصبر المبتلى بالفقر وغيره على بلائه ولو كان المراد بها
الصبر على الفقر وحده لم يدل رجحانه على الشكر فان القرآن كما دل
على جزاء الصابرين دل على جزاء الشاكرين أيضا كما قال تعالى وسنجزى
الشاكرين وسيجزى الله الشاكرين بل قد اخبر أن رضاه فى الشكر ورضاه
اكبر من جزائه بالجنات وما فيها واذا جزى الله الصابرين الغرفة بما صبروا
لم يدل ذلك على انه لا يجزى الشاكرين الغرفة بما شكروا. وأما الحديث
فلا حجة فيه لوجهين أحدهما انه لا يحتج باسناده فانه من رواية محمد بن
ثابت الكوفى عن الحارث بن النعمان والحارث هذا لم يحتج به أصحاب
الصحيح بل قال فيه البخارى منكر الحديث ولذلك لم يصحح الترمذى
حديثه هذا ولا حسنة ولا سكت عنه بل حكم بغرابته. الجواب الثانى
ان الحديث لو صح لم يدل على مطلوبهم فان المسكنة التى يحبها الله من
عبده ليست مسكنة فقر المال بل مسكنة القلب وهى انكساره وذله
وخشوعه وتواضعه لله وهذه المسكنة لا تنافى الغنى ولا يشترط لها الفقر
فان انكسار القلب لله ومسكنته لعظمته وجلاله وكبريائه وأسمائه وصفاته
أفضل واعلى من مسكنة عدم المال كما ان صبر الواجد عن معاصى الله
طوعاً واختيارا وخشية من الله ومحبة له أعلى من صبر الفقير العاجز وقد
آتى الله جماعة من أنبيائه ورسله الغنى والملك ولم يخرجهم ذلك عن المسكنة
لله قال الامام احمد حدثنا يزيد بن هرون أنبأنا الجريرى عن أبى السليل

قال كان داود النبى صلى الله عليه وسلم يدخل المسجد فينظر أغمص حلقة(١)
من بنى اسرائيل فيجلس اليهم ثم يقول مسكين بين ظهرانى مساكين
هذا مع ما آتاه الله من الملك والغنى والبسطة زيادة على النبوة قال أبو الحسين
وروى ابو برزة الاسلمى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فقراء
المسلمين ليدخلون الجنة قبل أغنيائهم بمقدار اربعين خريفا حتى يتمنى
أغنياء المسلمين يوم القيامة انهم كانوا فقراء فى الدنيا. قلت هذا الحديث
ثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم من رواية جماعة من الصحابة منهم أبو
هريرة وعبدالله بن عمر وجابر بن عبد الله وروى عن أبى سعيد وانس بن
مالك ولا يدل ذلك على علو درجتهم اذا دخلوا الجنة قبل الاغنياء بل انما
يدل على السبق لعدم ما يحاسبون عليه ولا ريب ان ولى الامر العادل
يتأخر دخوله للحساب وكذلك الغنى الشاكر ولا يلزم من تأخر دخولها
نزول درجتهما عن درجة الفقير كما تقدم وانما تمنى الاغنياء انهم كانوا
فى الدنيا فقراء فان صحت هذه اللفظة لم تدل على انحطاط درجتهم كما
يتمنى القاضى العادل فى بعض المواطن يوم القيامة أن لم يقض بين اثنين فى
تمرة لما يرى من شدة الامر فنزلة الفقر والخمول ومنزلة السلامة ومنزلة
الغنى والولاية ومنزلة الغنيمة أو العطب قال أبو الحسين وروى ابن عمر أن
النبى صلى الله عليه وسلم قام فى أصحابه فقال أى الناس خير فقال بعضهم
غنىٌ يعطى حق نفسه وماله فقال النبى صلى الله عليه وسلم نعم الرجل هذا
وليس به ولكن خير الناس مؤمن فقير يعطى على جهد قلت لم يذكر لهذا
الحديث اسناد فينظر فيه وحديث لا يعلم حاله لا يحتج به ولو صح لم يكن

(١) أى أحقر حلقة . ومادة (غمص) وردت بهذا المعنى فى أحاديث كثيرة

فيه دليل لانه تضمن تفضيل فقير يتصدق من جهد فعه فقر الصابرين وغنى
الشاكرين فقد جمع بين موجب التفضيل وسببه ولا ريب ان هذا افضل
الاقسام الثلاثة ودرهمه الواحد يسبق مائة الف درهم من غيره كما قال النبى
صلى الله عليه وسلم سبق درهم مائة الف درهم قالوا يارسول الله كيف سبق
درهم مائة الف درهم قال رجل كان له درهمان فاخذ احدهما فتصدق به
وآخر له مال كثير فاخذ من عرضه مائة الف فتصدق بها رواه النسائى من
حديث صفوان بن عيسى حدثنا ابن عجلان عن زيد بن اسلم عن ابى صالح
عن أبى هريرة رضى الله عنه وذكر البيهقى من حديث الثورى عن أبى
اسحق عن الحارث عن على رضى الله عنه قال جاء ثلاثة نفر الى النبى صلى
الله عليه وسلم فقال أحدهم كانت لى مائة اوقية فتصدقت منها بعشر اواق
وقال الآخر كانت لى مائة دينار فتصدقت منها بعشرة دنانير وقال الآخر
كان لى عشرة دنانير فتصدقت منها بدينار فقال كلكم فى الاجر سواء
كلكم قد تصدق بعشر ماله وقال أبو سعيد بن الاعرابى حدثنا ابن أبى
العوام حدثنا يزيد بن هرون حدثنا أبو الاشهب عن الحسن قال قال رجل
لعثمان بن عفان رضى الله عنه ذهبتم يا أصحاب الاموال بالخير تتصدقون
وتعتقون وتحجون وتنفقون فقال عثمان وانكم لتغبطوننا وانا لنغبطكم
قال فوالله لدرهم ينفقه أحد من جهد خير من عشرة آلاف درهم غيض
من فيض وفى سنن ابى داود من حديث الليث عن أبى الزبير عن يحيى
ابن جعدة عن ابى هريرة انه قال يارسول الله أى الصدقة افضل قال جهد
المقل وابدأ بمن تعول وفى المسند وصحيح ابن حبان من حديث ابى ذر
رضى الله عنه قال قلت يارسول الله أى الصدقة أفضل قال جهد من مقل

وفى سنن النسائى من حديث الاوزاعى عن عبيد بن عمير عن عبد الله بن
حبشى ان النبى صلى الله عليه وسلم سئل أى الاعمال أفضل قال ايمان
لاشك فيه وجهاد لاغلول فيه وحجة مبرورة قيل فأى الصلاة أفضل قال
طول القيام قيل فأى الصدقة أفضل قال جهد من مقل قيل فأى الهجرة
أفضل قال من هجر ماحرم الله عليه قيل فأى الجهاد أفضل قال من
اهريق دمه وعقر جواده. وهذه الاحاديث كلها تدل على ان صدقة جهد
المقل أفضل من صدقة كثير المال ببعض ماله الذى لايتبين أثر نقصانه
عليه وان كان كثيرا لان الاعمال تتفاضل عند الله بتفاضل مافى القلوب
لابكثرتها وصورها بل بقوة الداعى وصدق الفاعل واخلاصه وايثاره
الله على نفسه فاين صدقة من آثر الله على نفسه برغيف هو قوته الى صدقة
من اخرج مائة ألف درهم من بعض ماله غيضا من فيض فرغيف هذا
درهمه فى الميزان اثقل من مائة ألف هذا وبالله المستعان

فصل

واحتجوا بما رواه ابن عدى من حديث سليمان بن عبد الرحمن حدثنا
خالد بن يزيد عن ابيه عن عطاء سمع ابا سعيد الخدرى يقول سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم توفنى فقيرا ولا توفنى غنيا وهذا الحديث
لايصح فان خالد بن يزيد هذا هو خالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن مالك
الدمشقى اجمعوا على ضعفه وعدم الاحتجاج بحديثه قال احمد ليس بشىء
وقال ابن معين واهٍ ونسبه يحيى الى الكذب وقد تقدم فيه. وقد سئل شيخ
الاسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذه المسئلة فقال قد تنازع كثير من

المتاخرين فى الغنى الشاكر والفقير الصابر ايهما أفضل فرجح هذا طائفة
من العلماء والعباد ورجح هذا طائفة اخرى من العلماء والعباد وحكى فى
ذلك عن الامام احمد روايتان واما الصحابة والتابعون رضى الله عنهم فلم
ينقل عن احد منهم تفضيل احد الصنفين على الآخر وقد قالت طائفة
ثالثة ليس لاحدهما على الاخرى فضيلة الا بالتقوى فايهما كان اعظم إيمانا
وتقوى كان افضل فان استويا فى ذلك استويا فى الفضيلة قال وهذا
اصح الاقوال لان نصوص الكتاب والسنة انما تفضل بالايمان والتقوى
وقد قال تعالى ان يكن غنيا او فقيرا فالله اولى بهما وقد كان فى الانبياء
والسابقين الاولين من الاغنياء من هو افضل من اكثر الفقراء وكان
فيهم من الفقراء من هو افضل من اكثر الاغنياء والكاملون يقومون
بالمقامين فيقومون بالشكر والصبر على التمام كحال نبينا صلى الله عليه
وسلم وحال ابى بكر وعمر رضى الله عنهما ولكن قد يكون الفقر لبعض
الناس انفع والغنى لآخرين انفع كما تكون الصحة لبعضهم انفع والمرض
لبعضهم انفع كما فى الحديث الذي رواه البغوى وغيره عن النبى صلى الله
عليه وسلم فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى ان من عباده من لا يصلحه الا
الغنى ولو افقرته لافسده ذلك وان من عبادى من لا يصلحه الا الفقر ولو
اغنيته لافسده ذلك وان من عبادى من لا يصلحه الا الصحة ولو أسقمته
لافسده ذلك وان من عبادى من لا يصلحه الا السقم ولو اصححته لافسده
ذلك انى ادبر عبادى انى بهم خبير بصير وقد صح عن النبى صلى الله عليه
وسلم انه قال ان فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل الاغنياء وفى الحديث
الآخر لما علم الفقراء الذكر عقيب الصلاة سمع بذلك الاغنياء فقالوا مثل

ما قالوا فذكر ذلك الفقراء للنبى صلى الله عليه وسلم فقال « ذلك فضل الله
يؤتيه من يشاء » فالفقراء يتقدمون فى دخول الجنة لخفة الحساب عليهم
والاغنياء يؤخرون لاجل الحساب عليهم ثم اذا حوسب احدهم فان كانت
حسناته أعظم من حسنات الفقير كانت درجته فى الجنة فوقه وان تأخر
فى الدخول كما ان السبعين الفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ومنهم عكاشة
ابن محصن قد يدخل الجنة بحساب من يكون افضل من احدهم فى
الدرجات لكن اولئك استراحوا من تعب الحساب فهذا فى الفقر
المذكور فى الكتاب والسنة وهو ضد الغنى الذى يبيح أخذ الزكاة أو الذى
لا يوجب الزكاة

ثم قد صار فى اصطلاح كثير من الناس الفقر عبارة عن الزهد
والعبادة والاخلاق ويسمون من اتصف بذلك فقيراً وان كان ذا مال
ومن لم يتصف بذلك قالوا ليس بفقير وان لم يكن له مال وقد يسمى هذا
المعنى تصوفا ومن الناس من يفرق بين مسمى الفقير والصوفى ثم من هؤلاء
من يجعل مسمى الفقير أفضل ومنهم من يجعل مسمى الصوفى أفضل
والتحقيق فى هذا الباب انه لا ينظر الى الالفاظ المحدثة بل ينظر الى ماجاء
به الكتاب والسنة من الاسماء والمعانى والله قد جعل وصف أوليائه
الايمان والتقوى فمن كان نصيبه من ذلك أعظم كان أفضل والاغنياء بما
سوى ذلك والله أعلم

الباب الثالث والعشرون

في ذكر ما احتجت به الفقراء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار

قالت الفقراء لم يذكر الله سبحانه الغنى والمال فى القرآن الا على أحد
وجوه : الأول على وجه الذم كقوله تعالى « كلا ان الانسان ليطغى أن رآه
استغنى » وقوله « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض » وقوله
« ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم
سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون
وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين »
وقال تعالى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة
الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون » وقال تعالى « المال والبنون زينة الحياة
الدنيا» وقال «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة
من الذهب والفضة» الآية ونظائر ذلك كثيرة. الوجه الثانى أن يذكره على
وجه الابتلاء والامتحان كما قال تعالى « انما أموالكم وأولادكم فتنة»
وقال تعالى « أيحسبون انما نمدهم من مال وبنين نسارع لهم فى
الخيرات بل لا يشعرون» وقال تعالى مخبرا عن ابتلائه بالغنى كما ابتلى بالفقر
« فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن »
الآية وقال تعالى « ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون» الوجه الثالث
اخباره سبحانه وتعالى ان الاموال والاولاد لا تقرب اليه شيأ وانما
يقرب اليه الايمان والعمل الصالح كما قال « وما أموالكم ولا أولادكم
بالتى تقربكم عندنا زلفى الا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف

بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون » الوجه الرابع اخباره ان الدنيا والغنى
والمال انما جعلها متعة لمن لا نصيب له فى الآخرة وان الآخرة جعلها
للمتقين فقال تعالى « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة
الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى » وقال تعالى «ويوم يعرض
الذين كفروا على النار اذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها
والى هذا المعنى أشار النبى صلى الله عليه وسلم بقوله لعمر « اما ترضى أن
تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة» وسيأتى الحديث . الوجه الخامس أنه
سبحانه لم يذكر المترفين وأصحاب الثروة الا بالذم كقوله «انهم
كانوا قبل ذلك مترفين » وقوله « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها
ففسقوا فيها »وقوله تعالى « لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه
ومساكنكم لعلكم تسألون» الوجه السادس انه سبحانه ذم محب المال
فقال «وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا» جما فذمهم بحب المال
وعيرهم به. الوجه السابع انه سبحانه ذم متمنى الدنيا والغنى والسعة فيها
ومدح من أنكر عليهم وخالفهم فقال تعالى عن أغنى اهل زمانه فخرج
على قومه فى زينته «قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى
قارون انه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن
وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون » فاخبروا ان ما عند الله خير من الدنيا
لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقى هذه الوصية وهى الكلمة التى تكلم بها
الذين أوتوا العلم أو المثوبة والجنة التى دل عليها قوله ثواب الله خير والسيرة
والطريقة التى دل عليها قوله لمن آمن وعمل صالحا وعلى كل حال ولا يلقى
ذلك الا الصابرون على الفقر وعن الدنيا وشهواتها وما اترف فيه الاغنياء

وقد شهد الله سبحانه لهم انهم من أهل العلم دون الذين تمنوا الدنيا وزينتها.
الوجه الثامن انه سبحانه أنكر على من ظن ان التفضيل يكون بالمال الذى يحتاج اليه لاقامة الملك فكيف بما هو زيادة وفضلة فقال تعالى « وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم » فرد الله سبحانه قولهم وأخبر سبحانه ان الفضل ليس بالمال كما توهموه وان الفضل بالعلم لا بالمال وقال سبحانه « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » ففضله ورحمته العلم والايمان والقرآن والذى يجمعونه هو المال وأسبابه ومثله قوله تعالى « أهم يقسمون رحمة ربك ـ الى قوله ـ ورحمة ربك خير مما يجمعون » الوجه التاسع انه سبحانه أخبر ان التكاثر فى جمع المال وغيره ألهى الناس وشغلهم عن الآخرة والاستعداد لها وتوعدهم على ذلك فقال تعالى « الهكم التكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون » فأخبر سبحانه ان التكاثر شغل أهل الدنيا وألهاهم عن الله والدار الآخرة حتى حضرهم الموت فزاروا المقابر ولم يفيقوا من رقدة من الهاهم التكاثر وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت ايذانا بأنهم غير مستوطنين ولا مستقرين فى القبور وانهم فيها بمنزلة الزائرين يحضرونها مدة ثم يظعنون عنها كما كانوا فى الدنيا كذلك زائرين لها غير مستقرين فيها ودار القرار هى الجنة أو النار ولم يعين سبحانه المتكاثر به بل ترك ذكره إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشىء لا المتكاثر به كما يقال شغلك اللعب واللهو ولم يذكر مايلعب ويلهو به واما ارادة الاطلاق وهو كل ما

يكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا من مال أو جاه أو عبيد أو اماء أو بناء أو غراس أو علم لا يبتغى به وجه الله أو عمل لا يقربه الى الله فكل هذا من التكاثر الملهى عن الله والدار الآخرة وفى صحيح مسلم من حديث عبدالله بن الشخير انه قال انتهيت الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ الهاكم التكاثر قال يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك الا ماتصدقت فأمضيت أو اكلت فأفنيت أولبست فابليت ثم أوعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيداً مؤكدا اذا عاين تكاثره هباء منثورا وعلم دنياه التى كاثر بها انما كانت خدعا وغرورا فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له وخسر هنالك تكاثره كما خسره امثاله وبداله من الله مالم يكن فى حسابه وصار تكاثره الذى شغله عن الله والدار الآخرة من اعظم اسباب عذابه فعذب بتكاثره فى دنياه ثم عذب به فى البرزخ ثم يعذب به يوم القيامة فكان اشقى بتكاثره اذ افاد منه العطب دون الغنيمة والسلامة فلم يفز من تكاثره الا بأن صار من الاقلين ولم يحظ به من علوه به فى الدنيا الا بأن حصل مع الاسفلين فياله تكاثرا ما اقله ورزءاً ما اجله وغنى جالبا لكل فقر. وخيراً توصل به الى كل شر يقول صاحبه اذا انكشف عنه غطاؤه ياليتنى قدمت لحياتى وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتى « رب ارجعونى لعلى أعمل صالحا فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها » تلك كلمة يقولها فلا يعول عليها ورجعة يسألها فلا يجاب اليها وتأمل قوله أولا « رب » استغاث بربه ثم التفت الى الملائكة الذين امروا باحضاره بين يدى ربه تبارك وتعالى فقال « ارجعونى » ثم ذكر سبب سؤال الرجعة وهو ان يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه فيقال له

كلا لاسبيل لك الى الرجعى وقد عمرت مايتذكر فيه من تذكر ولما كان شأن الكريم الرحيم ان يجيب من استقاله وأن يفسح له فى المهلة ليتذكر ما فاته أخبر سبحانه ان سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها لاحقيقة تحتها وان سجيته وطبيعته تأبى ان تعمل صالحاً لو أجيب وانما ذلك شيء يقوله بلسانه وانه لورد لعاد لما نهى عنه وانه من الكاذبين فحكمة أحكم الحاكمين وعزته وعلمه وحمده يأبى اجابته الى ما سأل فانه لافائدة فى ذلك ولورد لكانت حالته الثانية مثل حالته الاولى كما قال تعالى «ولو ترى اذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون» وقد حام أكثر المفسرين حول معنى هذه الآية وما أوردوا فراجع اقوالهم تجدها لاتشفى عليلا ولا تروى غليلا ومعناها أجل وأعظم مما فسروها به ولم يتفطنوا لوجه الاضراب ببل ولا للامر الذى بدا لهم وكانوا يخفونه وظنوا ان الذى بدا لهم العذاب فلما لم يروا ذلك ملتئماً مع قوله ما كانوا يخفون من قبل قدروا مضافاً محذوفاً وهو خبر ما كانوا يخفون من قبل فدخل عليهم امر آخر لاجواب لهم عنه وهو أن القوم لم يكونوا يخفون شركهم وكفرهم بل كانوا يظهرونه ويدعون اليه ويحاربون عليه ولما علموا ان هذا وارد عليهم قالوا أن القوم فى بعض موارد القيمة ومواطنها اخفوا شركهم وجحدوه وقالوا والله ربنا ما كنا مشركين فلما وقفوا على النار بدا لهم جزاء ذلك الذى اخفوه قال الواحدى وعلى هذا اهل التفسير ولم يصنع ارباب هذا القول شيئا فان السياق والاضراب ببل والاخبار عنهم بأنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا

عنه وقولهم والله ربنا ما كنا مشركين لايلتئم بهذا الذى ذكروه فتامله. وقالت طائفة منهم الزجاج بل بدا للاتباع ما أخفاه عنهم الرؤساء من امر البعث. وهذا التفسير يحتاج الى تقدير وفيه من التكلف ما ليس بخاف. وأجود من هذا ما فهمه المبرد من الاية قال كأن كفرهم لم يكن بادياً لهم اذ خفيت عليهم مضرته. ومعنى كلامه انهم لما خفيت عليهم مضرة عاقبته ووباله فكأنه كان خفياً عنهم لم تظهر لهم حقيقته فلما عاينوا العذاب ظهرت لهم حقيقته وشره. قال وهذا كما تقول لمن كنت حدثته فى أمر قبل قد ظهر لك الآن ما كنت قلت لك وقد كان ظاهراً له قبل هذا ولا يسهل أن يعبر عن كفرهم وشركهم الذى كانوا ينادون به على رؤس الاشهاد ويدعون اليه كل حاضر وباد بانهم كانوا يخفونه لخفاء عاقبته عنهم ولا يقال لمن أظهر الظلم والفساد وقتل النفوس والسعى فى الارض بالفساد انه أخفى ذلك لجهله بسوء عاقبته وخفائها عليه فمعنى الآية والله أعلم بما أراد من كلامه ان هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار وعاينوها وعلموا أنهم داخلوها تمنوا أنهم يردون الى الدنيا فيؤمنون بالله وآياته ولا يكذبون رسله. فأخبر سبحانه أن الامر ليس كذلك وأنهم ليس فى طبائعهم وسجاياهم الايمان بل سجيتهم الكفر والشرك والتكذيب وأنهم لو ردوا لكانوا بعد الرد كما كانوا قبله وأخبر أنهم كاذبون فى زعمهم أنهم لو ردوا لآمنوا وصدقوا. فاذا تقرر مقصود الآية ومرادها تبين لك معنى الاضراب ببل وتبين معنى الذى بدا لهم والذى كانوا يخفونه والحامل لهم على قولهم يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا. فالقوم كانوا يعلمون أنهم كانوا فى الدنيا على باطل وأن الرسل صدقوهم فيما بلغوهم عن الله وتيقنوا ذلك وتحققوه ولكنهم

اخفوه ولم يظهروه بينهم بل تواصوا بكتمانه فلم يكن الحامل لهم على تمنى الرجوع والايمان معرفة ما لم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل فانهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه وظهر لهم يوم القيمة ما كانوا ينطوون عليه من علمهم انهم على باطل وان الرسل على الحق فعاينوا ذلك عيانا بعد ان كانوا يكتمونه ويخفونه فلو ردوا لما سمحت نفوسهم بالايمان ولعادوا الى الكفر والتكذيب فانهم لم يتمنوا الايمان لعلمهم يومئذ انه هو الحق وان الشرك باطل وانما تمنوا لما عاينوا العذاب الذى لا طاقة لهم باحتماله وهذا كمن كان يخفى محبة شخص ومعاشرته وهو يعلم ان حبه باطل وان الرشد فى عدوله عنه فقيل له ان اطلع عليه وليه عاقبك وهو يعلم ذلك ويكابر ويقول بل محبته ومعاشرته هى الصواب فلما اخذه وليه ليعاقبه على ذلك وتيقن العقوبة تمنى ان يعفى من العقوبة وانه لا يجتمع به بعد ذلك وفى قلبه من محبته والحرص على معاشرته ما يحمله على المعاودة بعد معاينة العقوبة بل بعد ان مسته وأنهكته فظهر له عند العقوبة ما كان يخفى من معرفته بخطأه وصواب ما نهاه عنه ولو رد لعاد لما نهى عنه . وتأمل مطابقة الاضراب لهذا المعنى وهو نفى قولهم انا لو رددنا لآمنا وصدقنا لانه ظهر لنا الآن ان ما قالت الرسل هو الحق أى ليس كذلك بل كنتم تعلمون ذلك وتعرفونه وكنتم تخفونه فلم يظهر لكم شىء لتكونوا عالمين به لتعذروا بل ظهر لكم ما كان معلوما وكنتم تتواصون باخفائه وكتمانه والله اعلم

ولا تستطل هذا الفصل المعترض فى اثناء هذه المسألة فلعله اهم منها وانفع وبالله التوفيق

فلنرجع الى تمام الكلام فيها وقوله « كلا لو تعلمون علم اليقين » جوابه محذوف دل عليه ما تقدم أى لما الهاكم التكاثر وانما وجد هذا التكاثر والهاؤه عما هو أولى بكم لما فقد منكم علم اليقين وهو العلم الذى يصل به صاحبه الى حد الضروريات التى لا يشك ولا يمارى فى صحتها وثبوتها ولو وصلت حقيقة هذا العلم الى القلب وباشرته لما ألهاه عن موجبه وترتب أثره عليه فان مجرد العلم بقبح الشىء وسوء عواقبه قد لا يكفى فى تركه فاذا صار له علم اليقين كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشد فاذا صار عين يقين كجملة المشاهدات كان تخلف موجبه عنه من أندر شىء وفى هذا المعنى قال حسان بن ثابت رضى الله عنه فى أهل بدر :

سرنا وساروا الى بدر لحتفهم   لو يعلمون يقين العلم ما ساروا

وقوله « كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون » قيل تأكيد لحصول العلم كقوله « كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون » وقيل ليس تأكيداً بل العلم الاول عند المعاينة ونزول الموت والعلم الثانى فى القبر هذا قول الحسن ومقاتل ورواه عطاء عن ابن عباس ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه : احدها ان الفائدة الجديدة والتأسيس هو الاصل وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته وعدم الاخلال بالفصاحة . الثانى توسط « ثم » بين العلمين وهى مؤذنة بتراخى ما بين المرتبتين زمانا وخطرا . الثالث ان هذا القول مطابق للواقع فان المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه ثم يعلم فى القبر وما بعده ذلك علما هو فوق العلم الاول . الرابع ان على بن أبى طالب رضى الله عنه وغيره من السلف فهموا من

الآية عذاب القبر . قال الترمذى حدثنا أبو كريب حدثنا حكام بن سليم الرازى عن عمرو بن أبى قيس عن الحجاج بن المنهال بن عمرو عن زرّ عن على رضى الله عنه قال مازلنا نشك فى عذاب القبر حتى نزلت « الهـكم التكاثر » قال الواحدى يعنى ان معنى قوله « كلا سوف تعلمون » فى القبر.

الخامس ان هذا مطابق لما بعده من قوله « لترونّ الجحيم ثم لترونها عين اليقين » فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين اطلاق الأولى وتقييد الثانية بعين اليقين وتقدم الاولى وتراخى الثانية عنها ثم ختم السورة بالاخبار المؤكد بواو القسم ولام التأكيد والنون الثقيلة عن سؤال النعيم فكل أحد يسئل عن نعيمه الذى كان فيه فى الدنيا هل ناله من حلاله ووجهه أم لا فاذا تخلص من هذا السؤال سئل سؤالا آخر هل شكر الله تعالى عليه فاستعان به على طاعته أم لا فالاول سؤال عن سبب استخراجه والثانى عن محل صرفه كما فى جامع الترمذى من حديث عطاء بن ابى رباح عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسئل عن خمس عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من اين اكتسبه وفيما انفقه وفيماذا عمل فيما علم » وفيه أيضاً عن أبى برزة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسئل عن عمره فيما أفناه وعن علمه فيما عمل فيه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أبلاه » قال هذا حديث صحيح وفيه أيضاً من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان أول مايسئل عنه العبد يوم القيامة يعنى من النعيم ان يقال له ألم نصح جسمك ونرويك من الماء البارد » وفيه أيضاً من حديث

الزبير بن العوام رضى الله عنه قال لما نزلت « لتسئلن يومئذ عن النعيم » قال الزبير يارسول الله فأى النعيم نسئل عنه وانما هو الاسودان التمر والماء قال اما انه سيكون قال هذا حديث حسن وعن أبى هريرة نحوه وقال انما هو الاسودان العدو حاضر سيوفنا على عواتقنا قال ان ذلك سيكون وقوله ان ذلك سيكون اما أن يكون المراد به ان النعيم سيكون ويحدث لكم واما ان يرجع الى السؤال أى ان السؤال يقع عن ذلك وان كان تمرا وماء فانه من النعيم ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح وقد أكلوا معه رطبا ولحما وشربوا من الماء البارد « هذا من النعيم الذى تسئلون عنه يوم القيامة » فهذا سؤال عن شكره والقيام بحقه وفى الترمذى من حديث أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يجاء بالعبد يوم القيامة كانه بذج[١] فيوقف بين يدى الله تعالى فيقول الله اعطيتك وخولتك وانعمت عليك فماذا صنعت فيقول يارب جمعته وثمرته فتركته أوفر ما كان فارجعنى آتك به فاذا عبد لم يقدم خيراً فيمضى به الى النار » وفيه من حديث ابى سعيد وابى هريرة رضى الله عنهما قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالا وولداً وسخرت لك الانعام والحرث وتركتك ترأس وتربع افكنت تظن انك ملاقى يومك هذا . فيقول : لا . فيقول له اليوم أنساك كما نسيتنى » قال هذا حديث صحيح وقد زعم طائفة من المفسرين ان هذا الخطاب خاص بالكفار وهم المسؤولون عن النعيم وذكروا ذلك

---

(١) فى النهاية : « يؤتى بابن آدم يوم القيامة كانه بذج من الذل » البذج ولد الضأن وجمعه بذجان

عن الحسن ومقاتل واختار الواحدى ذلك واحتج بحديث ابى بكر لما نزلت هذه الآية قال يارسول الله أرأيت أكلة أكلتها معك ببيت ابى الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم وبسر قد ذنب وماء عذب أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذى نسئل عنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما ذلك للكفار ثم قرأ « وهل نجازى الا الكفور » قال الواحدى والظاهر يشهد بهذا القول لان السورة كلها خطاب للمشركين وتهديد لهم والمعنى ايضاً يشهد بهذا القول وهو ان الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم حيث أشركوا به وعبدوا غيره فاستحقوا ان يسئلوا عما أنعم به عليهم توبيخاً لهم هل قاموا بالواجب فيه أم ضيعوا حق النعمة ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم . قال وهذا معنى قول مقاتل وهو قول الحسن قال لايسئل عن النعيم الا اهل النار . قلت ليس فى اللفظ ولا فى السنة الصحيحة ولا فى أدلة العقل مايقتضى اختصاص الخطاب بالكفار بل ظاهر اللفظ وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بالهاء التكاثر له فلاوجه لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك ويدل على ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم عند قراءة هذه السورة يقول ابن آدم مالى مالى . وهل لك من مالك الا ما أكلت فافنيت او لبست فابليت الحديث وهو فى صحيح مسلم وقائل ذلك قد يكون مسلما وقد يكون كافراً ويدل عليه أيضا الاحاديث التى تقدمت وسؤال الصحابة النبى صلى الله عليه وسلم وفهمهم العموم حتى قالوا له وأى نعيم نسئل عنه وانما هو الاسودان فلو كان الخطاب مختصا بالكفار لبين لهم ذلك وقال مالكم ولها انما هى للكفار فالصحابة فهموا التعميم والاحاديث صريحة

فى التعميم والذى انزل عليه القرآن أقرهم على فهم العموم وأما حديث أبى بكر الذى احتج به أرباب هذا القول فحديث لا يصح والحديث الصحيح فى تلك القصة يشهد ببطلانه ونحن نسوقه بلفظه ففى صحيح مسلم عن ابى هريرة قال « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو ليلة فاذا هو بابى بكر وعمر فقال ما اخرجكما من بيوتكما هذه الساعة قالا الجوع يارسول الله قال وأنا والذى نفسى بيده لاخرجنى الذى أخرجكما قوما » فقاما معه فأتى رجلا من الانصار فاذا هو ليس فى بيته فلما رأته امرأته قالت مرحباً واهلا فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأين فلان قالت ذهب يستعذب لنا من الماء اذ جاء الانصارى فنظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه فقال الحمد لله ما احد اليوم اكرم اضيافاً منى قال فانطلق فجاءهم بعذق [1] فيه بسر وتمر ورطب فقال كلوا من هذا فأخذ المدية فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم اياك والحلوبة فذبح لهم فأكلوا من الشاء ومن ذلك العذق وشربوا فلما ان شبعوا ورووا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى بكر وعمر والذى نفسى بيده لتسئلن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى اصابكم هذا النعيم » فهذا الحديث الصحيح صريح فى تعميم الخطاب وانه غير مختص بالكفار وايضاً فالواقع يشهد بعدم اختصاصه وان الالهاء بالتكاثر واقع من المسلمين كثيرا بل اكثرهم قد الهاه التكاثر وخطاب القرآن عام لمن بلغه وان كان اولُ من دخل فيه المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهو متناول لمن بعدهم وهذا معلوم بضرورة الدين وان نازع فيه من لا يعتد

(١) العذق بالفتح النخلة بحملها . والعذق بالكسر الكباسة . مختار الصحاح

بقوله من المستأخرين فنحن اليوم ومن قبلنا ومن بعدنا داخلون تحت قوله
تعالى «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام» ونظائره كما دخل تحته الصحابة
بالضرورة المعلومة من الدين فقوله «الهكم التكاثر» خطاب لكل من
اتصف بهذا الوصف وهم فى الالهاء والتكاثر درجات لا يحصيها الا الله فان قيل
فالمؤمنون لم يلههم التكاثر ولهذا لم يدخلو فى الوعيد المذكور لمن ألهاه
قيل هذا هو الذى اوجب لارباب هذا القول تخصيصه بالكفار لانه
لم يمكنهم حمله على العموم ورأوا ان الكفار احق بالوعيد فخصوهم به
وجواب هذا أن الخطاب للانسان من حيث هو انسان على طريقة القرآن
فى تناول الذم له من حيث هو انسان كقوله «وكان الانسان عجولا»
«وكان الانسان قتوراً» . «ان الانسان لربه لكنود» «وحملها الانسان انه
كان ظلوماً جهولا». «ان الانسان لكفور» ونظائره كثيرة فالانسان
من حيث هو عار عن كل خير من العلم النافع والعمل الصالح وانما الله
سبحانه هو الذى يكمله بذلك ويعطيه اياه وليس له ذلك من نفسه بل
ليس له من نفسه الا الجهل المضاد للعلم والظلم المضاد للعدل وكل علم
وعدل وخير فيه فمن ربه لا من نفسه فالهاء التكاثر طبيعته وسجيته التى
هى له من نفسه ولا خروج له عن ذلك الا بتزكية الله له وجعله مريدا
للآخرة مؤثرا لها على التكاثر بالدنيا فان اعطاه ذلك والا فهو ملتهٍ بالتكاثر
فى الدنيا ولا بد. وأما احتجاجه بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار
فيقال الوعيد المذكور مشترك وهو العلم عند معاينة الآخرة فهذا امر
يحصل لكل احد لم يكن حاصلا له فى الدنيا وليس فى قوله «سوف
تعلمون» ما يقتضى دخول النار فضلا عن التخليد فيها وكذلك رؤية الجحيم

لا يستلزم دخولها لكل من رآها فان أهل الموقف يرونها ويشاهدونها
عيانا وقد أقسم الرب تبارك وتعالى ان لا بد أن يراها الخلق كلهم مؤمنهم
وكافرهم وبرهم وفاجرهم فليس فى جملة هذه السورة ما ينفى عموم خطابها
وأما ما ذكره عن الحسن انه لا يسئل عن النعيم الا أهل النار فباطل قطعا
اما عليه واما منه والاحاديث الصحيحة الصريحة تردّه وبالله التوفيق

ولا يخفى أن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشدة تخويفها وما
تضمنته من تحذير التكاثر الملهى وانطباق معناها على أكثر الخلق يأبى
اختصاصها من أولها الى آخرها بالكفار ولا يليق ذلك بها ويكفى فى
ذلك تأمل الاحاديث المرفوعة فيها والله اعلم. وتأمل ما فى هذا العتاب الموجع
لمن استمر على الهاء التكاثر له مدة حياته كلها الى ان زار القبور ولم يستيقظ
من نوم الالهاء بل ارقد التكاثر قلبه فلم يستفق منه الا وهو فى عسكر
الاموات وطابق بين هذا وبين حال اكثر الخلق يتبين لك ان العموم
مقصود وتأمل تعليقه سبحانه الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير
تقييد بتكاثر به ليدخل فيه التكاثر بجميع اسباب الدنيا على اختلاف اجناسها
وانواعها . وأيضا فان التكاثر تفاعل وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكثر
صاحبه فيكون أكثر منه فيما يكاثره به والحامل له على ذلك توهمه أن
العزة للكاثر كما قيل :

ولست بالأكثر منهم حصىً   وانما العزّة للكاثر

فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة
من الصحابة ولم تضرهم اذ لم يتكاثروا بها وكل من كاثر انسانا فى دنياه أو جاهه أو
غير ذلك شغلته مكاثرته عن مكاثرة أهل الآخرة فالنفوس الشريفة العلوية ذات

الهمم العالية انما تكاثر بما يدوم عليها نفعه وتكمل به وتزكو وتصير مفلحة فلا تحب أن يكثرها غيرها فى ذلك وينافسها فى هذه المكاثرة ويسابقها اليها فهذا هو التكاثر الذى هو غاية سعادة العبد وضده تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم فهذا تكاثر مله عن الله والدار الآخرة وهو صائر الى غاية القلة فعاقبة هذا التكاثر قل وفقر وحرمان والتكاثر بأسباب السعادة الاخروية تكاثر لا يزال يذكر بالله ولقائه ، وعاقبته الكثرة الدائمة التى لا تزول ولا تفنى ، وصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل منه قولا وأحسن عملا وأغزر علما واذا رأى غيره أكثر منه فى خصلة من خصال الخير يعجز عن لحاقه فيها كاثره بخصلة أخرى هو قادر على المكاثرة بها وليس هذا التكاثر مذموما ولا قادحا فى اخلاص العبد بل هو حقيقة المنافسة واستباق الخيرات وقد كانت هذه حال الاوس مع الخزرج رضى الله عنهم فى تصاولهم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكاثرة بعضهم لبعض فى أسباب مرضاته ونصره وكذلك كانت حال عمر مع أبى بكر رضى الله عنهما فلما تبين له مدى سبقه له قال : والله لا أسابقك الى شىء أبداً

فصل

ومن تأمل حسن موقع « كلا » فى هذا الموضع فانها تضمنت ردعا لهم وزجرا عن التكاثر ونفيا وابطالا لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم وعزتهم وكمالهم به فتضمنت اللفظة نهيا ونفيا وأخبرهم سبحانه انهم لا بد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم علما بعد علم وأنهم لا بد أن يروا دار المكاثرين بالدنيا التى الهتهم عن الآخرة رؤية بعد رؤية وانه سبحانه لا بد أن يسألهم عن

أسباب تكاثرهم من أين استخرجوها وفيما صرفوها فلله ما أعظمها من سورة وأجلها وأعظمها فائدة وأبلغها موعظة وتحذيرا وأشدها ترغيبا فى الآخرة وتزهيدا فى الدنيا على غاية اختصارها وجزالة ألفاظها وحسن نظمها فتبارك من تكلم بها حقا وبلغها رسوله عنه وحيا

فصل

وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم الى غاية كل حى زائرين غير مستوطنين بل هم مستودعون فى المقابر مدة وبين ايديهم دار القرار فاذا كانوا عند وصولهم الى الغاية زائرين فكيف بهم وهم فى الطريق فى هذه الدار فهم فيها عابرو سبيل الى محل الزيارة ثم منتقلون من محل الزيارة الى المستقر. فهاهنا ثلاثة أمور : عبور السبيل فى هذه الدنيا وغايته زيارة القبور وبعدها النقلة الى دار القرار

فصل

فلنرجع الى تمام المناظرة قالوا فالله تعالى حمى أولياءه عن الدنيا وصانهم عنها ورغب بهم عنها تكريما لهم وتطهيرا عن أدناسها ورفعة عن دناءتها وذمها لهم وأخبرهم بهوانها عليه وسقوط قدرها عنده واعلمهم ان بسطها فتنة وانه سبب الطغيان والفساد فى الأرض والهاء التكاثر بها عن طلب الآخرة وانها متاع الغرور وذم محبيها ومؤثريها وأخبر ان من أرادها أو أراد زينتها وحرثها فليس له فى الآخرة من نصيب وأخبر ان بسطها

فتنة وابتلاء لا كرامة ومحبة وان امداد أهلها بها ليس مسارعة لهم فى الخيرات وانها لا تقرّب اليه ولا تزلف لديه وانه لولا تتابع الناس فى الكفر لأعطى الكفار منها فوق مناهم ووسعها عليهم أعظم التوسعة بحيث يجعل سقوف بيوتهم وأبوابهم ومعارجهم وسررهم كلها من فضة وأخبر انه زينها لأعدائه ولضعفاء العقول الذين لا نصيب لهم فى الآخرة ونهى رسوله عن مدّ عينيه اليها والى ماتمتع به أهلها وذمّ من أذهب طيباته فيها واستمتع بها وقال لنبيه «ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون» وفى هذا تعزية لما منعه أولياءه من التمتع بالدنيا وكثرة الأكل فيها وتأديب لمن بسط له فيها الا يطغى فيها ولا يعطى نفسه شهواتها ولا يتمتع بها وذم سبحانه محبيها المفتخرين بها المكاثرين بها الظانين ان الفضل والكرامة فى سعتها وبسطها فأكذبهم الله سبحانه وأخبر انه ليس كما قالوه ولا توهموه ومثلها لعباده بالأمثلة التى تدعو كل لبيب عاقل الى الزهد فيها وعدم الوثوق بها والركون اليها فأحضر صورتها وحقيقتها فى قلوبهم بما ضرب لها مثلا كماء أنزله من السماء فخالط نبات الأرض فلما أخذت به الأرض زخرفها وتزينت بأنواع النبات أتاها أمره فجعل تلك الزينة يبساً هشيما تذروه الرياح كأن لم يكن قط منه شيء وأخبر سبحانه عن فنائها وسرعة انقضائها وانه اذا عاين العبد الآخرة فكأنه لبث فيها ساعة من نهار أو يوما أو بعض يوم ونهى سبحانه عباده ان يغتروا بها وأخبرهم انها لهو ولعب وزينة وتفاخر وتكاثر ومتاع غرور وطريق ومعبر الى الآخرة وانها عوض عاجل لا بقاء له ولم يذكر مريدها بخير قط بل حيث ذكره ذمه وأخبر ان مريدها مخالف لربه تعالى فى ارادته فالله يريد

شيئاً ومريد الدنيا يريد خلافه فهو مخالف لربه بنفس ارادته وكفى بهذا بعداً عنه سبحانه وأخبر سبحانه عن أهل النار انهم انما دخلوها بسبب غرور الدنيا وأمانيها لهم قالوا وهذا كله تزهيد لهم منه سبحانه فيها وترغيب فى التقلل منها ما أمكن قالوا وقد عرضها سبحانه وعرض مفاتيح كنوزها على أحب الخلق اليه وأكرمهم عليه عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم فلم يردها ولم يخترها ولو آثرها وأرادها لكان أشكر الخلق بما أخذه منها وأنفقه كله فى مرضاة الله وسبيله قطعا بل اختار التقلل منها وصبر على شدة العيش فيها قال الامام أحمد حدثنا اسماعيل بن محمد حدثنا عباد يعنى ابن عباد حدثنا مجالد بن سعيد عن الشعبى عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها قالت دخلت علىّ امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية فرجعت الى منزلها فبعثت الىّ بفراش حشوه الصوف فدخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذا فقلت فلانة الانصارية دخلت علي فرأت فراشك فبعثت الىّ بهذا فقال رديه فلم أرده وأعجبنى أن يكون فى بيتى حتى قال ذلك ثلاث مرار فقال ياعائشة رديه والله لو شئت لاجرى الله معى جبال الذهب والفضة (١) وعرض عليه مفاتيح كنوز الدنيا فقال بل أجوع يوما وأشبع يوماً فاذا جعت تضرعت اليك وذكرتك واذا شبعت حمدتك وشكرتك وسأل ربه ان يجعل رزق اهله قوتا كما فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه

(١) تقدم هذا الحديث فى ص ١٦٣

وسلم اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا وفيهما عنه قال والذى نفس أبى هريرة
بيده ماشبع نبى الله واهله ثلاثة أيام تباعا من خبز حنطة حتى فارق الدنيا
وفى صحيح البخارى عن أنس رضى الله عنه ما أعلم رسول الله صلى الله
عليه وسلم رأى رغيفا مرققا ولا شاة سميطاً قط حتى لحق بربه وفى
صحيحه أيضاً عنه قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يشبع من
خبز الشعير وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها ماشبع آل محمد منذ
قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعا حتى قبض وفى صحيح مسلم
عن عمر رضى الله عنه لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يظل اليوم
مايجد دقلا يملأ بطنه (١) وفى المسند والترمذى عن ابن عباس رضى الله
عنهما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالى المتتابعات
طاوياً واهله لايجدون عشاء وكان أكثر خبزهم خبز الشعير قال الترمذى
هذا حديث حسن صحيح وفى الترمذى من حديث أبى أمامة ما كان
يفضل أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خبز الشعير . وفى المسند
عن عائشة والذى بعث محمداً بالحق مارأى منخلا ولا أكل خبزاً منخولا
منذ بعثه الله عز وجل الى أن قبض قال عروة فقلت فكيف كنتم تأكلون
الشعير قالت كنا نقول أف أى تنفخه فيطير ماطار ونعجن الباقى وفى
صحيح البخارى عن أنس قال لقد رهن رسول الله صلى الله عليه وسلم
درعه بشعير ولقد سمعته يقول ما أصبح لآل محمد صاع ولا أمسى وانهم

---

(٢) فى النهاية: الدقل ردىء التمر ويابسه وما ليس له اسم خاص فتراه ليبسه
ورداءته لا يجتمع ويكون منثوراً

لتسعة أبيات وفى مسند الحارث عن ابى أسامة عن أنس ان فاطمة رضى
الله عنها جاءت بكسرة خبز الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ماهذه
الكسرة يافاطمة قالت قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى اتيتك بهذه
الكسرة فقال اما انه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام وقال الامام
أحمد حدثنا وكيع حدثنا عبد الواحد بن ايمن عن ابيه عن جابر رضى الله عنه
قال لما حفر رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق اصابهم جهد شديد
حتى ربط النبى صلى الله عليه وسلم على بطنه حجراً من الجوع وقد اسرف
ابو حاتم بن حبان فى تقاسيمه فى رد هذا الحديث وبالغ فى انكاره فقال
المصطفى اكرم على ربه من ذلك وهذا من وهمه وليس فى هذا ماينقص
مرتبته عند ربه بل ذلك رفعة له وزيادة فى كرامته وعبرة لمن بعده من
الخلفاء والملوك وغيرهم وكأن أبا حاتم لم يتأمل سائر الأحاديث فى معيشة
النبى صلى الله عليه وسلم وهل ذلك الا من اعظم شواهد صدقه فانه لو
كان كما يقول أعداؤه وأعداء ربه انه ملك طالب ملك ودنيا لكان عيشه
عيش الملوك وسيرته سيرتهم ولقد توفاه الله وان درعه مرهونة عند
يهودى على طعام أخذه لأهله وقد فتح الله عليه بلاد العرب وجبيت اليه
الاموال ومات ولم يترك درهما واحداً ولا ديناراً ولا شاة ولا بعيراً
ولا عبداً ولا أمة قال الامام أحمد حدثنا حسين بن محمد بن مطرف عن
أبى حازم عن عروة انه سمع عائشة تقول كان يمر بنا هلال وهلال مايوقد
فى بيت من بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم نار قلت ياخالة فعلى
أى شىء كنتم تعيشون قالت على الاسودين التمر والماء . وقد تقدم حديث
أبى هريرة فى قصة أبى الهيثم بن التيهان وانه خرج رسول الله صلى الله

عليه وسلم من بيته فرأى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما فقال ما أخرجكما
قالا الجوع قال وأنا والذى نفسى بيده لاخرجنى الذى أخرجكما وذكر أحمد
من حديث مسروق قال دخلت على عائشة فدعت لى بطعام وقالت ما أشبع
من طعام فأشاء أن أبكى الا بكيت قال قلت لم قالت اذكر الحال التى فارق
عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا والله ماشبع فى يوم مرتين من
خبز البر حتى قبض وفيه عنها ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من
خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض والحديثان صحيحان . وفيه أيضاً
عنها ماشبع آل محمد من خبز مأدوم ثلاثة أيام حتى لحق بالله عز وجل
وفى الصحيحين عن أبى هريرة ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأهله ثلاثا تباعاً من خبز البر حتى فارق الدنيا . وفى الترمذى عن ابن
عباس رضى الله عنهما قال كان النبى صلى الله عليه وسلم يبيت الليالى المتتابعة
طاويا وأهله لا يجدون عشاء وكان اكثر خبزهم خبز الشعير وفيه أيضا
عن انس عنه صلى الله عليه وسلم لقد أخفت فى الله وما يخاف أحد ولقد أوذيت
فى الله وما يؤذى أحد ولقد أتت على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى
ولبلال طعام يأكله ذو كبد الا شىء يواريه ابط بلال والحديثان صحيحان
وفيه أيضا عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن ابى طلحة رضى الله عنه
قال شكونا الى رسول الله صلي الله عليه وسلم الجوع ورفعنا عن بطوننا
حجراً حجراً فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين . وفيه ايضا
عن علقمة عن عبدالله رضى الله عنه قال نام رسول الله صلى الله عليه وسلم
على حصير فقام وقد اثر فى جنبه فقلنا يارسول الله لو اتخذنا لك وطاء
فقال مالى وللدنيا ما أنا فى الدنيا الا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح

وتركها حسن صحيح . وفيه عن على رضى الله عنه قال خرجت فى يوم
شات من بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد اخذت إهابا معطونا
فجوّبت وسطه وادخلته فى عنقى فشددت به وسطى فحزمته بخوص من
النخل وانى لشديد الجوع ولو كان فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم
طعام لطعمت منه فخرجت التمس شيئاً فمررت بيهودى فى مال له وهو
يسقى ببكرة له فاطلعت عليه من ثلمة من الحائط فقال مالك يا اعرابى
وهل لك فى كل دلو بتمرة قلت نعم فافتح الباب حتى أدخل ففتح فدخلت
فأعطانى دلوه فكلما نزعت دلواً أعطانى تمرة حتى امتلأت كفى ارسلت
دلوه وقلت حسبى فأكلتها ثم جرعت من الماء فشربت ثم جئت الماء فوجدت
رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه . وقال سعد بن ابى وقاص رضى الله
عنه لقد رأيتنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مالنا طعام الا
الحبلة وهذا السمر والحبلة ثمر العضاه ذات الشوك وهو حديث صحيح
وكان صلى الله عليه وسلم يصلى من الليل أحياناً وعليه كساء صوف بعضه
عليه وبعضه على عائشة . قال الحسن اثمان ستة دراهم أو سبعة . وقال
أحمد حدثنا أبو سعيد حدثنا أبو زائدة حدثنا عطاء عن أبيه عن على قال جهز
رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة فى خميل وقربة ووسادة من أدم
حشوها ليف والخميل الكساء الذى خمل . قال وحدثنا بهز بن أسد حدثنا
سليمان بن المغيرة عن حميد قال قال أبو بردة دخلت على عائشة فأخرجت
الينا إزاراً غليظاً مما يصنع باليمن وكساء من هذه التى تدعونها الملبدة
فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذين الثوبين . قالوا ولو
كان الغنى مع الشكر أفضل من الفقر مع الصبر لاختاره رسول الله صلى

الله عليه وسلم اذ عرضت عليه الدنيا ولأمره ربه ان يسأله اياه كما أمره
ان يسأله زيادة العلم ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليختار الا
ما اختاره الله له ولم يكن الله ليختار له الا الافضل اذ كان أفضل خلقه
وأكملهم . قالوا وقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم ان خير الرزق ما كان
بقدر كفاية العبد فلا يعوزه مايفقره ولا يفضل عنه مايطغيه ويلهيه قال
الامام أحمد حدثنا ابن مهدى حدثنا همام عن قتادة عن خليد العصرى عن
أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماطلعت شمس قط الا
بعث بجنبتيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض الا الثقلين ياأيها الناس
هلموا الى ربكم فان ماقل وكفى خير مما كثر وألهى ولا آبت شمس قط
الا بعث بجنبتيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض الا الثقلين اللهم
أعط منفقا خلفا واعط ممسكا تلفا . وقال الامام أحمد حدثنا وكيع حدثنا
أسامة بن زيد عن محمد بن عبد الرحمن بن أبى لبيبة عن سعد بن مالك رضى
الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الرزق ما يكفى وخير
الذكر الخفى . وتأمل جمعه فى هذا الحديث بين رزق القلب والبدن رزق
الدنيا والآخرة وإخباره ان خير الرزقين مالم يتجاوز الحد فيكفى من
الذكر اخفاؤه فان زاد على الاخفاء خيف على صاحبه الرياء والتكبر به
على الغافلين وكذلك رزق البدن اذا زاد على الكفاية خيف على صاحبه
الطغيان والتكاثر . قالوا وقد غبط رسول الله صلى الله عليه وسلم المتقلل
من الدنيا مالم يغبط به الغنى . قال الامام أحمد حدثنا وكيع حدثنا على بن
صالح عن أبى المهلب عن عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد عن القاسم
عن أبى أمامة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ان

أغبط أوليائى عندى مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة أحسن عبادة
ربه وكان غامضا فى الناس لايشار اليه بالأصابع فعجلت منيته وقل
تراثه وقلت بواكيه» قال عبدالله بن أحمد سألت أبى ماتراثه قال ميراثه قالوا
وحمية الله لعبده المؤمن عن الدنيا انما هو من محبته له وكرامته قال الامام
أحمد حدثنا أبو سعيد حدثنا سليمان بن بلال عن عمرو بن ابى عمرو عن عاصم
ابن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال « ان الله تبارك وتعالى يحمى عبده المؤمن من الدنيا وهو
يحبه كما تحمون مرضاكم الطعام والشراب تخافون عليهم » قالوا وقل أن
يقع اعطاء الدنيا وتوسعتها الا استدراجا من الله الا اكراما ومحبة لمن
أعطاه قال الامام أحمد حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين بن سعد عن
حرملة بن عمران التجيبى عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر رضى الله
عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال« اذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا
على معاصيه وما يحب فانما هو استدراج » ثم تلى قوله تعالى « فلما نسوا
ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء » الآية قالوا ولهوان الدنيا على
الله منعها أكثر أوليائه وأحبائه قال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا
الأعمش عن سالم بن ابى الجعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« ان من أمتى من لو أتى باب أحدكم فسأله دينارا لم يعطه اياه ولو سأله
فلسا لم يعطه اياه ولو سأل الله تعالى الجنة لاعطاه اياه ولو سأله الدنيا لم
يعطها اياه وما يمنعها اياه لهوانه عليه ذو طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله
لابره » وهذا يدل على انه انما يمنعه اياها لهوانها عليه لا لهوانه هو عليه

ولهذا يعطيه أفضل منها وأجل فان الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لايحب ولا يعطى الآخرة الا من يحب قالوا وقد أخبرهم النبى صلى الله عليه وسلم ان أقربهم منه مجلساً ذووا التقلل من الدنيا الذين لم يستكثروا منها قال الامام أحمد حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا محمد بن عمرو قال سمعت عراك بن مالك يقول قال أبو ذر : انى لاقربكم مجلساً من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة وذلك انى سمعته يقول « ان أقربكم منى مجلساً يوم القيامة من خرج من الدنيا كهيئة ماتركته فيها » وانه والله مامنكم من أحد الا وقد تشبث منها بشىء غيرى. قالوا وقد غبط النبى صلى الله عليه وسلم من كان عيشه كفافا وأخبر بفلاحه قال الامام أحمد حدثنا عبد الله بن يزيد حدثنا حيوة قال أخبرنى أبو هانىء ان أبا على الجبشى أخبره انه سمع فضالة بن عبيد يقول انه سمع رسول الله صلى الله عايه وسلم يقول « طوبى لمن هدى الى الاسلام وكان عيشه كفافا وقنع » وذكر أيضاً من حديث عبد الله بن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه » قالوا ولو لم يكن فى التقلل الا خفة الحساب لكفى به فضلا على الغنى .قال عبد الله بن الامام أحمد حدثنا بيان بن الحكم حدثنا محمد بن حاتم قال حدثنى بشر بن الحارث حدثنا عيسى بن يونس عن هشام عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لايحاسب بهن العبد : ظل خص يستظل به وكسرة يشد بها صلبه وثوب يوارى عورته » وقال الامام أحمد حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا ليث عن أبى عثمان قال : لما افتتح المسلمون جوجى دخلوا يمشون فيها وا كداس الطعام فيها أمثال الجبال ورجل

يمشى الى جنب سلمان فقال « يا أبا عبد الله ألا ترى الى مافتح الله علينا الا ترى الى ماأعطانا الله » فقال سلمان « وما يعجبك مما ترى الى جنب كل حبة مما ترى حساب » قالوا وقد شهد النبى صلى الله عليه وسلم لاصحابه انهم يوم فقرهم وفاقتهم خير منهم يوم غناهم وبسط الدنيا عليهم قال الامام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا أبو الأشهب عن الحسن قال قال نبى الله صلى الله عليه وسلم « ياأهل الصفة كيف أنتم » قالوا « نحن بخير » قال « أنتم اليوم خير أم يوم تغدو على أحدكم جفنة وتروح أخرى ويغدو فى حلة ويروح فى أخرى وتسترون بيوتكم مثل أستار الكعبة » قالوا « يانبى الله نحن يومئذ خير يعطينا ربنا تبارك وتعالى فنشكر » قال « بل أنتم اليوم خير » فهذا صريح فى انهم فى وقت صبرهم على فقرهم خير منهم فى وقت غناهم مع الشكر وقال عبدالله بن أحمد حدثنا ابن ذر حدثنا حفص ابن غياث عن داود بن أبى هند عن أبى حرب بن أبى الأسود عن طلحة البصرى قال : قدمت المدينة ولم يكن لى بها معرفة فكان يجرى علينا مد من تمر بين اثنين فصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة فهتف به هاتف من خلفه فقال « يارسول الله قد حرق بطوننا التمر وعزفت عنا الكنف » فخطب فحمد الله وأثنى عليه وقال « والله لو أجد لكم اللحم والخبز لاطعمتكموه . وليأتين عليكم زمان تغدو على أحدكم الجفان وتراح . ولتلبسن بيوتكم مثل أستار الكعبة » قالوا « يارسول الله نحن اليوم خير منا أو يومئذ قال « بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ أنتم اليوم خير منكم يومئذ يضرب بعضكم رقاب بعض » قال الامام أحمد وحدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة قال ذكر لنا ان نبى الله صلى

الله عليه وسلم دخل على أهل الصفة فذكر نحوه . قالوا ولو لم يكن فى
الغنى والمال الا انه فتنة وقل من سلم من اصابتها له وتأثيرها فى دينه كما
قال تعالى « انما أموالكم وأولادكم فتنة » وفى الترمذى من حديث كعب
ابن عياض قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان لكل أمة
فتنة وفتنة أمتى المال » قال هذا حديث حسن صحيح . قالوا والمال يدعو
الى النار والفقر يدعو الى الجنة قال الامام أحمد حدثنا يزيد حدثنا أبو
الأشهب حدثنا سعيد بن أيمن مولى كعب بن سور قال بينا رسول الله
صلى الله عليه وسلم يحدث أصحابه اذ جاء رجل من الفقراء فجلس الى جنب
رجل من الأغنياء فكأنه قبض من ثيابه عنه فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم « أخشيت يافلان أن يغدو غناك عليه أو يغدو فقره عليك »
قال « يارسول الله وشر الغنى قال « نعم ان غناك يدعوك الى النار وان
فقره يدعوه الى الجنة » قال « فما ينجينى منه » قال « تواسيه » قال « اذاً
افعل » فقال « الآخر لا أرب لى فيه » قال « فاستغفر وادع لاخيك » قالوا
وحق الغنى أعظم من أن يقوم العبد بشكره وقد روى الترمذى فى جامعه
من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم
قال « ليس لابن آدم حق فى سوى هذه الخصال : » بيت يسكنه وثوب
يوارى به عورته وجلف الخبز والماء (١) قال هذا حديث حسن صحيح
وفى صحيح مسلم عن أبى أمامة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله

(١) فى النهاية الجلف الخبز لا أدم معه . وقيل الخبز الغليظ اليابس . فروى
بفتح اللام جمع جلفة وهى الكسرة من الخبز . وقال الهروى : الجلف هاهنا
الظرف مثل الخرج والجوالق يريد ماترك فيه الخبز

عليه وسلم « يا ابن آدم انك ان تبذل الفضل خير لك وان تمسكه شر لك
ولا تلام على كفاف وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى »
وفى صحيحه أيضا من حديث أبى نضرة عن ابى سعيد رضى الله عنه قال : بينما
نحن فى سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ جاء رجل على راحلة له فجعل
يضرب يميناً وشمالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان معه فضل
من ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان عنده فضل من زاد فليعد به على
من لا زاد له » قال فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى ظننا انه لا حق
لأحد منا فى فضل . قالوا فهذا موضع النظر فى تفضيل الغنى الشاكر
يبذل الفضل كله وأما غنى يتمتع بأنواع الفضل ويشكر بالواجب وبعض
المستحب فكيف يفضل على فقير صابر راض عن الله فى فقره . قالوا
وقد أقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه وهم أئمة الشاكرين انه لا يخاف
عليهم الفقر وانما يخاف عليهم الغنى . ففى الصحيحين من حديث عمرو بن
عوف وكان شهد بدرا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة
ابن الجراح الى البحرين يأتى بجزيتها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
صالح أهل البحرين وأمر عليهم العلاء بن الحضرمى فقدم أبو عبيدة بمال
من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ثم
قال « أظنكم سمعتم أبا عبيدة قدم بشىء من البحرين » فقالوا « أجل
يارسول الله » قال « أبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم
ولكنى أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم

فتنافسوا فيها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم) قال الامام احمد حدثنا روح حدثنا هشام عن الحسن قال قيل لابى ثعلبة الخشنى «أين دنيا كم والى كنتم تعدون يا أصحاب محمد» قال «ليبشر الآخر بدنيا قد اظلت تأكل والله الذى لا اله الا هو الايمان كما تأكل النار الحطب الجزل» وقال احمد حدثنا يزيد حدثنا هشام بن حسان قال سمعت الحسن يقول «والله ما أحد من الناس بسط الله له دنياه فلم يخف أن يكون قد مكر به فيها الا كان قد نقص عامه وعجز رأيه وما أمسكها الله عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها الا كان قد نقص عامه وعجز رأيه» قالوا وقد مر على النبى صلى الله عليه وسلم فقير وغنى فقال عن الفقير «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا» وروى البخارى فى صحيحه عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «ما تقولون فى هذا» فقالوا «حرى ان خطب ان ينكح وان شفع ان يشفع وان قال ان يسمع» قال ثم سكت فمر رجل من فقراء المسلمين فقال «ما تقولون فى هذا» قالوا «حرى ان خطب أن لا ينكح وان شفع ألا يشفع وان قال أن لا يسمع لقوله» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا» وقد بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقراء الصابرين بما لم يبشر به الأغنياء ففى الترمذى من حديث فضالة بن عبيد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم فى الصلاة من الخصاصة وهم أصحاب الصفة حتى يقول الأعراب هؤلاء مجانين فاذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف اليهم وقال «لو تعلمون ما لكم عند الله لاحببتم

ان تزدادوا فاقة وحاجة» قال فضالة وأنا يومئذ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبشرهم بسبقهم الأغنياء الى الجنة وقد اختلفت الروايات فى مدة هذا السبق ففى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر انه جاء ثلاثة نفر فقالوا «يا أبا محمد والله ما نقدر على شىء : لا نفقة ولا دابة ولا متاع» فقال لهم «ما شئتم . ان شئتم رجعتم الينا فأعطيناكم ما يسر الله لكم، وان شئتم ذكرنا أمركم للسلطان ، وان شئتم صبرتم فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيمة بأربعين خريفاً قالوا نصبر ولا نسأل شيئا» وقال الامام احمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام» قال الترمذى حديث حسن صحيح وفى الترمذى أيضاً من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة سنة» وهو حديث حسن وفيه أيضاً من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً وهو حديث حسن وهو موافق لحديث عبد الله بن عمر ولحديث أنس الذى فى الترمذى ان المساكين يدخلون قبل الأغنياء بأربعين خريفاً فهؤلاء ثلاثة جابر وأنس وعبد الله ابن عمر وقد اتفقوا على الاربعين وهذا أبو هريرة وابو سعيد قد اتفقا على التقدير بخمسمائة سنة ولا تعارض بين هذه الأحاديث اذ التأخر والسبق درجات بحسب الفقر والغنى فمنهم من يسبق بأربعين ومنهم من يسبق بخمسمائة ولا يتقيد السبق بهذا

المقدار بل يزيد عليه وينقص وقد روى ابو داود فى سننه من حديث
أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ان أول الأمة دخولا الى الجنة
أبو بكر الصديق رضى الله عنه ومعلوم ان المدة التى بينه وبين اخوانه
من فقراء المهاجرين لا تطول وانها أطول مدة بين دخوله وبين دخول
آخر من يدخل الجنة وقد روى الامام احمد فى مسنده من حديث عبدالله
ابن عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال هل تدرون
أول من يدخل الجنة قالوا الله ورسوله أعلم قال فقراء المهاجرين الذين
تتقى بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء
تقول الملائكة يا ربنا نحن ملائكتك وخزنتك وسكان سماواتك
لا تدخلهم الجنة قبلنا فيقول عبادى لايشركون بى شيئا يتقى بهم المكاره
يموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء فعند ذلك تدخل
عليهم الملائكة من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وقال
الامام احمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا دويد عن مسلم بن بشير عن
عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم «التقى مؤمنان على باب الجنة مؤمن غنى ومؤمن فقير كانا فى الدنيا
فأدخل الفقير الجنة وحبس الغنى ما شاء الله أن يحبس ثم أدخل الجنة فلقيه
الفقير فيقول أى أخى ماذا حبسك والله لقد احتبست حتى خفت عليك
فيقول أى أخى انى حبست بعدك محبسا فظيعا كريها ما وصلت اليك
حتى سال منى من العرق ما لو ورده الف بعير كلها اكلت حمضا لصدرت
عنه رواء» وقال الطبرانى فى معجمه حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى وعلى
ابن سعيد الرازى قالا حدثنا على بن بهرام العطار حدثنا عبد الملك بن أبى

كريمة عن الثورى عن محمد بن زيد عن ابى حازم عن ابى هريرة رضى الله
عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان فقراء المؤمنين
يدخلون الجنة قبل اغنيائهم بنصف يوم وذلك خمسمائة سنة فقال رجل
امنهم أنا يارسول فقال ان تغديت رجعت على عشاء واذا تعشيت يبيت
معك غداء قال نعم قال لست منهم فقام رجل فقال امنهم أنا يارسول الله
قال هل سمعت ماقلنا لهذا قال نعم ولست كذلك قال هل تجد ثوبا ستيراً
سوى ما عليك قال نعم قال فلست منهم فقام آخر فقال امنهم أنا يارسول
الله فقال هل سمعت ماقلت لهذين قبلك قال نعم قال هل تجد قرضا كلما
شئت ان تستقرض قال نعم قال فلست منهم فقام آخر فقال امنهم انا
يارسول الله فقال هل سمعت ماقلت لهؤلاء قال نعم قال تقدر أن تكتسب
قال نعم قال فلست منهم قال فقام خامس فقال أنا منهم يارسول الله فقال
هل سمعت ماقلت لهؤلاء قال نعم قال هل تمسى عن ربك راضيا وتصبح
كذلك قال نعم قال فانت منهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم «ان سادات
المؤمنين فى الجنة من اذا تغدى لم يجد عشاء واذا تعشى لم يبيت عنده غداء
وان استقرض لم يجد قرضا وليس له فضل كسوة الا مايوارى به ما لا يجد منه
بدا ولا يقدر على ان يكتسب مايعشيه ويمسى عن الله راضيا ويصبح راضيا
اولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين
وحسن اولئك رفيقا» قال الطبرانى هذا حديث غريب من حديث سفيان
الثورى عن محمد بن زيد يقال هو العبدى تفرد به عبد الملك قلت محمد هذا

هو العبدى وثقه قوم وضعفه آخرون قال الدار قطنى ليس بالقوى
وقال أبو حاتم صالح الحديث وذكره ابن حبان فى الثقات وروى له
الترمذى وابن ماجة وفى هذه الطبقة محمد بن زيد الشامى يروى عن أبى
سلمة بن عبد الرحمن وهو متروك ونخاف أن يكون هذا هو الثورى لم
ينسبه وانما يقال هو العبدى فالله أعلم . وقال الامام احمد حدثنا اسماعيل
ابن ابراهيم حدثنا هشام الدستوائى عن يحيى بن أبى كثير عن عامر
العقيلى عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم عرض علىّ أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار
فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة فالشهيد وعبد مملوك لم يشغله رق الدنيا عن
طاعة ربه وفقير متعفف ذو عيال وأما أول ثلاثة يدخلون النار فأمير مسلط
وذو ثروة من مال لا يؤدى حق الله فى ماله وفقير فخور وروى الترمذى
منه ذكر الثلاثة الذين يدخلون الجنة فقط قالوا ويكفى فى فضل الفقير
ان عامة أهل الجنة الفقراء وعامة أهل النار الاغنياء قال الامام احمد
حدثنا عبد الله بن محمد بن أبى شيبة حدثنا شريك عن أبى اسحق عن
السائب بن مالك عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت
فى النار فرأيت اكثر أهلها الاغنياء والنساء وفى صحيح البخارى عن أبى
رجاء قال جاء عمران بن حصين الى امرأته من عند رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقالت حدثنا ماسمعت من النبى صلى الله عليه وسلم فقال انه
ليس من حديث فلم تدعه أو قال فأغضبته فقال سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول نظرت فى الجنة فرأيت اكثر أهلها الفقراء ونظرت فى

النار فرأيت اكثر أهلها النساء . وفى الصحيحين من حديث أسامة بن
زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قمت على باب الجنة فاذا عامة
من دخلها المساكين وقمت على باب النار فاذا عامة من دخلها النساء وفى
صحيح مسلم عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم اطلع فى النار فرأى
اكثر أهلها النساء واطلع فى الجنة فرأى اكثر أهلها الفقراء قالوا ويكفى
فى فضل الفقر ان كل احد يتمناه يوم القيامة من الاغنياء قال الامام احمد
حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا اسماعيل يعنى ابن خالد عن نفيع عن انس
ابن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من
أحد يوم القيامة غنى ولا فقير الا ود ان ما كان أوتى فى الدنيا قوتاً قال
البخارى يتكلمون فى نفيع وهذا اليق ما قيل فيه قالوا وقد صرح رسول الله
صلى الله عليه وسلم فى تفضيل الفقراء فى غير حديث فمنها ماتقدم من
حديث سهل بن سعد وقال الامام احمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش
عن زيد بن وهب عن أبى ذر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم يا أبا ذر ارفع بصرك فانظر ارفع رجل تراه فى المسجد قال
فنظرت فاذا رجل جالس عليه حلة له قال فقلت هذا قال فقال يا أبا ذر
ارفع بصرك فانظر اوضع رجل تراه فى المسجد قال فنظرت فاذا رجل
ضعيف عليه أخلاق قال فقلت هذا قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
والذى نفسى بيده لهذا أفضل عند الله يوم القيامة من قراب الارض من
هذا قال حدثنا وكيع ووافقه زائدة حدثنا الاعمش عن سليمان بن يسار عن
خرشة بن الحر عن أبى ذر فذكره وقال لهذا خير عند الله يوم القيامة من
ملء الارض مثل هذا قال الامام احمد وحدثنا أبو معاوية ووافقه يعلى

قال حدثنا الاعمش عن زيد بن وهب عن ابى ذر فذكره قالوا والذى
يفصل بيننا فى هذه المسألة ويشفى العليل ان الفقر يوفر أجر صاحبه
ومنزلته عند الله والغنى ولو شكر فان ماناله فى الدنيا بغناه يحسب عليه
من ثوابه يوم القيامة وان تناوله بأحل وجه فقليل الفضل فى الدنيا انقص
من كثير الآخرة وفى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من غازية تغزو فى سبيل الله
فيصيبون الغنيمة الا تعجلوا ثلثى أجرهم من الآخرة ويبقى لهم الثلث
وان لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم وفى الصحيحين عن خباب بن الارث
رضى الله عنه قال هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نلتمس
وجه الله فوقع أجرنا على الله فمنا من مات لم يأكل من اجره شيئا منهم
مصعب بن عمير رضى الله عنه قتل يوم احد وترك نمرة فكنا اذا غطينا
بها رأسه بدت رجلاه واذا غطينا رجليه بدا رأسه فأمرنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم ان نغطى رأسه ونجعل على رجليه شيئا من الاذخر
ومنا من اينعت له ثمرته فهو يهدبها وفى الصحيحين عن قيس بن ابى حازم
قال دخلنا على خباب نعوده وقد اكتوى سبع كيات فقال ان اصحابنا
الذين سلفوا مضوا ولم تنقصهم الدنيا وذكر الحديث وقال سعيد بن
منصور حدثنا معوية عن الاعمش عن مجاهد عن ابن عمر رضى الله عنهما
قال ما اوتى عبد من الدنيا شيئا الا نقص من درجاته عند الله وان كان
عليه كريما وفى صحيح البخارى عن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال
اوتى عبد الرحمن رضى الله عنه بطعام وكان صائما فقال قتل مصعب بن
عمير وهو خير منى وكفن فى بردة ان غطى رأسه بدت رجلاه وان غطى

رجلاه بدا رأسه وقتل حمزة رضى الله عنه وهو خير منى فلم يوجد له
كفن الا بردة ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط او قال اعطينا من الدنيا
ما اعطينا وقد خشيت ان تكون عجلت لنا طيباتنا فى حياتنا الدنيا ثم
جعل يبكى حتى ترك الطعام قال ابو سعيد بن الاعرابى وليس عبد الرحمن
ابن عوف وخباب قالا ذلك دون غيرهما لقد قاله الا كابر من اصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم وكرهوا ما فتح الله عليهم من الدنيا وأشفقوا
منه وعلموا أن ما اختاره الله لنبيه كان أفضل وان ما أخروا له كان أنقص
منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وأبو عبيدة وعمار بن ياسر وسلمان
وعبد الله بن مسعود وعائشة أم المؤمنين وأبو هاشم بن عتبة وجماعة لم
نذكرهم للاختصار رضى الله عنهم فأما أبو بكر رضى الله عنه فحدثنا ابن
أبى الدنيا حدثنا عبد الرحمن بن أبان الطائى حدثنا عبد الصمد بن
عبد الوارث حدثنا عبد الواحد بن زيد حدثنى سلمان عن مرة عن زيد
ابن أرقم رضى الله عنه قال كنا مع أبى بكر الصديق رضى الله عنه فدعا
بشراب فأتى بماء وعسل فلما أدناه من فيه بكى وبكى حتى أبكى أصحابه
فسكتوا وما سكت ثم عاد وبكى حتى ظنوا انهم لم يقدروا على مسألته
قال ثم مسح عينيه فقالوا ياخليفة رسول الله ما أبكاك فقال كنت مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيته يدفع عن نفسه شيئا ولم أر معه أحدا
فقلت يارسول الله ما الذى تدفع عن نفسك قال هذه الدنيا مثلت لى
فقلت لها اليك عنى ثم رجعت فقالت انك ان افلت منى فلن يفلت منى
من بعدك وذكر ليث عن ابن سعد عن صالح بن كيسان عن حميد بن
عبد الرحمن بن عوف عن أبيه أن أبا بكر رضى الله عنه قال فى مرضه

الذى مات فيه انى وليت أمركم وانى لست بخيركم وكلكم ورم أنفه من
ذلك ان يكون هذا الامر له وذلك لما رأيت الدنيا قد أقبلت وأقبلت
ولم تقبل حتى يتخذوا نضائد الحرير وستور الديباج وحتى يألم احدكم من
الاضطجاع على الصوف كما يألم من الاضطجاع على الحسك والسعد ان
ثم أنتم اول ضال بالناس تصفقون بهم يمينا وشمالا اماهذا الطريق اخطأت
انما هو البحر أو الفجر والله لئن يقدم احدكم فتضرب عنقه فى غير حد
خير له من ان يخوض غمرات الدنيا وذكر محمد بن عطاء بن خباب
قال كنت جالسا مع أبى بكر فرأى طائرا فقال طوبى لك يا طائر تأكل
من هذا الشجر ثم تبعر ثم لاتكون شيئا وليس عليك حساب وددت
انى مكانك فقلت له انقول هذا وانت صديق رسول الله صلى الله عليه
وسلم. وأما عمر رضى الله عنه فانه لما اتى بكنوز كسرى بكى
فقال له عبد الرحمن بن عوف ما الذى يبكيك يأمير المؤمنين فوالله
ان هذا اليوم شكر ويوم سرور ويوم فرح فقال عمر ان هذا لم
يعطه قوم الا القى الله بينهم العداوة والبغضاء ودخل عليه أبو سنان الدؤلى
وعنده نفر من المهاجرين فارسل عمر الى سفط اتى به من قلعة بالعراق
وكان فيه خاتم فأخذه بعض ولده فأدخله فى فيه فانتزعه عمر منه ثم بكى فقال
له من عنده لم تبكى وقد فتح الله لك واظهرك واقر عينك فقال
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لاتفتح الدنيا على احد الا القى
الله بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة وانا مشفق من ذلك قال
ابو سعيد وجدت فى كتاب بخط يدى عن أبى داود قال « حدثنا محمد بن
عبيد حدثنا حماد حدثنا يونس عن الحسن ان عمر بن الخطاب رضى الله

عنه أتى بقلنسوة بغزوة كسرى بين يديه وفى القوم سراقة بن مالك فالقى
اليه سوارى كسرى فجعلهما فى يديه فبلغا منكبيه فلما رآهما فى يد سراقة
قال الحمد لله سوارا كسرى بن هرمز فى يد سراقة بن مالك بن جعشم
اعرابى من بنى مدلج ثم قال « اللهم قد علمت ان رسولك قد كان يحب ان
يصيب مالا فينفقه فى سبيلك وعلى عبادك فزويت ذلك عنه نظرا منك
له واختيارا اللهم انى أعوذ بك ان يكون هذا مكرا منك بعمر » ثم قال
« ايحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون »
والمقصود ان سعة الدنيا وبسطها تعجيل من اجر الاخرة وتضييق من
سعتها قال عبد الرزاق انبأنا معمر عن الزهرى عن ابن ابى صغيرة عن
جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال لما كان يوم أحد أشرف النبى صلى
الله عليه وسلم على الشهداء الذين قتلوا يومئذ فقال انى شهيد على هؤلاء
فزملوهم بد مائهم قال معمر واخبره فى من سمع الحسن يقول قال النبى صلى
الله عليه وسلم هؤلاء قد مضوا وقد شهدت عليهم لم ياكلوا من اجورهم
شيئا وانكم قد اكلتم من اجوركم وانى لاأدرى ماتحدثون بعدى . وقال
ابن المبارك اخبرنا جرير بن حازم قال سمعت الحسن يقول خرج رسول
الله صلى الله عليه وسلم باصحابه الى بقيع الغرقد فقال السلام عليكم يااهل
القبور لو تعلمون مانجاكم الله منه مما هو كائن بعدكم ثم أقبل على اصحابه
فقال هؤلاء خير منكم فقالوا يارسول الله اخواننا اسلمنا كما اسلموا
وهاجرنا كما هاجروا وجاهدنا كما جاهدوا واتوا على آجالهم فمضوا فيها
وبقينا فى آجالنا فما تجعلهم خيرا منا فقال ان هؤلاء خرجوا من الدنيا ولم
ياكلوا من اجورهم شيئا وخرجوا وأنا شهيد عليهم وانتم قد اكلتم من

اجوركم ولا أدرى ما تحدثون بعدى قال فلما سمعها القوم والله عقلوها
وانتفعوا بها فقالوا وانا لمحاسبون بما اصبنا من الدنيا بعدهم وانه لمنتقص
به من اجورنا فاكلوا طيبا وانفقوا قصدا وقدموا فضلا . وقال عبد الله
ابن أحمد قرأت على أبى هذا الحديث حدثنا اسود بن عامر حدثنا اسرائيل
عن ثوير عن مجاهد عن ابن عمر قال ما اعطى رجل من الدنيا الا نقص من
درجته قالوا وقد صرح سادات الاغنياء بانهم ابتلوا بالضراء فصبروا وابتلوا
بالسراء فلم يصبروا قال ذلك عبد الرحمن وغيره وكان هذا مصداقا لما رواه
مصعب بن سعد عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لانا من
فتنة السراء اخوف عليكم من فتنة الضراء انكم ابتليتم بالضراء فصبرتم وان
الدنيا حلوة خضرة قالوا وهاهنا قضيتان صادقتان بهما يتبين الفضل احدهما
أن الاكثرين هم الاقلون اما الأولى فقد تقدم الدليل عليها بما فيه كفاية
وأما الثانية ففى الصحيحين من حديث أبى ذر رضى الله عنه قال خرجت
ليلة من الليالى فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى وحده ليس معه
أنسان قال فظننت انه يكره ان يمشى معه احد فجعلت امشى فى ظل القمر
فالتفت فرآنى فقال من هذا قلت ابو ذر جعلنى الله فداك قال يا اباذر
تعال فمشيت معه ساعة فقال ان المكثرين هم المقلون يوم القيمة الا من
اعطاه الله خيراً فنفح فيه يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيرا
وذكر الحديث . قالوا ولو كان الغنى افضل من الفقر لما حض الله رسوله
على الزهد فى الدنيا والاعراض عنها وذم الحرص عليها والرغبة فيها بل كان
ينبغى أن يحض عليها وعلى اكتسابها والاكثار منها كما حض على

اكتساب الفضائل التى بها كمال العبد من العلم والعمل فلما حض على الزهد
فيها والتقلل دل ان الزاهدين فيها المتقللين منها أفضل الطائفتين وقد اخبر
انها لو ساوت عند الله جناح بعوضة ماسقى كافراً منها شربة ماء وانها
أهون على الله من السخلة الميتة على أهلها وان مثلها فى الآخرة كمثل
مايعلق باصبع من ادخل اصبعه فى البحر وانها ملعونة ملعون مافيها الا
ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم وانها سجن المؤمن وجنة الكافر وأمر
العبد أن يكون فيها كأنه غريب أو عابر سبيل ويعد نفسه من أهل
القبور واذا أصبح فلا ينتظر المساء واذا أمسى فلا ينتظر الصباح ونهى
عن اتخاذ ما يرغب فيها ولعن عبد الدينار وعبد الدرهم ودعا عليه بالتعس
والانتكاس وعدم اقالة العثرة بالانتقاش واخبر انها خضرة حلوة أى تأخذ
العيون بخضرتها والقلوب بحلاوتها وأمر باتقائها والحذر منها كما يتقى النساء
ويحذر منهن وأخبر ان الحرص عليها وعلى الرياسة والشرف يفسد الدين
كافساد الذئبين الضاريين اذا أرسلا فى زريبة غنم أو أشد افساداً واخبر انه
فى الدنيا كراكب استظل تحت شجرة فى يوم صائف ثم راح وتركها وهذه
فى الحقيقة حال سكان الدنيا كلهم ولكن هو صلى الله عليه وسلم شهد
هذه الحال وعمى عنها بنو الدنيا ومر بهم وهم يعالجون خصا لهم قد وهى
فقال ما أرى الأمر الا أعجل من ذلك وأمر بستر على بابه فنزع وقال
انه يذكرنى الدنيا واعلم الناس انه ليس لاحد منهم حق فى سوى بيت
يسكنه وثوب يوارى عورته وقوت يقيم صلبه وأخبر ان الميت يتبعه أهله
وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله وأخبر أن للمتخوض فيما شاءت

نفسه من مال الله بغير حق النار يوم القيامة وأقسم أنه لايخاف الفقر على
أصحابه وانما يخاف عليهم الدنيا وتنافسهم فيها والهاءها لهم وأخبر أنه
ليس لابن آدم من ماله الا ما اكل فافنى أو لبس فأبلى أو تصدق فأمضى
وأخبر أن حسب ابن آدم من الدنيا لقيمات يقمن صلبه فان لم يقتصر عليها
فثلث بطنه لطعامه وثلثه لشرابه وثلثه لنفسه وفى هذا الحديث الارشاد
الى صحة القلب والبدن والدين والدنيا وأخبر أن غنى العبد فيهاغنى نفسه
لا كثرة عرضه وسأل الله أن يجعل رزقه فيها قوتا وغبط من كان رزقه
فيها كفافا بعد ان هدى للاسلام واخبر ان من كانت الدنياهمه جعل الله
فقره بين عينيه وشتت عليه شمله ولم يأته منها الاما كتب له وعرض
عليه ربه أن يجعل له بطحاء مكة ذهبا فقال لا يارب ولكن أشبع يوما
وأجوع يوما فاذا جعت تضرعت اليك وذكرتك واذا شبعت حمدتك
وشكرتك واعلمهم ان من أصبح منهم آمنا فى سربه معافى فى جسده
عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا وأخبر أن بذل العبد مافضل
عن حاجته خير له وامساكه شر له وانه لايلام على الكفاف ونهى أمته
أن ينظر احدهم الى من هو فوقه فى الدنيا وأمره ان ينظر الى من هو
دونه فى الدنيا واخبر انه لم يبق من الدنيا الا بلاء وفتنة وضرب مثلها
مثل مايخرج من ابن آدم عند خلائه وان كان أوله طيبا لذيذا فهذا آخره
وأخبر أن عباد الله انهم ليسوا بالمتنعمين فيها فان أمامهم دار النعيم فهم
لايرضون بنعيمهم فى الدنيا عوضا من ذلك النعيم وأخبر ان نجاة أول هذه
الامة بالزهد واليقين وهلكة آخرها بالبخل وطول الامل وكان يقول
لبيك لاعيش الا عيش الآخرة واخبر انه تعالى اذا احب عبدا حماه الدنيا

كما يحمى الانسان مريضه من الطعام والشراب ودخل على عثمان بن مظعون
وهو فى الموت فأكب عليه يقبله ويقول رحمك الله ياعثمان ما أصبت من
الدنيا ولا اصابت منك فغبطه بذلك وكان يقول الزهد فى الدنيا يريح القلب
والبدن والرغبة فى الدنيا تطيل الهم والحزن وكان يقول من جعل الهموم
كلها هما واحدا كفاه الله سائر همومه ومن تشعبت به الهموم فى احوال
الدنيا لم يبال الله فى اى اوديتها هلك واخبر انه يؤتى يوم القيامة بأنعم الناس
كان فى الدنيا فيقول الله عز وجل اصبغوه فى النار صبغة ثم يؤتى به
فيقول ياابن آدم هل اصبت نعيما قط هل رأيت قرة عين قط هل اصبت
سرورا قط فيقول لا وعزتك ثم يقول ردوه الى النار ثم يؤتى بأشد الناس
كان بلاء فى الدنيا واجهده جهداً فيقول تبارك وتعالى اصبغوه فى الجنة
صبغة فيصبغ فيها ثم يؤتى به فيقول ياابن آدم هل رأيت ماتكره قط
فيقول لا وعزتك ما رأيت شيئاً قط اكرهه وفى حديث مناجاة موسى
الذى رواه الامام احمد فى كتاب الزهد حدثنا اسماعيل بن عبد الكريم
ابن معقل حدثنا عبد الصمد بن معقل قال سمعت وهب بن منبه فذكره
وفيه ولا تعجبكما زينته ولا مامتع به ولا تمدان الى ذلك أعينكما فانها زهرة
الحياة الدنيا وزينة المترفين وانى لو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة يعلم
فرعون حين ينظر اليها ان مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما فعلت ولكنى
أرغب بكما عن نعيدها ذلك وأزويه عنكما وكذلك أفعل بأوليائى وقديما
ماخرت لهم فى ذلك فانى لأذودهم عن نعيمها ورخائها كما يذود الراعى
الشفيق غنمه عن مراعى الهلكة وانى لأجنبهم سلوتها وعيشها كما يجنب
الراعى الشفيق ابله عن مبارك الغرة وماذلك لهوانهم على ولكن ليستكملوا

نصيبهم من كرامتى سالما موفرا لم تكلمه الدنيا ولم يطغه الهوى واعلم
انه لم يتزين لى العباد بزينة هى أبلغ من الزهد فى الدنيا فانها زينة المتقين
عليهم منها لباس يعرفون به من السكينة والخشوع سيماهم فى وجوههم
من أثر السجود أولئك أوليائى حقا فاذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك وذلل
لهم قلبك ولسانك وذكر الحديث وقال احمد حدثنا عون بن جابر قال
سمعت محمد بن داود عن أبيه عن وهب قال قال الحواريون ياعيسى من
أولياء الله الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون قال الذين نظروا الى باطن
الدنيا حين نظر الناس الى ظاهرها والذين نظروا الى آجل الدنيا حين
نظر الناس الى عاجلها فأماتوا منها مايخشون أن يميتهم وتركوا ماعلموا
ان سيتركهم فصار استكثارهم منها استقلالا وذكرهم اياها فواتا وفرحهم
بما اصابوا منها حزنا فما عارضهم من نائلها رفضوه وماعارضهم من رفعتها
بغير الحق وضعوه خلقت الدنيا عندهم فليسوا يجددونها وخربت بينهم
فليسوا يعمرونها وماتت فى صدورهم فليسوا يحيونها يهدمونها فيبنون
بها آخرتهم ويبيعونها فيشترون بها مايبقى لهم رفضوها فكانوا بها هم
الفرحين ونظروا الى اهلها صرعى قد حلت بهم المثلات فأحيوا ذكر الموت
وأماتوا ذكر الحياة يحبون الله ويحبون ذكره ويستضيئون بنوره ويضيئون
به لهم خبر عجيب وعندهم الخبر العجيب بهم قام الكتاب وبه قاموا وبهم
نطق الكتاب وبه نطقوا وبهم علم الكتاب وبه عملوا ليسوا يرون نائلا
مع مانالوا ولا امانا دون مايرجون ولا خوفا دون مايحذرون وحدثنا روح
حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت قال قيل لعيسى بن مريم يارسول الله
لو اتخذت حمارا تركبه لحاجتك قال انا اكرم على الله من أن يجعل لى

شيأ يشغلنى به وقال اجعلوا كنوزكم فى السماء فان قلب المرء عند كنزه وقال
اتقوا فضول الدنيا فان فضول الدنيا عند الله رجز وقال يابنى اسرائيل اجعلوا
بيوتكم كمنازل الأضياف فما لكم فى العالم من منزل ان أنتم الا عابرو سبيل
وقال يامعشر الحواريين ايكم يستطيع ان يبنى على موج البحر داراً قالوا ياروح
الله من يقدر على ذلك قال اياكم والدنيا فلا تتخذوها قراراً وقال أكل خبز
البرّ وشرب ماء العذب ونوم على المزابل مع الكلاب كثير لمن يريد ان
يرث الفردوس قال أحمد وحدثنا بهز عن الأعمش عن خيثمة قال قال
المسيح بشدة مايدخل الغنى الجنة وقال المسيح حلاوة الدنيا مرارة الآخرة
ومرارة الدنيا حلاوة الآخرة وقال يابنى اسرائيل تهاونوا بالدنيا تهن عليكم
وأهينوا الدنيا تكرم عليكم الآخرة ولا تكرموا الدنيا تهن عليكم
الآخرة فان الدنيا ليست بأهل الكرامة وكل يوم تدعو الى الفتنة
والخسارة وقال اسحق بن هانئ فى مسائله قال ابو عبد الله وانا أخرج
من داره قال الحسن اهينوا الدنيا فوالله لاهنأ ماتكون حين تهان
وقال الحسن والله ما ابالى شرقت أم غربت قال وقال لى أبو عبد الله
يااسحق ماأهون الدنيا على الله عز وجل وقال الدنيا قليلها يجزى وكثيرها
لايجزى قالوا وقد تواتر عن السلف ان حب الدنيا رأس الخطايا وأصلها
وقد روى فيه حديث مرفوع لايثبت ولكنه يروى عن المسيح قال عبد
الله بن أحمد حدثنا عبيد الله بن عمر القواريرى حدثنا معاذ بن هشام
حدثنى أبى عن بديل بن ميسرة قال حدثنى جعفر بن خرفاش ان عيسى
ابن مريم عليه السلام قال رأس الخطيئة حب الدنيا والنساء حبالة الشيطان
والخمر جماع كل شر وقال الامام احمد حدثنا عمر بن سعد ابو داود الحفرى

عن سفيان قال كان عيسى بن مريم يقول حب الدنيا أصل كل خطيئة
والمال فيه داء كثير قالوا وما داؤه قال لايسلم من الفخر والخيلاء قالوا
فان سلم قال يشغله اصلاحه عن ذكر الله عز وجل قالوا وذلك معلوم
بالتجربة والمشاهدة فان حبها يدعو الى خطيئة ظاهرة وباطنة ولا سيما
خطيئة يتوقف تحصيلها عليها فيسكر عاشقها حبها عن علمه بتلك الخطيئة
وقبحها وعن كراهتها واجتنابها وحبها يوقع فى الشبهات ثم فى المكروهات
ثم فى المحرمات وطال ما أوقع فى الكفر بل جميع الأمم المكذبة
لانبيائهم انما حملهم على كفرهم وهلاكهم حب الدنيا فان الرسل لما نهوهم
عن الشرك والمعاصى التى كانوا يكسبون بها الدنيا حملهم حبها على مخالفتهم
وتكذيبهم فكل خطيئة فى العالم أصلها حب الدنيا ولا تنس خطيئة
الابوين قديما فانما كان سببها حب الخلود فى الدنيا ولا تنس ذنب ابليس
وسببه حب الرياسة التى محبتها شر من محبة الدنيا وبسببها كفر فرعون
وهامان وجنودهما وابو جهل وقومه واليهود فحب الدنيا والرياسة هو الذى
عمر النار بأهلها والزهد فى الدنيا والرياسة هو الذى عمر الجنة بأهلها
والسكر بحب الدنيا أعظم من السكر بشرب الخمر بكثير وصاحب هذا
السكر لايفيق منه الا فى ظلمة اللحد ولو انكشف عنه غطاؤه فى الدنيا
لعلم ما كان فيه من السكر وانه أشد من سكر الخمر والدنيا تسحر العقول
أعظم سحر قال الامام أحمد حدثنا سيار حدثنا جعفر قال سمعت مالك
ابن دينار يقول اتقوا السحارة اتقوا السحارة فانها تسحر قلوب العلماء
وقال يحيى بن معاذ الرازى الدنيا خمر الشيطان من سكر منها فلا يفيق

الا فى عسكر الموتى نادما بين الخاسرين واقل مافى حبها انه يلهى عن
حب الله وذكره ومن الهاه ماله عن ذكر الله فهو من الخاسرين واذا لها
القلب عن ذكر الله سكنه الشيطان وصرفه حيث أراد ومن فقهه فى
الشر انه يرضيه ببعض أعمال الخير ليريه انه يفعل فيها الخير وقد تعبد لها
قلبه فأين يقع مايفعله من البر مع تعبده لها وقد لعنه رسول الله صلى الله
عليه وسلم ودعا عليه فقال لعن عبد الدينار والدرهم وقال تعس عبد الدينار
تعس عبد الدرهم ان اعطى رضى وان منع سخط وهذا تفسير منه صلى
الله عليه وسلم وبيان لعبوديتها وقد عرضت الدنيا على النبى صلى الله عليه
وسلم بحذافيرها وتعرضت له فدفع فى صدرها باليدين وردها على عقبيها
ثم عرضت بعده على أصحابه وتعرضت لهم فمنهم من سلك سبيله ودفعها
عنه وهم القليل ومنهم من استعرضها وقال مافيك قالت فى الحلال والشبهة
والمكروه والحرام فقالوا هاتى حلالك ولا حاجة لنا فيما عداه فأخذوا
حلالها ثم تعرضت لمن بعدهم فطلبوا حلالها فلم يجدوه فطلبوا مكروهها
وشبهها فقالت قد أخذه من قبلكم فقالوا هاتى حرامك فأخذوه فطلبه
من بعدهم فقالت هو فى أيدى الظلمة قد استأثروا به عليكم فتحيلوا
على تحصيله منهم بالرغبة والرهبة فلا يمد فاجر يده الى شىء من الحرام
الا وجد افجر منه وأقوى قد سبقه اليه هذا وكلهم ضيوف ومابأيديهم
عارية كما قال ابن مسعود رضى الله عنه ماأصبح أحد فى الدنيا الا ضيف
وماله عارية فالضيف مرتحل والعارية مؤداة قالوا وانما كان حب الدنيا
رأس الخطايا ومفسدا للدين من وجوه احدها ان حبها يقتضى تعظيمها
وهى حقيرة عند الله ومن أكبر الذنوب تعظيم ماحقر الله وثانيها ان الله

لعنها ومقتهـا وأبغضها الا ما كان له فيها ومن أحب مالعنه الله ومقتـه
وأبغضه فقد تعرض للفتنة ومقته وغضبه وثالثها انه اذا أحبها صيرها غايته
وتوسل اليها بالاعمال التى جعلها الله وسائل اليه والى الدار الآخرة فعكس
الامر وقلب الحكمة فانتكس قلبه وانعكس سيره الى وراء فهاهنا امران
أحدهما جعل الوسيلة غاية والثانى التوسل بأعمال الآخرة الى الدنيا وهذا
شر معكوس من كل وجه وقلب منكوس غاية الانتكاس وهذا هو الذى
انطبق عليه حذو القذة بالقذة قوله تعالى «من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها
نوف اليهم أعمالهم فيهـا وهم فيها لا يبخسـون أولئك الذين ليس لهم فى
الآخرة الا النار وحبط ماصنعوا فيهـا وباطل ما كانوا يعملون» وقوله
تعالى « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم
يصلاها مذموماً مدحورا » وقوله تعالى « من كان يريد حرث الآخرة
نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة
من نصيب » فهذه ثلاث آيات يشبه بعضها بعضا وتدل على معنى واحد
وهو ان من أراد بعمله الدنيا وزينتها دون الله والدار الآخرة فحظه ماأراد
وهو نصيبه ليس له نصيب غيره والاحاديث عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم مطابقة لذلك مفسرة له كحديث أبى هريرة رضى الله عنه فى
الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار الغازى والمتصدق والقارىء الذين
ارادوا بذلك الدنيا والنصيب وهو فى صحيح مسلم وفى سنن النسائى عن
ابى أمامة رضى الله عنه قال جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال
يارسول الله رجل غزا يلتمس الاجر والذكر ماله فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم لاشىء له فاعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله صلى

الله عليه وسلم لاشىء له ثم قال ان الله تعالى لايقبل الا ما كان خالصاً
وابتغى به وجهه فهذا قد بطل أجره وحبط عمله مع انه قصد حصول
الأجر لما ضم اليه قصد الذكر بين الناس فلم يخلص عمله لله فبطل كله .
وفى مسند الامام احمد عن أبى هريرة أن رجلا قال يارسول الله الرجل
يريد الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرض الدنيا فقال له رسول الله صلى الله
عليه وسلم لاأجر له فأعظم الناس ذلك وقالوا للرجل عد لرسول الله صلى الله
عليه وسلم لعله لم يفهم فعاد فقال يارسول الله الرجل يريد الجهاد فى سبيل الله
وهو يبتغى عرض الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أجر له
ثم أعاد الثالثة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا اجر له وفى المسند
أيضا وسنن النسائى عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال من غزا فى سبيل الله عز وجل وهو لاينوى فى
غزاته الا عقالا فله مانوى وفى المسند والسنن عن يعلى بن منبه قال كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثنى فى سرايا فبعثنى ذات يوم فى سرية
وكان رجلا يركب بغلا فقلت له ارحل فان النبى صلى الله عليه وسلم قد
بعثنى فى سرية فقال ما أنا بخارج معك حتى تجعل لى ثلاثة دنانير فجعلت
فلما رجعت من غزاتى ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
النبى صلى الله عليه وسلم ليس له من غزاته هذه ومن دنياه وآخرته الا
ثلاثة دنانير وفى سنن أبى داود أن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال
يارسول الله أخبرنى عن الجهاد والغزو فقال ياعبدالله بن عمر ان قاتلت
صابرا محتسبا بعثك الله صابرا محتسبا وان قاتلت مرائيا مكاثرا بعثك الله

مرائيا مكاثرا ياعبد الله بن عمر على أى حال قاتلت أو قتلت بعثك الله
على تلك الحال وفى المسند والسنن عن أبى أيوب رضى الله عنه قال سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انها ستفتح عليكم الامصار وتضربون
فيها بعوثا فيكره الرجل منكم البعث فيتخلص من قومه ويعرض نفسه
على القبائل يقول من اكفيه بعث كذا وكذا الا وذلك الاجير الى آخر
قطرة من دمه فانظر محبة الدنيا ماذا حرمت هذا المجاهد من المجاهدين
من الاجر وأفسدت عليه عمله وجعلته أول الداخلين الى النار

فصل

ورابعها ان محبتها تعترض بين العبد وبين فعل مايعود عليه نفعه
فى الآخرة لاشتغاله عنه بمحبوبه والناس هاهنا مراتب فمنهم من يشغله
محبوبه عن الايمان وشرائعه ومنهم من يشغله عن الواجبات التى تجب
عليه لله ولخلقه فلا يقوم بها ظاهرا ولا باطنا ومنهم من يشغله حبها
عن كثير من الواجبات ومنهم من يشغله عن واجب يعارض تحصيلها
وان قام بغيره ومنهم من يشغله عن القيام بالواجب فى الوقت الذى ينبغى
على الوجه الذى ينبغى فيفرط فى وقته وفى حقوقه ومنهم من يشغله عن
عبودية قلبه فى الواجب وتفريغه لله عند ادائه فيؤديه ظاهرا لا باطنا
وأين هذا من عشاق الدنيا ومحبيها هذا من أندرهم وأقل درجات حبها أن
يشغل عن سعادة العبد وهو تفريغ القلب لحب الله ولسانه لذكره وجمع
قلبه على لسانه وجمع لسانه وقلبه على ربه فعشقها ومحبتها تضر بالآخرة
ولا بد كما ان محبة الآخرة تضر بالدنيا وفى هذا حديث قد روى

مرفوعا من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا
مايبقى على مايفنى

فصل

وخامسها أن محبتها تجعلها أكبر هم العبد وقد روى الترمذى من
حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
من كانت الآخرة أكبر همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا
وهى راغمة ومن كانت الدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه
شمله ولم يأته من الدنيا الا ماقدر له

فصل

وسادسها ان محبها أشد الناس عذابا بها وهو معذب فى دوره الثلاث
يعذب فى الدنيا بتحصيلها والسعى فيها ومنازعة أهلها وفى دار البرزخ بفواتها
والحسرة عليها وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به
أبدا ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه فهذا أشد الناس عذابا فى قبره يعمل
الهم والغم والحزن والحسرة فى روحه ماتعمل الديدان وهوام الارض فى جسمه
كما قال الامام احمد حدثنا اسماعيل بن عبد الكريم حدثنا عبد الصمد بن معقل
عن وهب بن منبه أن حزقيل كان فيمن سبى بختنصر فذكر عنه حديثا طويلا
وفى آخره قال فبينا أنا نائم على شط الفرات اذ اتانى ملك فأخذ برأسى فاحتملنى
حتى وضعنى بقاع من الارض قد كانت معركة قال واذا فيه عشرة آلاف قتيل
قد بددت الطير والسباع لحومهم وفرقت أوصالهم قال لى ان قوما يزعمون
ان من مات منهم أو قتل فقد انفلت منى وذهبت عنه قدرتى فادعهم قال

حزقيل فدعوتهم فاذا كل عظم قد أقبل الى منفصله الذى انقطع منه مالرجل
بصاحبه بأعرف من العظم بمفصله الذى فارق حتى أم بعضها بعظائم نبت
عليها اللحم ثم نبتت عليها العروق ثم انبسطت الجلود وأنا أنظر الى ذلك
ثم قال ادع ارواحهم قال فدعوتها فاذا كل روح قد اقبل الى جسده الذى
فارق فلما جلسوا سألتهم فيما كنتم قالوا انا لما متنا وفارقنا الحياة لقينا
ملك فقال هلموا أعمالكم وخذوا أجوركم كذلك سنتنا فيكم وفيمن كان
قبلكم وفيمن هو كائن بعدكم قال فنظر فى أعمالنا فوجدنا نعبد الاوثان
فسلط الدود على أجسادنا وجعلت الارواح تالمه وسلط الغم على أرواحنا
وجعلت اجسادنا تألمه فلم نزل كذلك نعذب حتى دعوتنا ولا يستريح عاشق
الدنيا فقولهم كنا نعبد الاوثان فسيان عبادة الأثان وعبادة الاوثان تعس
عبد الدينار تعس عبد الدرهم والمقصود ان محب الدنيا يعذب فى قبره
ويعذب يوم لقاء ربه قال تعالى «فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد
الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون» قال بعض السلف
يعذبهم بجمعها وتزهق أنفسهم بحبها وهم كافرون بمنع حق الله فيها

فصل

وسابعها ان عاشقها ومحبها الذى يؤثرها على الآخرة من أسفه الخلق
وأقلهم عقلا اذ آثر الخيال على الحقيقة والمنام على اليقظة والظل الزائل على
النعيم الدائم والدار الفانية على الدار الباقية وباع حياة الابد فى أرغد عيش
بحياة انما هى احلام نوم او كظل زائل ان اللبيب بمثلها لا يخدع كما نزل

اعرابى بقوم فقدموا له طعاما فأكل ثم قام الى ظل خيمة فنام فاقتلعوا
الخيمة فأصابته الشمس فانتبه وهو يقول

وان امرؤ دنياه أكبر همه ... لمستمسك منها بحبل غرور

وكان بعض السلف يتمثل بهذا البيت :

يا اهل لذات دنيا لا بقاء لها ... ان اغترارا بظل زائل حمق

قال يونس بن عبد الاعلى ماشبهت الدنيا الا كرجل نام فرأى فى منامه
مايكره وما يحب فبينما هو كذلك انتبه وقال ابن ابى الدنيا حدثنى أبو
على الطائى حدثنا عبد الرحمن البخارى عن ليث قال رأى عيسى بن مريم
الدنيا فى صورة عجوز عليها من كل زينة فقال كم تزوجتى قالت لا أحصيهم
قال فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك قالت بل كلهم قتلته فقال عيسى
بؤساً لازواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين تهلكينهم
واحداً واحداً ولا يكونوا منك على حذر

أرى اشقياء الناس لا يسأمونها ... على انهم فيها عراة وجوع
اراها وان كانت تحب فانها ... سحابة صيف عن قليل تقشع

أشبه الاشياء بالدنيا الظل تحسب له حقيقة ثابتة وهو فى تقلص
وانقباض فتتبعه لتدركه فلا تلحقه وأشبه الاشياء بها السراب يحسبه
الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجد شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله
سريع الحساب وأشبه الاشياء بها المنام يرى فيه العبد ما يحب وما يكره
فاذا استيقظ علم ان ذلك لا حقيقة له واشبه الاشياء بها عجوز شوهاء
قبيحة المنظر والمخبر غدارة بالازواج تزينت للخطاب بكل زينة وسترت
كل قبيح فاغتر بها من لم يجاوز بصره ظاهرها فطلب النكاح فقالت

لامهر الا نقد الأخرة فانتا ضرتان واجتماعنا غير مأذون فيه
ولا مستباح فآثر الخطاب العاجلة وقالوا ماعلى من واصل حبيبته من
جناح فلما كشف قناعها وحل ازارها اذا كل افة وبلية فمنهم من طلق
واستراح ومنهم من اختار المقام فما استتمت ليلة عرسه الا بالعويل والصياح
تالله لقد أذن مؤذنها على رؤوس الخلائق بحى على غير الفلاح فقام المجتهدون
والمصلون لها فواصلوا فى طلبها الغدو بالرواح وسروا ليلهم فلم يحمد القوم
السرى عند الصباح طاروا فى صيدها فما رجع أحد منهم الا وهو مكسور
الجناح فوقعوا فى شبكتها فاسلمتهم للذباح. قال ابن أبى الدنيا حدثنا محمد
ابن على بن شقيق حدثنا ابراهيم بن الاشعث قال سمعت الفضيل بن
عياض قال قال ابن عباس رضى الله عنهما يؤتى بالدنيا يوم القيامة فى
صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية مشوه خلقها فتشرف على
الخلائق فيقال تعرفون هذه فيقولون نعوذ بالله من معرفة هذه فيقال
هذه الدنيا التى تشاجرتم عليها بها تقاطعتم الارحام وبها تحاسدتم وتباغضتم
واغتررتم ثم يقذف بها فى جهنم فتنادى يارب اين اتباعى واشياعى فيقول
الله عز وجل الحقوا بها اتباعها وأشياعها قال ابن ابى الدنيا وحدثنا اسحق
ابن اسماعيل حدثنا روح بن عبادة حدثنا عوف عن أبى العلاء قال رأيت
فى النوم عجوزاً كبيرة عليها من كل زينة الدنيا والناس عكوف عليها
متعجبون ينظرون اليها فجئت فنظرت فتعجبت من نظرهم اليها واقبالهم
عليها فقلت لها ويلك من أنت قالت أما تعرفنى قلت لا قالت أنا الدنيا قال
قلت اعوذ بالله من شرك قالت فان أحببت ان تعاذ من شرى فابغض
الدرهم. قال ابن ابى الدنيا وحدثنى ابراهيم بن سعيد الجوهرى حدثنا سفيان

ابن عيينة قال قال لى ابو بكر بن عياش رأيت الدنيا فى النوم عجوزا
مشوهة شمطاء تصفق بيديها وخلفها خلق يتبعونها ويصفقون ويرقصون
فلما كانت بحذائى أقبلت على فقالت لو ظفرت بك صنعت بك ماصنعت
بهؤلاء ثم بكى بكر قال وحدثنا محمد بن على حدثنا ابراهيم بن الاشعث
قال سمعت الفضيل قال بلغنى ان رجلا عرج بروحه قال فاذا امرأة على
قارعة الطريق عليها من كل زينة الحلى والثياب واذا هى لايمر بها أحد الا
جرحته واذا هى ادبرت كانت أحسن شىء رآه الناس واذا أقبلت أقبح
شىء عجوز شمطاء زرقاء عمشاء فقلت أعوذ بالله قالت لا والله لايعيذك الله
حتى تبغض الدرهم قال قلت من أنت قالت انا الدنيا ووصف على رضى
الله عنه الدنيا فقال دار من صح فيها هرم امن ومن سقم فيها ندم ومن
افتقر فيها حزن ومن استغنى فيها فتن فى حلالها الحساب وفى حرامها
النار. وقال ابن مسعود رضى الله عنه الدنيا دار من لادار له ومال من لامال
له ولها يجمع من لاعقل له وذكر ابن ابى الدنيا ان الحسن كتب الى عمر
ابن عبد العزيز أما بعد فان الدنيا دار ظعن ليست بدار اقامة وانما انزل
آدم اليها عقوبة فاحذرها ياأمير المؤمنين فان الزاد منها تركها والغناء فيها
فقرها لها فى كل حال قتيل تذل من اعزها وتفقر من جمعها هى كالسم
يأكله من لايعرفه وفيه حتفه فكن فيها كمداوى جراحاته يحتمى قليلا
مخافة مايكره طويلا ويصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء فاحذر
هذه الدار الغرارة الخيالة الخداعة التى قد تزينت بخدعها وفتنت بغرورها
وخيلت بآمالها وشوقت لخطابها فأصبحت كالعروس المجلوة فالعيون
اليها ناظرة والقلوب عليها والهة والنفوس لها عاشقة وهى لازواجها

كلهم قاتلة فلا الباقى بالماضى معتبر ولا الآخر بالاول مزدجر والعارف بالله حين أخبره عنها مدكر فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسى المعاد فشغل فيها لبه حتى زلت عنها قدمه فعظمت ندامته وكبرت حسرته واجتمع عليه سكرات الموت وألمه وحسرات الفوت وغصته فذهب منها فى كمد ولم يدرك منها ماطلب ولم يرح نفسه من التعب فخرج بغير زاد وقدم على غير مهاد فاحذرها ياأمير المؤمنين واسر ماتكون فيها احذر ماتكون لها فان صاحب الدنيا كلما اطمأن منها الى سرور اشخصته الى مكروه السار فيها غداء ضار وقد وصل الرخاء منها بالبلاء وجعل البقاء فيها الى فناء فسرورها مشوب بالحزن لايرجع منهاماولى فادبر ولايدرى ماهو آت فينتظر أمانيها كاذبه وآمالها باطله وصفوها كدر وعيشها نكد فلو كان الخالق لها لم يخبر عنها خبراً ولم يضرب لها مثلا لكانت قد ايقظت النائم ونبهت الغافل فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر وفيها واعظ فما لها عند الله عزوجل قدر ولا وزن وما نظر اليها منذ خلقها ولقد عرضت على نبينا صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها لاتنقصه عند الله جناح بعوضة فابى ان يقبلها كره ان يحب ماابغض الله خالقه أو يرفع ماوضع مليكه فزواها عن الصالحين اختيارا وبسطها لاعداءه اغترارا أفيظن المغرور بها القادر عليها انه اكرم بها ونسى ماصنع الله بمحمد صلى الله عليه وسلم حين شد الحجر على بطنه. وقال الحسن أيضاً ابن آدم لاتعلق قلبك فى الدنيا فتعلقه بشر معلق اقطع حبالها وغلق أبوابها حسبك يا ابن آدم منها مايبلغك المحل وكان يقول ان قوما اكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب فاهينوها فاهنى ماتكون اذا اهنتموها هيهات هيهات ذهبت

الدنيا وبقيت الاعمال قلائد فى الاعناق وقال المسيح عليه السلام «لاتتخذوا الدنيا ربا فتتخذكم الدنيا عبيدا واعبروها ولا تعمروها واعلموا ان أصل كل خطيئة حب الدنيا ورب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلا ماسكنت الدنيا فى قلب عبد الا التاط قلبه منها بثلاثة شغل لاينفك عناؤه وفقر لايدرك غناؤه وأمل لايدرك منتهاه الدنيا طالبة مطلوبة فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجىء الموت فيأخذ بعنقه يامعشر الحواريين ارضوا بدنىء الدنيا مع سلامة الدين كما رضى أهل الدنيا بدنىء الدين مع سلامة الدنيا» وقال ابن أبى الدنيا حدثنا هرون بن عبدالله حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا مالك بن دينار قال قال أبو هريرة رضى الله عنه «الدنيا موقوفة بين السماء والارض منذ خلقها الله تعالى الى يوم يفنيها تنادى ربها يارب لم تبغضنى فيقول اسكتى يا لاشىء اسكتى يالاشىء» وقال الفضيل «تجىء الدنيا يوم القيامة فتبختر فى زينتها ونضرتها فتقول يارب اجعلنى لاحسن عبادك دارا فيقول لا أرضاك له أنت لاشىء فكونى هباء منثورا».

فصل — فى ذكر أمثلة تبين حقيقة الدنيا

المثال الاول: للعبد ثلاثة أحوال حالة لم يكن فيها شيئا وهى ماقبل أن يوجد وحالة أخرى وهى من ساعة موته الى مالانهاية له فى البقاء السرمدى فلنفسه وجود بعد خروجها من البدن إما فى الجنة وإما فى النار ثم تعاد الى بدنه فيجازى بعمله ويسكن احدى الدارين فى خلود دائم ثم

بين هاتين الحالتين وهى ما بعد وجوده وما قبل موته حالة متوسطة وهى أيام حياته فلينظر الى مقدار زمانها وأنسبه الى الحالتين تعلم انه أقل من طرفة عين فى مقدار عمر الدنيا ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن اليها ولم يبال كيف تقضت أيامه فيها فى ضر وضيق أو فى سعة ورفاهية ولهذا لم يضع رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وقال «مالى وللدنيا انما مثلى ومثل الدنيا الا كراكب قال فى ظل شجرة ثم راح وتركها» وقال ما الدنيا فى الآخرة الا كما يجعل أحدكم إصبعه فى اليم فلينظر بما ترجع» والى هذا أشار المسيح عليه السلام بقوله «الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها» وهذا مثل صحيح فان الحياة الدنيا معبر الى الآخرة والمهد هو الركن الاول على أول القنطرة واللحد هو الركن الثانى على آخرها ومن الناس من قد قطع نصف القنطرة ومنهم من قطع ثلثيها ومنهم من لم يبق له الا خطوة واحدة وهو غافل عنها وكيف ما كان فلا بد من العبور فمن وقف يبنى على القنطرة ويزينها بأصناف الزينة وهو يستحث العبور فهو فى غاية الجهل والحمق

فصل

المثال الثانى شهوات الدنيا فى القلب كشهوات الاطعمة فى المعدة وسوف يجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا فى قلبه من الكراهة والنتن والقبح ما يجده للاطعمة اللذيذة اذا انتهت فى المعدة غايتها وكما ان الاطعمة كلما كانت الذ طعما واكثر دسما واكثر حلاوة كان رجيعها اقذر فكذلك كل شهوة كانت فى النفس ألذ وأقوى فالتأذى بها عند الموت أشد كما ان

تفجع الانسان بمحبوبه اذا فقده يقوى بقدر محبة المحبوب وفى المسند أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للضحاك ابن سفيان الست تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح ثم تشرب عليه الماء واللبن قال بلى قال فالى م يصير قال الى ماقد علمت قال فان الله عز وجل ضرب مثل الدنيا لما يصير اليه طعام ابن آدم. كان بعض السلف يقول لاصحابه انطلقوا حتى أريكم الدنيا فيذهب بهم الى مزبلة فيقول أنظروا الى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم

فصل

المثال الثالث لها ولاهلها فى اشتغالهم بنعيمها عن الآخرة وما يعقبهم من الحسرات مثل أهلها فى غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم الى جزيرة فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة وحذرهم الابطاء وخوفهم مرور السفينة فتفرقوا في نواحى الجزيرة فقضى بعضهم حاجته وبادر الى السفينة فصادف المكان خاليا فأخذ أوسع الاماكن والينها واوفقها لمراده وتوقف بعضهم فى الجزيرة ينظر الى أزهارها وأنوارها العجيبة ويسمع نغمات طيورها ويعجبه حسن احجارها ثم حدثته نفسه بفوت السفينة وسرعة مرورها وخطر ذهابها فلم يصادف الا مكانا ضيقا فجلس فيه واكب بعضهم على تلك الحجارة المستحسنة والازهار الفائقة فحمل منها حمله فلما جاء لم يجد فى السفينة الا مكانا ضيقا وزاده حمله ضيقا فصار محموله ثقلا عليه ووبالا ولم يقدر على نبذه بل لم يجد من حمله بدا ولم يجد له فى السفينة موضعا فحمله على عنقه وندم على أخذه فلم تنفعه الندامة ثم ذبلت الازهار وتغيرت اراييحها وآذاه نتنها وتولج بعضهم فى تلك الغياض ونسى السفينة وابعد فى نزهته حتى ان

الملاح نادى بالناس عند دفع السفينة فلم يبلغه صوته لاشتغاله بملاهيه فهو تارة يتناول من الثمر وتارة يشم تلك الأنوار وتارة يعجب من حسن الأشجار وهو على ذلك خائف من سبع يخرج عليه غير منفك من شوك يتشبث فى ثيابه ويدخل فى قدميه أو غصن يجرح بدنه أو عوسج يخرق ثيابه ويهتك عورته أو صوت هائل يفزعه ثم من هؤلاء من لحق السفينة ولم يبق فيها موضع فمات على الساحل ومنهم من شغله لهوه فافترسته السباع ونهشته الحيات ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك فهذا مثال أهل الدنيا فى اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ونسيانهم موردهم وعاقبة امرهم وما أقبح بالعاقل أن تغره احجار ونبات يصير هشيما قد شغل باله وعوقه عن نجاته ولم يصحبه

فصل

المثال الرابع لاغترار الناس بالدنيا وضعف ايمانهم بالآخرة قال ابن أبى الدنيا حدثنا اسحاق بن اسماعيل حدثنا روح بن عبادة حدثنا هشام بن حسان عن الحسن قال بلغنى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه «انما مثلى ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء حتى اذا لم يدروا ماسلكوا منها اكثر ام مابقى انفدوا الزاد وحسروا الظهر وبقوا بين ظهرانى المفازة لازاد ولا حمولة فأيقنوا بالهلكة فبينماهم كذلك اذ خرج عليهم رجل فى حلة يقطر رأسه فقالوا ان هذا قريب عهد بريف وما جاءكم هذا الا من قريب قال فلما انتهى اليهم قال ياهؤلاء على ماأنتم قالوا على ماترى، قال أرأيتم ان هديتكم على ماء رواء ورياض خضر ماتجعلون لى قالوا

لانعصيك شيئا قال عهودكم ومواثيقكم بالله قال فاعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لايعصونه شيئا قال فاوردهم ماء ورياضا خضرا قال فمكث فيهم ماشاء الله ثم قال يا هؤلاء الرحيل قالوا الى أين قال الى ماء ليس كمائكم ورياض ليست كرياضكم قال فقال جل القوم وهم أكثرهم والله ماوجدنا هذا حتى ظننا ان لن نجده وما نصنع بعيش هو خير من هذا قال وقالت طائفة وهم أقلهم ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله لاتعصونه شيئا وقد صدقكم فى أول حديثه فوالله ليصدقنكم فى آخره فراح بمن اتبعه وتخلف بقيتهم فبادرهم عدوهم فأصبحوا بين أسير وقتيل

فصل

المثال الخامس للدنيا وأهلها ما مثلها به النبى صلى الله عليه وسلم كظل شجرة والمرء مسافر فيها الى الله فاستظل فى ظل تلك الشجرة فى يوم صائف ثم راح وتركها فتأمل حسن هذا المثال ومطابقته للواقع سواء فانها فى خضرتها كشجرة وفى سرعة انقضائها وقبضها شيئا فشيئا كالظل والعبد مسافر الى ربه والمسافر اذا رأى شجرة فى يوم صائف لايحسن به ان يبنى تحتها دارا ولايتخذها قرارا بل يستظل بها بقدر الحاجة ومتى زاد على ذلك انقطع عن الرفاق

فصل

المثال السادس تمثيله لها صلى الله عليه وسلم بمدخل إصبعه فى اليم فالذى ترجع به إصبعه من البحر هو مثل الدنيا بالنسبة الى الآخرة وهذا أيضا من أحسن الامثال فان الدنيا منقطعة فانية ولو كانت مدتها أكثر

مما هى والآخرة ابدية لاانقطاع لهاولا نسبة للمحصور الى غير المحصور
بل لو فرض أن السموات والارض مملوءتان خردلا وبعد كل الف سنة
طائر ينقل خردلة فنى الخردل والآخرة لاتفنى فنسبة الدنيا الى الآخرة
فى التمثيل كنسبة خردلة واحدةالى ذلك الخردل ولهذا لو أن البحر يمده
من بعده سبعة أبحروأشجار الارض كلها اقلام يكتب بها كلام الله لنفدت
الابحر والاقلام ولم تنفد كلمات الله لانها لابداية لها ولا نهاية لها والابحر
والاقلام متناهيــة قال الامام أحمد وغيره لم يزل الله متكلما اذاشاء وكماله
المقدس مقتض لكلامه وكماله من لوازم ذاته فلا يكون الا كاملا والمتكلم اكمل
ممن لا يتكلم وهو سبحانه لم يلحقه كلال ولا تعب ولا سآمة من الكلام
وهو يخلق ويدبر خلقه بكلماته فكلماته هى التى أوجد بها خلقه وأمره وذلك
حقيقة ملكه وربوبيته والهيته وهو لايكون الا ربا ملكا الها لااله الا
هو والمقصود ان الدنيا نفس من انفاس الآخرة وساعة من ساعاتها

فصل

المثال السابع مامثلها به صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على
صحته من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قام رسول الله
صلى الله عليه وسلم فخطب الناس فقال لا والله ما أخشى عليكم الا مايخرج
الله لكم من زهرة الدنيافقال رجل يارسول الله أو يأتى الخير بالشر فصمت
رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال كيف قلت قال يارسول الله أو يأتى الخير
بالشر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الخير لايأتى الا بالخير وان
مما ينبت الربيع مايقتل حبطا أو يلم الا آكلة الخضر اكلت حتى اذا امتلات
بحرارتها انضاج ما اكلته واخراجه الثالثة انها استفرغت بالبول والثلط

خاصرتاها استقبلت الشمس فثلطت [١] وبالت ثم اجترت فعادت فاكلت
فمن أخذ مالا بحقه بورك له فيه ومن أخذ مالا بغير حقه فمثله كمثل الذى
يأكل ولا يشبع فاخبر صلى الله عليه وسلم انه انما يخاف عليهم الدنيا وسماها
زهرة فشبهها بالزهر فى طيب رائحته وحسن منظره وقلة بقائه وان وراءه
ثمرا خيرا وأبقى منه وقوله ان مما ينبت الربيع مما يقتل حبطا أو يلم هذا
من أحسن التمثيل المتضمن للتحذير من الدنيا والانهماك عليها والمسرة فيها
وذلك ان الماشية يروقها نبت الربيع فتأكل منه باعينها فربما هلكت حبطا
والحبط انتفاخ بطن الدابة من الامتلاء او من المرض يقال حبط الرجل
والدابة تحبط حبطا اذا أصابه ذلك ولما اصاب الحرث بن مازن بن عمرو
ابن تميم ذلك فى سفره فمات حبطا فنسب الحبطى كما يقال السلمى فكذلك
الشره فى المال يقتله شرهه وحرصه فان لم يقتله قارب أن يقتله وهو قوله
أو يلم وكثير من أرباب الاموال انما قتلتهم أموالهم فانهم شرهوا فى جمعها
واحتاج اليها غيرهم فلم يصلوا اليها الا بقتلهم أومايقاربه من اذلالهم وقهرهم
وقوله الا آكلة الخضر هــذا تمثيل لمن أخذ من الدنيا حاجته مثله بالشاة
الآكلة من الخضر بقدر حاجتها أكلت حتى اذا امتلأت خاصرتاها وفى
لفظ آخر امتدت خاصرتاها وانما تمتد من امتلائها من الطعام وثنى الخاصرتين
لانهما جانبا البطن وفى قوله استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثلاث
فوائد أحدها انها لما أخذت حاجتها من المرعى تركته وبركت مستقبلة
الشمس لتستمرئ بذلك ما اكلته الثانية انها اعرضت عما يضرها من
الشره فى المرعى واقبلت على ماينفعها من استقبال الشمس التى يحصل لها

(١) فى النهاية الثلط الرجيع الرقيق وأكثر مايقال للابل والبقر والفيلة

ماجمعته من المرعى فى بطنها فاستراحت باخراجه ولو بقى فيها لقتلها فكذلك
جامع المال مصلحته ان يفعل به كما فعلت هذه الشاة وأول الحديث مثل
للشره فى جمع الدنيا الحريص على تحصيلها فمثاله مثال الدابة التى حملها شره
الاكل على ان يقتلها حبطا اويلم اذا لم يقتلها فان الشره الحريص اما هالك
واما قريب من الهلاك فان الربيع ينبت أنواع البقول والعشب فتستكثر
منه الدابة حتى ينتفخ بطنها لما جاوزت حد الاحتمال فتنشق امعاؤها وتهلك
كذلك الذى يجمع الدنيا من غير حلها ويحبسها أو يصرفها فى غير حقها
وآخر الحديث مثل للمقتصد بآكلة الخضر الذى تنتفع الدابة باكله ولم
يحملها شرهها وحرصها على تناولها منه فوق ماتحتمله بل أكلت بقدر
حاجتها وهكذا هذا أخذ مايحتاج اليه ثم اقبل على ماينفعه وضرب بول
الدابة وثلطها مثلا لاخراجه المال فى حقه حيث يكون حبسه وامساكه
مضراً به فنجا من وبال جمعه بأخذ قدر حاجته منه ونجا من وبال امساكه
باخراجه كما نجت الدابة من الهلاك بالبول والثلط وفى هذا الحديث اشارة
الى الاعتدال والتوسط بين الشره فى المرعى القاتل بكثرته وبين الاعراض
عنه وتركه بالكلية فتهلك جوعا. وتضمن الخبر أيضا ارشاد المكثر من
من المال الى مايحفظ عليه قوته وصحته فى بدنه وقلبه وهو الاخراج منه
وانفاقه ولا يحبسه فيضره حبسه وبالله التوفيق

فصل

المثال الثامن مارواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن سليمان بن يسار عن
ميمونة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرو بن العاص الدنيا

خضرة حلوة فمن اتقى الله فيها وأصلح والا فهو كالآكل ولا يشبع وبين
الناس فى ذلك كبعد الكوكبين أحدهما يطلع فى المشرق والآخر يغيب
فى المغرب فنبه بخضرتها على استحسان العيون لها وبحلاوتها على استحلاء
الصدور لها وبتلك الخضرة والحلاوة زينت لاهلها وحببت اليهم لاسيما
وهم مخلوقون منها وفيها كما قيل

ونحن بنو الدنيا ومنها نباتنا   وما أنت منه فهو شىء محبب

وجعل الناس فيها قسمين أحدهما مصلح متقى فهذا تقواه واصلاحه
لايدعانه ينهمك عليها ويشره فيها ويأخذها من غير حلها ويضعها فى غير
حقها فان لم يتق ويصلح صرف نهمته وقواه وحرصه الى تحصيلها فكان
كالذى يأكل ولا يشبع وهذا من أحسن الامثلة فان المقصود من الاكل
حفظ الصحة والقوة وذلك تابع لقدر الحاجة وليس المقصود منه ذاته
ونفسه فمن جعل نهمته فوق مقصوده لم يشبع ولهذا قال الامام احمد
الدنيا قليلها يجزى وكثيرها لايجزى وأخبر عن تفاوت الناس فى المنزلتين
أعنى منزلة التقوى والاصلاح ومنزلة الاكل والشره وان بين الرجلين
فى ذلك كما بين الكوكبين الغارب فى الافق والطالع منه وبين ذلك
منازل متفاوتة

فصل

المثال التاسع ماتقدم من حديث المستورد بن شداد قال كنت مع
الركب الذين وقفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على السخلة الميتة فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم أترون هذه هانت على أهلها حتى القوها قالوا ومن هوانها القوها يارسول الله قال فوالذى نفس محمد بيده للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها. قال الترمذى حديث حسن صحيح فلم يقتصر صلى الله عليه وسلم على تمثيلها بالسخلة الميتة بل جعلها اهون على الله منها . وفى مسند الامام احمد في هذا الحديث فوالذى نفسى بيده للدنيا عند الله أهون عليه من تلك السخلة على أهلها فاكد ذلك بالقسم الصادق فاذا كان مثلها عند الله أهون وأحقر من سخلة ميتة على اهلها فحبها وعاشقها أهون على الله من تلك السخلة وكونها سخلة أهون عليهم من كونها شاة كبيرة لان تلك ربما انتفعوا بصوفها أو دبغوا جلدها وأما ولد شاة صغيرة ميت ففى غاية الهوان والله المستعان

فصل

المثال العاشر مثلها مثل البحر الذى لا بد للخلق كلهم من ركوبه ليقطعوه الى الساحل الذى فيه دورهم وأوطانهم ومستقرهم ولا يمكن قطعه الا فى سفينة النجاة فأرسل الله رسله تعرف الامم اتخاذ سفن النجاة وتامرهم بعملها وركوبها وهى طاعته وطاعة رسله وعبادته وحده واخلاص العمل له والتشمير للآخرة وارادتها والسعى لها سعيها فنهض الموفقون وركبوا السفينة ورغبوا عن خوض البحر لما علموا أنه لايقطع خوضاً ولا سباحة وأما الحمقاء فاستصعبوا عمل السفينة وآلاتها والركوب فيها وقالوا نخوض البحر فاذا عجزنا قطعناه سباحة وهم اكثر أهل الدنيا فخاضوه فلما عجزوا عن الخوض اخذوا فى السباحة حتى ادركهم الغرق ونجا أصحاب السفينة كما نجوا مع نوح عليه السلام وغرق أهل الارض

فتأمل هذا المثل وحال أهل الدنيا فيها يتبين لك مطابقته للواقع وقد ضرب هذا المثل للدنيا والآخرة والقدر والأمر فان القدر بحر والامر فيه سفينة لاينجو الا من ركبها

فصل

المثال الحادى عشر مثالها مثال أناء مملوء عسلا رأته الذباب فأقبلت نحوه فبعضها قعد على حافة الاناء وجعل يتناول من العسل حتى أخذ حاجته ثم طار وبعضها حمله الشره على ان رمى بنفسه فى لجة الاناء ووسطه فلم يدعه أنفاسه فيه ان يتهنأ به الا قليلا حتى هالك فى وسطه

فصل

المثال الثانى عشر مثال حب قد نثر على وجه الارض وجعلت كل حبة فى فخ وجعل حول ذلك الحب حب ليس فى فخاخ فجاءت الطير فمنها من قنع بالجوانب ولم يرم نفسه فى وسط الحب فأخذ حاجته ومضى ومنها من حمله الشره على اقتحام معظم الحب ووسط الحب فما استتم اللقاط الا وهو يصيح من أخذت الفخ له

فصل

المثال الثالث عشر كمثل رجل أوقد نارا عظيمة فجعلت الفراش والجنادب يرون ضوءها فيقصدونها ويتهافتون فيها ومن له علم بحالها جعل يستضىء ويستدفئ بها من بعيد وقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم الى هذا المثل بعينه فى الحديث الذى رواه مالك بن اسماعيل عن حفص بن حميد عن

عكرمة عن بن عباس رضى الله عنهما عن عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله
عليه وسلم قال انى ممسك بحجزكم عن النار وتقاحمون فيها تقاحم الفراش
والجنادب ويوشك أن أرسل بحجزكم وفى لفظ آخر مثلى ومثلكم كمثل
رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله جعلت الفراش والجنادب يتقاحمن
فيها فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تغلبونى وتتقاحمون فيها وهذا المثال
منطبق على أهل الدنيا المنهمكين فيها فالرسل تدعوهم الى الآخرة وهم
يتقاحمون فى الدنيا تقاحم الفراش

فصل

المثال الرابع عشر مثل قوم خرجوا فى سفر بأموالهم وأهليهم فمروا
بواد معشب كثير المياه والفواكه فنزلوا به وضربوا اخيامهم وبنوا هنالك
الدور والقصور فمر بهم رجل يعرفون نصحه وصدقه وأمانته فقال انى رأيت
بعينى هاتين الجيش خلف هذا الوادى وهم قاصدوكم فاتبعونى أسلك بكم
على غير طريق العدو فتنجوا منه فاطاعته طائفة قليلة فصاح فيهم ياقوم
النجاة النجاة أتيتم أتيتم وصاح السامعون له باهليهم وأولادهم وعشائرهم
فقالوا كيف نرحل من هذا الوادى وفيه مواشينا وأموالنا ودورنا وقد
استوطناه فقال لهم الناصح لينج كل واحد منكم بنفسه بما خف عليه من
متاعه والا فهو مأخوذ وماله مجتاح فثقل على اصحاب الجد والاموال
ورؤساء القوم النقلة ومفارقة ماهم فيه من النعيم والرفاهية والدعة وقال
كل احمق لى اسوة بالقاعدين فهم اكثر منى مالا واهلا فما أصابهم أصابنى
معهم ونهض الاقلون مع الناصح ففازوا بالنجات وصبح الجيش أهل الوادى

فقتلهم واجتاح اموالهم وقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم الى هذا
المثل بعينه فى الحديث المتفق على صحته من حديث ابى بردة عن أبى
موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال انما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل
رجل اتى قومه فقال ياقوم انى رأيت الجيش بعينى وانا النذير العريان
فالنجاة النجاة فاطاعه طائفة من قومه فادلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا
وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فاهلكهم واجتاحهم
فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ومثل من عصانى وكذب
بما جئت به من الحق

فصل

المثال الخامس عشر رجل هيأ داراً وزينها ووضع فيها من جميع
الآلات ودعى الناس اليها فكلما دخل داخل أجلسه على فراش ووطىء
وقدم اليه طبقا من ذهب عليه لحم ووضع بين يديه اوانى مفتخرة فيها
من كل ما يحتاج اليه واخدمه عبيده ومماليكه فعرف العاقل ان ذلك كله
متاع صاحب الدار وملكه وعبيده فاستمتع بتلك الآلات والضيافة
مدة مقامه فى الدار ولم يعلق قلبه بها ولا حدث نفسه بتملكها بل اعتمد
مع صاحب الدار ما يعتمده الضيف يجلس حيث اجلسه ويأكل ماقدمه
له ولا يسأل عما وراء ذلك اكتفاء منه بعلم صاحب الدار وكرمه وما يفعله
مع ضيوفه فدخل الدار كريما وتمتع فيها كريما وفارقها كريما ورب الدار غير
ذام له وأما الاحمق فحدث نفسه بسكنى الدار وحوز تلك الآلات الى
ملكه وتصرف فيها بحسب شهوته وارادته فتحيز المجلس لنفسه وجعل
ينقل تلك الآلات الى مكان فى الدار يخبؤها فيه وكلما قدم اليه ربها شيئا

أو آلة حدث نفسه بتملكه واختصاصه به عن سائر الاضياف ورب الدار
يشاهد ما يصنع وكرمه يمنعه من اخراجه من داره حتى اذا ظن انه قد
استبد بتلك الآلات وملك الدار وتصرف فيها وفى آلاتها تصرف المالك
الحقيقى واستوطنها واتخذها دارا له أرسل اليه مالكها عبيده فاخرجوه
منها اخراجاً عنيفا وسلبوه كلما هو فيه ولم يصحبه من تلك الآلات شيء
وحصل على مقت رب الدار له وافتضاحه عنده وبين مماليكه وحشمه وخدمه
فليتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل فانه مطابق للحقيقة والله المستعان
قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه كل أحد فى هذه الدنيا ضيف وماله
عارية فالضيف مرتحل والعارية مؤداة وفى الصحيحين عن أنس بن مالك
رضى الله عنه قال مات ابن لابى طلحة من أم سليم فقالت لاهلها لا تحدثوا
أبا طلحة حتى أكون أنا أحدثه فجاء فقربت اليه عشاء فاكل وشرب قال
ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك فوقع بها فلما رأت انه قد
شبع وأصاب منها قالت يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوما أعاروا عاريتهم أهل
بيت فطلبوا عاريتهم الهم ان يمنعوهم قال لا قالت فاحتسب ابنك قال
فغضب قال تركتينى تلطخت ثم أخبرتينى بابنى فانطلق حتى اتى رسول
الله صلى الله عليه وسلم فاخبره بما كان منها فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم بارك الله لكما فى ليلتكما وذكر الحديث

فصل

المثال السادس عشر قوم سلكوا مفازة فاجأهم العطش فانتهوا الى
البحر وماؤه امر شيء وأملحه فلشدة عطشهم لم يجدوا طعم مرارته وملوحته
فشربوا منه فلم يرووا وجعلوا كلما ازدادوا شرابا ازدادوا ظمأ حتى تقطعت

اعناقهم وماتوا عطشا وعلم عقلاؤهم انه مر مالح وانه كلما ازداد الشارب
منه ازداد ظمأوه فتباعدوا عنه مسافة حتى وجدوا أرضا حلوة فحفروا فيها
قليبا فنبع لهم ماء عذب فرات فشربوا وعجنوا وطبخوا ونادوا اخوانهم
الذين على حافة البحر هلموا الى الماء الفرات وكان منهم المستهزىء ومنهم
المعرض الراضى بما هو فيه وكان المجيب واحداً بعد واحد وهذا المثل بعينه
قد ضربه المسيح عليه السلام فقال مثل طالب الدنيا كمثل شارب ماء
البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا حتى يقتله

فصل

المثال السابع عشر مثل الانسان ومثل ماله وعمله وعشيرته مثل رجل
له ثلاثة اخوة فقضى له سفر بعيد طويل لابد له منه فدعا اخوته الثلاثة
وقال قد حضر ما ترون من هذا السفر الطويل واحوج ما كنت اليكم
الآن فقال احدهم انا كنت اخاك الى هذه الحال ومن الآن فلست لك
باخ ولا صاحب وما عندى غير هذا فقال له لم تغن عنى شيئاً فقال للآخر
ما عندك فقال كنت اخاك وصاحبك الى الآن وانا معك حتى اجهزك
الى سفرك وتركب راحلتك ومن هنالك لست لك بصاحب فقال له انا
محتاج الى مرافقتك فى مسيرى فقال لا سبيل لك الى ذلك فقال لم تغن
عنى شيئاً فقال للثالث ما عندك انت فقال كنت صاحبك فى صحتك
ومرضك وانا صاحبك الآن وصاحبك اذا ركبت راحلتك وصاحبك فى
مسيرك فان سرت سرت معك وان نزلت نزلت معك واذا وصلت الى
بلدك كنت صاحبك فيها لا افارقك ابداً فقال ان كنت لاهون الاصحاب
على وكنت اوثر عليك صاحبيك فليتنى عرفت حقك وآثرتك عليهما

فالاول ماله والثانى أقاربه وعشيرته واصحابه والثالث عمله وقد روى فى هذا المثل بعينه حديث مرفوع لـكنه لايثبت رواه ابو جعفر العقيلي فى كتاب الضعفاء من حديث ابن شهاب عن عروة عن عائشة وعن ابن المسيب عن عائشة مرفوعا وهو مثل صحيح فى نفسه مطابق للواقع

فصل

المثال الثامن عشر وهو من احسن الأمثلة ملك بنى داراً لم ير الراؤن ولم يسمع السامعون احسن ولا اوسع ولا اجمع لـكل ملاذ النفوس ونصب اليها طريقا وبعث داعياً يدعو الناس اليها واقعد على الطريق امرأة جميلة قد زينت بأنواع الزينة والبست انواع الحلى والحلل وممر الناس كلهم عليها وجعل لها اعوانا وخدما وجعل تحت يدها ويد اعوانها زاداً للمارين السائرين الى الملك فى تلك الطريق وقال لها ولاعوانها من غض طرفه عنك ولم يشتغل بك عنى وابتغى منك زاداً يوصله الىّ فاخدميه وزوديه ولا تعوقيه عن سفره الىّ بل اعينيه بكل مايبلغه فى سفره ومن مد اليك عينيه ورضى بك وأثرك على وطلب وصالك فسوميه سوء العذاب واوليه غاية الهوان واستخدميه واجعليه يركض خلفك ركض الوحش ومايأكل منك فاخدعيه به قليلا ثم استرديه منه واسلبيه اياه كله وسلطى عليه اتباعك وعبيدك وكلما بالغ فى محبتك وتعظيمك واكرامك فقابليه بامثاله قلى واهانة وهجر حتى تنقطع نفسه عليك حسرات فتأمل هذا المثال وحال خطاب الدنيا وخطاب الآخرة والله المستعان وهذا المثل مأخوذ من الأثر المروى عن الله عز وجل يادنيا اخدمى من خدمنى واستخدمى من خدمك

فصل

المثال التاسع عشر ملك خط مدينة فى أصح المواضع واحسنها هواء واكثرها مياها وشق انهارها وغرس أشجارها وقال لرعيته تسابقوا الى احسن الاماكن فيها فمن سبق الى مكان فهو له ومن تخلف سبقه الناس الى المدينة فاخذوا امنازلهم وتبؤوا امساكنهم فيها وبقى من اصحاب الحسرات ونصب لهم ميدان السباق وجعل على الميدان شجرة كبيرة لها ظل مديد وتحتها مياه جارية وفى الشجرة من كل انواع الفواكه وعليها طيور عجيبة الاصوات وقال لهم لاتغتروا بهذه الشجرة وظلها فعن قليل تجتث من أصلها ويذهب ظلها وينقطع ثمرها وتموت أطيارها واما مدينة الملك فاكلها دائم وظلها مديد ونعيمها سرمدى وفيها مالاعين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فسمع الناس بها فخرجوا فى طلبها على وجوههم فمروا بطريقهم بتلك الشجرة على أثر تعب ونصب وحر وظمأ فنزلوا كلهم تحتها واستظلوا بظلها وذاقوا حلاوة ثمرها وسمعوا نغمات أطيارها فقيل لهم انما نزلتم تحتها لتجموا انفسكم وتضمروا مراكبكم للسباق فتهيؤا للركوب. وكونوا على اهبة فاذا صاح النفير استدركتم جلبة السباق فقال الاكثرون كيف ندع هذا الظل الظليل والماء السلسبيل والفاكهة النضيجة والدعة والراحة ونقتحم هذه الجلبة فى الحر والغبار والتعب والنصب والسفر البعيد والمفاوز المعطشة التى تنقطع فيها الاعناق وكيف نبيع النقد الحاضر بالنسيئة الغائبة الى الاجل البعيد ونترك مانراه الى مالا نراه وذرة منقودة فى اليد اولى من ذرة موعودة بعد غد خذ ماتراه ودع شيئا سمعت به ونحن بنوا

اليوم وهذا عيش حاضر كيف نتركه لعيش غائب فى بلد بعيدلا ندرى متى
نصل اليه ونهض من كل الف واحد وقالوا والله مامقامنا هذا فى ظل زائل
تحت شجرة قد دنى قلعها وانقطاع ثمرها وموت اطيارها ونترك المسابقة
الى الظل الظليل الذى لا يزول والعيش الهنىء الذى لا ينقطع الا من أعجز العجز
وهل يليق بالمسافر اذا استراح تحت ظل ان يضرب خباءه عليه ويتخذه
وطنه خشية التاذى بالحر والبرد وهل هذا الا اسفه السفه فالسباق السباق
والبدار البدار

حكم المنية فى البرية جارى … ما هذه الدار بدار قرار
اقضوا مآربكم سراعاً انما … أعماركم سفر من الاسفار
وتراكضوا خيل السباق وبادروا … ان تسترد فانهن عوارى
ودعوا الاقامة تحت ظل زائل … انتم على سفر بهذى الدار
من يرجو طيب العيش فيها انما … يبنى الرجاء على شفير هار
والعيش كل العيش بعد فراقها … فى دار أهل السبق أكرم دار

فاقتحموا جلبة السباق ولم يستوحشوا من قلة الرفاق ساروا فى
ظهور العزائم ولم تأخذهم في سيرهم لومة لائم والمتخلف فى ظل الشجرة
نائم فوالله ما كان الا قليل حتى ذوت أغصان تلك الشجرة وتساقطت
أوراقها وانقطع ثمرها ويبست فروعها وانقطع مشربها فقلعها قيمها من
أصلها فاصبح أهلها فى حر السموم يتقلبون وعلى مافاتهم من العيش
فى ظلها يتحسرون أحرقها قيمها فصارت هى وماحولها نارا تلظى واحاطت
النار بمن تحتها فلم يستطع أحد منهم الخروج منها فقالوا اين الركب الذين
استظلوا معنا تحت ظلها ثم راحوا وتركوه فقيل لهم ارفعوا أبصاركم تروا

منازلهم فرأوهم من البعد فى قصور مدينة الملك وغرفها يتمتعون بأنواع
اللذات فتضاعفت عليهم الحسرات ألا يكونوا معهم وزاد تضاعفها بأن
حيل بينهم وبين مايشتهون وقيل هذا جزاء المتخلفين وما ظلمناهم
ولكن كانوا أنفسهم يظلمون

فصل

المثال العشرون مامثلها به النبى صلى الله عليه وسلم من الثوب الذى
شق وبقى معلقا بخيط فى آخره فما بقاء ذلك الخيط قال ابن أبى الدنيا حدثنى
الفضل بن جعفر حدثنا وهب بن حباد حدثنا يحى بن سعيد القطان
حدثنا أبو سعيد خلف بن حبيب عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذه الدنيا مثل ثوب شق من
أوله الى آخره فبقى متعلقا بخيط فى آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع وان
أردت لهذا المثل زيادة ايضاح فانظر الى مارواه احمد فى مسنده من حديث
أبى نظرة عن أبى سعيد قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
العصر نهارا ثم قام فخطبنا فلم يترك شيئا قبل قيام الساعة الا اخبر به
حفظه من حفظه ونسيه من نسيه وجعل الناس يلتفتون الى الشمس هل
بقى منها شىء فقال الا انه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها الا كما بقى من
يومكم هذا فيما مضى منه وروى حفص بن غياث عن ليث عن المغيرة بن
حكيم عن ابن عمر قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس
على أطراف السعف فقال مابقى من الدنيا الا مثل مابقى من يومنا هذا
فيما مضى منه وروى ابن أبى الدنيا عن ابرهيم بن سعد حدثنا موسى بن

اسماعيل حدثنا موسى بن خلف عن قتادة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب عند مغربان الشمس فقال مابقى من الدنيافيما مضى منها الا كما بقى من يومكم هذافيما مضى منه فالدنيا كلها كيوم واحد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخره قبل غروب شمسه بيسير وقال جابر وأبو هريرة رضى الله عنهما عنه صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين وقرن بين أصابعه السبابة والوسطى وكان بعض السلف يقول، تصبروا فانما هي ايام قلائل وانما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت وانه قد نعيت اليكم أنفسكم والموت حبس لا بد منه والله بالمرصاد وانما تخرج هذه النفوس على آخر سورة الواقعة

فصل

المثال الحادى والعشرون مثال الدنيا كحوض كبير ملئ ماء وجعل موردا للأنام والانعام فجعل الحوض ينقص على كثرة الوارد حتى لم يبق منه الا كدر فى اسفله قد بالت فيه الدواب وخاضته الناس والانعام كما روى مسلم فى صحيحه عن عتبة بن غزوان انه خطبهم فقال فى خطبته ان الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء ولم يبق منها الا صبابة كصبابة الاناء يتصابها صاحبها وانكم منتقلون عنها الى دار لازوال لها فانتقلوا بخير مابحضرتكم وقال عبدالله بن مسعود ان الله تعالى جعل الدنيا كلها قليلا فما بقى منها الا قليل من قليل ومثل مابقى منها كالثغب شرب صفوه وبقى كدره الثغب الغدير

فصل

المثال الثانى والعشرون قوم سكنوا مدينة مدة من الزمان فكثرت فيها الاحداث والآفات وطرقها المحن واغارت عليها عساكر الجور والفساد فبنى ملكهم مدينة فى محل لايطرقها آفة ولا عاهة وعزم على تخريب المدينة الاولى فارسل الى سكانها فنودى فيهم بالرحيل بعد ثلاث ولا يتخلف منهم أحد وأمرهم أن ينقلوا الى مدينة الملك الثانية خير مافى تلك المدينة وأنفعه وأجله من الجواهر واللآلىء والذهب والفضة وماخف حمله من المتاع وعظم قدره وصلح المملوك وأرسل اليهم الادلاء وآلات النقلة ونهج لهم الطريق ونصب لهم الاعلام وتابع الرسل يستحثونهم بعضهم فى أثر بعض فانقسموا فرقا فالاقلون علموا قصر مدة مقامهم فى تلك المدينة وتيقنوا انهم ان لم يبادروا بتحصيل خير مافيها وحمله الا مدينة الملك والا فاتهم ذلك فلم يقدروا عليه فرأوا غبنا أن يقطعوا تلك المدة فى جمع المفضول والاشتغال به عن الفاضل فسألوا عن خير مافى المدينة وأنفسه وأحبه الى الملك وأنفعه فى مدينته فلما عرفوه لم يلتفتوا الى مادونه ورأوا ان أحدهم اذا وافا بجوهرة عظيمة كانت أحب الى الملك من أن يوافيه بأحمال كثيرة من الفلوس والحديد ونحوها فكان همهم فى تحصيل ماهو أحب الى الملك وأنفس عنده ولو قل فى رأى العين وأقبلت فرقة أخرى على تعبية الاحمال المحملة وتنافسوا فى كثرتها وهم على مراتب فمن بين من احماله أثمان وبين من احماله دون ذلك على قدر هممهم وما يليق بهم لكن هممهم مصروفة الى تعبية الاحمال والانتقال من المدينة واقبلت فرقة أخرى على عمارة القصور فى تلك المدينه والاشتغال بطيباتها ولذاتها ونزهها وحاربوا

العازمين على النقله وقالوا لا ندعكم تأخذون من متاعنا شيئا فان شاركتمونا فى عمارة المدينة واستيطانها وعيشنا فيها والا لم نمكنكم من النقلة ولا من شيء من المتاع فوقعت الحرب بينهم فقاتلوا السائرين فعمدوا الى اكل أموالهم وأهليهم وما نقموا منهم الا بسيرهم الى دار الملك واجابة داعيه والرغبة عن تلك الدار متى أمرهم بتركها وأقبلت فرقة أخرى على التنزه والبطالة والراحة والدعة وقالوا لا نتعب أنفسنا فى عمارتها ولا ننقل منها ولا نعارض من اراد النقلة ولا نحاربهم ولا نعاونهم وكان للملك فيها قصر فيه حريم له وقد احاط عليه سورا وأقام عليه حرسا ومنع اهل المدينة من قربانه وطاف به القاعدون فلم يجدوا فيه بابا يدخلون منه فعدوا على جدرانه فنقبوها ووصلوا الى حريمه فأفسدوهم ونالوا منهم ما اسخط الملك وأغضبه وشق عليه ولم يقتصروا على ذلك حتى دعوا غيرهم الى افساد حريمه والنيل منهم فبينماهم على تلك الحال واذا بالنذير قد صاح فيهم كلهم فلم يمكن احدمنهم التخلف فحملوا على تلك الحال واحضروا بين يدى الملك فاستعرضهم واحدا واحدا وعرضت بضائعهم وما قدموا به من تلك المدينة عليه فقبل منها مايصلح له مثله واعاض أربابه أضعاف أضعاف قيمته وأنزلهم منازلهم من قربه ورد منها مالا يصلح له وضرب به وجوه اصحابه وقابل من نقب حماه وافسد حريمه بما يقابل به المفسدون فسألوا الرجعة الى المدينة ليعمروا قصره ويحفظوا حريمه ويقدموا عليه من البضائع بمثل ماقدم به التجار فقال هيهات قد خرجت المدينة خرابا لا تعمر بعده ابدا وليس بعدها الا المدينة التى لا تخرب ابداً

فصل

وقد مثلت الدنيا بمنام والعيش فيها بالحلم والموت باليقظة ومثلت بمزرعة والعمل فيها بالبذر والحصاد يوم المعاد ومثلت بدار لها بابان باب يدخل منه الناس وباب يخرجون منه ومثلت بحية ناعمة الملمس حسنة اللون وضربتها الموت ومثلت بطعام مسموم لذيذ الطعم طيب الرائحة من تناول منه بقدر حاجته كان فيه شفاؤه ومن زاد على حاجته كان فيه حتفه ومثلت بالطعام فى المعدة اذا اخذت الاعضاء منه حاجتها فحبسه قاتل أو مؤذ ولا راحة لصاحبه الا فى خروجه كما اشار اليه النبى صلى الله عليه وسلم فى اكلة الخضر وقد تقدم ومثلت بامرأة من أقبح النساء قد انتقبت على عينين فتنت بهما الناس وهى تدعو الناس الى منزلها فاذا اجابوها كشفت لهم عن منظرها وذبحتهم بسكاكينها والقتهم فى الحفر وقد سلطت على عشاقها تفعل بهم ذلك قديما وحديثا والعجب ان عشاقها يرون اخوانهم صرعى قد حلت بهم الافات وهم يتنافسون فى مصارعهم وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا انفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الامثال ويكفى فى تمثيلها مامثلها الله سبحانه فى كتابه فهو المثل المنطبق عليها قالوا واذا كان هذا شأنها فالتقلل منها والزهد فيها خير من الاستكثار منها والرغبة فيها قالوا ومن المعلوم انه لا يجتمع الرغبة فيها والرغبة فى الله والدار الاخرة ابدا ولا تسكن هاتان الرغبتان فى مكان واحد الا وطردت احداهما الاخرى واستبدت بالمسكن ولا تجتمع بنت رسول صلى الله عليه وسلم وبنت عدو الله عند رجل واحد ابدا قالوا ويكفى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضت عليه مفاتيح كنوزها ولو اخذها لكان اشكر خلق الله بها ولم تنقصه مما

له عند الله شيئاً فاختار جوع يوم وشبع يوم ومات ودرعه مرهونة علي طعام لاهله كما تقدم ذكره قالوا وقد انقسم الناس بعد رسول الله صلي الله عليه وسلم اربعة اقسام قسم لم يريدوا الدنيا ولم تردهم كالصديق ومن سلك سبيله وقسم ارادتهم الدنيا ولم يريدوها كعمر بن الخطاب ومن سلك سبيله وقسم ارادوا الدنيا وارادتهم كخلفاء بنى امية ومن سلك سبيلهم حاشا عمر بن عبد العزيز فانها ارادته ولم يردها وقسم ارادوها ولم تردهم كمن أفقر الله منها يده وأسكنها فى قلبه وامتحنه بجمعها ولا يخفى ان خير الاقسام القسم الاول والثانى انما فضل لانه لم يردها فالتحق بالاول قالوا وقد سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يدله على عمل اذا فعله احبه الله واحبه الناس فقال له ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى ايدى الناس يحبك الناس فلو كان الغناء افضل لدله عليه قالوا وقد شرع الله سبحانه قتال الكفار وشرع الكف عن الرهبان لاعتزالهم عن الدنيا وزهدهم فيها فمضت السنة بان لا يقاتلوا ولا يضرب عليهم جزية هذا وهم اعداؤه واعداء رسله ودينه فعلم ان الزهد فيها عند الله بمكان قالوا وكذلك استقرت حكمته فى شرعه على ان عقوبة الواجد أعظم من عقوبة الفاقد فهذا الزانى المحصن عقوبته الرجم وعقوبة من لم يحصن الجلد والتغريب وهكذا يكون ثواب الفاقد اعظم من ثواب الواجد قالوا وكيف يستوى عند الله سبحانه ذلة الفقر وكسرته وخضوعه وتجرع مرارته وتحمل اعبائه ومشاقه وعزة الغناء ولذته وصولته والتمتع بلذاته ومباشرة حلاوته فبعين الله ما يتحمل الفقراء من مرارة فقرهم وصبرهم ورضاهم به عن الله ربهم تبارك وتعالى واين جر مشقة المجاهدين الى أجر عبادة القاعدين فى الامن والدعة والراحة

قالوا وكيف يستوى امران احدهما لحفت به الجنة والثانى حفت به النار فان أصل الشهوات من قبل المال وأصل المكاره من قبل الفقر قالوا والفقير لا ينفك فى خصاصة من مضض الفقر والجوع والعرى والحاجة وآلام الفقر وكل واحد منها يكفر مايقاومه من السيئات وذلك زيادة على أجره بأعمال البر فقد شارك الاغنياء بأعمال البر وامتاز عنهم بما يكفر سيئاته وما امتازوا به عليه من الانفاق والصدقة والنفع المتعدى فله سبيل الى لحاقهم فيه وله مثل أجورهم وهو أن يعلم الله من نيته انه لو أوتى مثل ما أوتوه لفعل كما يفعلون فيقول لو أن لى مالا لعملت بأعمالهم فهو بنيته وأجرهما سواء كما أخبر به الصادق المصدوق فى الحديث الصحيح الذى رواه الامام احمد والترمذى من حديث أبى كبشه الانمارى قالوا والفقير فى الدنيا بمنزلة المسجون اذ هو ممنوع عن الوصول الى شهواته وملاذها والغنى متخلص من هذا السجن وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر فالغنى ان لم يسجن نفسه عن دواعى الغنا وطغيانه وارسلها فى ميادين شهواتها كانت الدنيا جنة له فانما نال الفضل بتشبهه بالفقير الذى هو فى سجن فقره قالوا وقد ذم الله ورسوله من عجلت له طيباته فى الحياة الدنيا وانه لحرى أن يكون عوضا عن طيبات الآخرة أو منقصة لها ولا بد كما تقدم بيانه بخلاف من استكمل طيباته فى الآخرة لما منع منها فى الدنيا وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسويق لوز فأبى أن يشربه وقال هذا شراب المترفين قالوا وقد سئل الحسن البصرى فقيل له رجلان أحدهما تارك للدنيا والآخر يكتسبها ويتصدق بها فقال التارك

لما أحب الى قالوا وقد سئل المسيح قبله عن هذه المسئلة عن رجلين مر أحدهما بلبنة ذهب فتخطاها ولم يلتفت اليها ومر بها الآخر فأخذها وتصدق بها فقال الذى لم يلتفت اليها أفضل ويدل على هذا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بها ولم يلتفت اليها ولو أخذها لانفقها فى سبيل الله قالوا والفقير الفقيه فى فقره يمكنه لحاق الغنى فى جميع ما ناله بغناه بنيته وقوله فيساويه فى أجره ويتميز عنه بعدم الحساب بعدم المال فساواه بثوابه وتخلص من حسابه كما تميز عنه بسبقه الى الجنة بخمسمائة عام وتميز عنه بثواب صبره على ألم الفقر وخصاصته قال الامام احمد حدثنا عبدالله ابن بهز حدثنا عبادة بن مسلم حدثنى يونس بن خباب عن أبى البحترى الطائى عن أبى كبشة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثا فاحفظوه فاما الثلاث التى أقسم عليهن فانه مانقص مال عبد من صدقة ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها الا زاده الله عز وجل بها عزا ولا يفتح عبد باب مسئلة الا فتح الله له باب فقر وأما الذى أحدثكم حديثا فاحفظوه فانه قال انما الدنيا لاربعة نفر عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقى فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم فيه لله حقا فهذا بأفضل المنازل عند الله وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا فهو يقول لو كان لى مال عملت فيه بعمل فلان قال فاجرهما سواء وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما فهو يتخبط فى ماله بغير علم لا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقا فهذا بأخبث المنازل عندالله وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول لو كان لى مال لفعلت بفعل فلان قال فهو بنيته ووزرهما سواء فاما فضل الغنى بفعله الحق الفقير الصادق بنيته والغنى هناك

انما نقص بتخلفه عن العمل والفقير انما نقص بسوء نيته فلم ينفع الغنى غناه مع التخلف ولا ضر الفقير فقره مع حسن النية ولا نفعه فقره مع سوء نيته قالوا ففى هذا بيان كاف شاف فى المسئلة حاكم بين الفريقين وبالله التوفيق

الباب الرابع والعشرون

فى ذكر ما احتجت به الاغنياء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار

قالت الاغنياء لقد اجلبتم علينا أيها الفقراء بخيل الادلة ورجلها ونحن نعلم ان عندكم مثلها واكثر من مثلها ولكن توسطتم بين التطويل والاختصار وظننتم انها حكمت لكم بالفضل دون ذوى اليسار ونحن نحاكمكم الى ما حاكمتونا اليه ونعرض بضاعتنا على من عرضتم بضاعتكم عليه ونضع أدلتنا وأدلتكم فى ميزان الشرع والعقل الذى لا يعزل فحينئذ يتبين لنا ولكم الفاضل من المفضول ولكن اخرجوا من بيننا من تشبه بالفقراء الصادقين الصابرين وليس لباسهم على قلب أحرص الناس على الدنيا وأشحهم عليها وأبعدهم من الفقر والصبر من كل مظهر للفقر مبطن للحرص غافل عن ربه متبع لهواه مفرط فى أمر معاده قد جعل زى الفقر صناعة وتحلى بما هو أبعد الناس منه بضاعة أو فقير حاجه فقره اضطرار لا اختيار فزهده زهد افلاس لازهد رغبة فى الله والدار الآخرة أو فقير يشكو ربه بلسان قاله وحاله غير راض عن ربه فى فقره بل ان اعطى رضى

وان منع سخط شديد اللهف على الدنيا والحسرة عليها وهو أفقر الناس فيها فهو ارغب شيء فيها وهي أزهد شيء فيه وأخرجوا من بيننا ذوى الثروة المجموع المنوع المتكاثر بماله المستأثر به الذى قد عض عليه بناجذه وثنى عليه خناصره يفرح بزيادته ويأسى علي نقصانه فقلبه به مشغوف وهو على تحصله ملهوف ان عرض سوق الانفاق والبذل أعطى قليلا واكدى وان دعى الى الايثار أمعن فى الهرب جدا واخلصونا واخواننا من سباق الطائفتين وسادات الفريقين الذين تسابقوا الى الله والدار الآخرة بايمانهم واحوالهم ونافسوا فى القرب منه باعمالهم وأموالهم فقلوبهم عاكفة عليه وهمتهم الى المسابقة اليه ينظر غنيهم الى فقيرهم فاذا رآه قد سبقه الى عمل صالح شمر الى اللحاق به وينظر فقيرهم الى غنيهم فاذا رآه قد فاته بانفاق فى طاعة الله انفق هو من أعماله وأقواله وصبره وزهده نظير ذلك أو اكثر منه فهؤلاء اخواننا الذين تكلم الناس فى التفضيل بينهم وأيهم اعلا درجة وأما اولئك فانما ينظر ايهم تحت الآخر فى العذاب واسفل منه والله المستعان اذا عرف هذا فقد مدح الله سبحانه فى كتابه اعمالا واثنى على اصحابها ولا تحصل الا بالغناء كالزكاة والانفاق فى وجوه البر والجهاد فى سبيل الله بالمال وتجهيز الغزاة واعانة المحاويج وفك الرقاب والاطعام فى زمن المسغبة واين يقع صبر الفقير من فرحة الملهوف المضطر المشرف على الهلاك اذا اعانه الغنى ونصره على فقره ومخمصته واين يقع صبره من نفع الغنى بماله فى نصرة دين الله واعلاء كلمته وكسر اعدائه واين صبر أبى ذر على فقره الى شكر الصديق به وشرائه المعذبين فى الله واعتاقهم وانفاقه على نصرة الاسلام حين قال النبى صلى الله عليه وسلم ما نفعنى مال احد ما نفعنى

مال ابى بكر وأين يقع صبر أهل الصفة من انفاق عثمان ابن عفان تلك النفقات العظيمة التى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعضها ماضر عثمان مافعل بعد اليوم ثم قال غفر الله لك ياعثمان ما اسررت وما أعلنت وما اخفيت وما أبديت أو كما قال واذا تأملتم القرآن وجدتم الثناء فيه على المنفقين أضعاف الثناء على الفقراء الصابرين وقد شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن اليد العليا خير من اليد السفلى وفسر اليد العليا بالمعطية والسفلى بالسائلة وقد عدد الله سبحانه على رسوله صلى الله عليه وسلم من نعمه ان اغناه بعد فقره وكان غناه هو الحالة التى نقله اليها وفقره الحالة التى نقله منها وهو سبحانه كان ينقله من الشيء الى ماهو خير منه وقد قيل فى قوله تعالى وللاخرة خير لك من الأولى ان المراد به الحالتان اى كل حالة خير لك مما قبلها ولهذا اعقبه بقوله ولسوف يعطيك ربك فترضى فهذا يدخل فيه عطاؤه فى الدنيا والآخرة قالوا والغناء مع الشكر زيادة فضل ورحمة والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم قالوا والاغنياء الشاكرون سبب لطاعة الفقراء الصابرين لتقويتهم اياهم بالصدقة عليهم والاحسان اليهم واعانتهم على طاعتهم فلهم نصيب وافر من اجور الفقراء زيادة الى نصيبهم من اجر الانفاق وطاعاتهم التى تخصهم كما فى صحيح ابن خزيمة من رواية سلمان الفارسى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم وذكر شهر رمضان فقال من فطر فيه صائما كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار وكان له مثل اجره من غير ان ينقص من اجره شيء فقد حاز الغنى الشاكر اجر صيامه ومثل اجر الفقير الذى فطره قالوا ولو لم يكن للغنى الشاكر الا فضل الصدقة التى لما تفاخرت الاعمال كان الفخر لها عليهن كما ذكر

النظار ابن شميل عن قرة عن سعيد ابن المسيب انه حدث عن عمر ابن الخطاب
قال ذكر ان الاعمال الصالحة تتباهى فتقول الصدقة انا افضلكم قالوا
والصدقة وقاية بين العبد وبين النار والخلاص المسر بها مستظل بها يوم القيمة
فى ظل العرش وقد روى عمرو ابن الحارث ويزيد ابن أبى حبيب عن أبى
الخير عن عقبة ابن عامر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال ان الصدقة لتطفى على أهلها حر القبور وانما يستظل المؤمن يوم القيمة
فى ظل صدقته وقال يزيد ابن ابى حبيب عن ابى الخير عن عقبة يرفعه كل
امرء فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس قال يزيد وكان ابو الخير لا يأتى
عليه يوم الا تصدق فيه ولو بكعكة أو بصلة وفى حديث معاذ عن النبى
صلى الله عليه وسلم والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار وروى
البيهقى من حديث ابى يوسف القاضى عن المختار بن فلفل عن انس يرفعه
باكر وبالصدقة فان البلاء لا يتخطى الصدقة وفى الصحيحين من حديث
ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا تصدق العبد من كسب
طيب ولا يقبل الله الا الطيب اخذها الله بيمينه فيربيها لاحدكم كما يربى احدكم
فلوه او فصيله حتى تكون مثل الجبل العظيم وفى لفظ للبيهقى فى هذا الحديث
حتى ان التمرة او اللقمة لتكون اعظم من احد وقال محمد بن المنكدر من
موجبات المغفرة اطعام المسلم السغبان وقد روى مرفوعا من غير وجه
واذا كان الله سبحانه قد غفر لمن سقى كلبا على شدة ظمائه فكيف بمن سقى
العطاش واشبع الجياع وكسى العراة من المسلمين وقد قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم اتقوا النار ولو بشق تمرة فان لم تجدوا فبكلمة طيبة فجعل الكلم الطيب

عوضا عن الصدقة لمن لا يقدر عليها قالوا واين لذة الصدقة والاحسان
وتفريحها القلب وتقويتهما اياه وما يلقى الله سبحانه للمتصدقين من المحبة
والتعظيم فى قلوب عباده والدعاء لهم والثناء عليهم وادخال المسرات عليهم
من اجر الصبر على الفقر ونعم ان له لاجرا عظيما لكن الاجر درجات عند
الله قالوا وأيضا فالصدقة والاحسان والاعطاء وصف الرب تعالى واحب
عباده اليه من اتصف بذلك كما قال النبى صلى الله عليه وسلم الخلق عيال
الله فاحب الخلق اليه انفعهم لعياله قالوا وقد ذكر الله سبحانه اصناف السعداء
فبدأ بالمتصدقين اولهم فقال تعالى « ان المصدقين والمصدقات وأقرضوا
الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم اجر كريم والذين آمنوا بالله ورسله اولئك
هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم اجرهم ونورهم » فهؤلاء أصناف السعداء
ومقدموهم المصدقين والمصدقات قالوا وفى الصدقة فوائد ومنافع
لا يحصيها الا الله فمنها انها تقى مصارع السوء وتدفع البلاء حتى انها لتدفع
عن الظالم قال ابراهيم النخعى وكانوا يرون ان الصدقة تدفع عن الرجل الظلوم
وتطفىء الخطيئة وتحفظ المال وتجلب الرزق وتفرح القلب وتوجب الثقة
بالله وحسن الظن به كما ان البخل سوء الظن بالله وترغم الشيطان يعنى الصدقة
وتزكى النفس وتنميها وتحبب العبد الى الله والى خلقه وتستر عليه كل عيب
كما ان البخل يغطى عليه كل حسنة وتزيد فى العمر وتستجلب ادعية الناس
ومحبتهم وتدفع عن صاحبها عذاب القبر وتكون عليه ظلا يوم القيمة
وتشفع له عند الله وتهون عليه شدائد الدنيا والاخرة وتدعوه الى سائر أعمال
البر فلا تستعصى عليه وفوائدها ومنافعها اضعاف ذلك قالوا ولو لم يكن فى
النفع والاحسان الا أنه صفة الله وهو سبحانه يحب من اتصف بموجب صفاته

وآثارها فيجب العليم والجواد والحيي والستير والمؤمن القوى احب اليه
من المؤمن الضعيف ويحب العدل والعفو والرحيم والشكور والبر والكريم
فصدقته الغناء والجود ويحب الغنى الجواد قالوا ويكفى فى فضل النفع المتعدى
بالمال أن الجزاء عليه من جنس العمل فمن كسى مؤمنا كساه الله من حلل الجنة
ومن أشبع جائعاً أشبعه الله من ثمار الجنة ومن سقا ظمآناً سقاه الله من شراب
الجنة ومن أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار حتى فرجه
بفرجه ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ومن نفس عن
مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة والله فى
عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه قالوا ونحن لا ننكر فضيلة الصبر
على الفقر ولكن أين تقع من هذه الفضائل وقد جعل الله لكل شيء
قدراً قالوا وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الطاعم الشاكر بمنزلة
الصائم الصابر ومعلوم انه اذا تعدى شكره الى الاحسان الى الغير ازداد
درجة أخرى فان الشكر يتضاعف الى ما لا نهاية له بخلاف الصبر فان
له حداً يقف عليه وهذا دليل مستقل فى المسألة يوضحه ان الشكر أفضل
من الراضى الذى هو أعلى من الصبر فاذا كان الشاكر أفضل من الراضى
الذى هو أفضل من الصابر كان أفضل من الصابر فى درجتين قالوا وفى
الصحيحين من حديث الزهرى عن سالم عن أبيه قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم لا حسد الا فى اثنتين رجل أتاه الله القرآن فهو يقوم به
آناء الليل والنهار ورجل أتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل والنها فجعل الغنى
مع الانفاق بمنزلة القرآن مع القيام به قالوا وقد صرح فى حديث ابى كبشة
الانمارى ان صاحب المال اذا عمل فى ماله بعلمه واتقى فيه ربه ووصل به رحمه

وأخرج منه حق الله فهو بأعلى المنازل عند الله وهذا تصريح فى تفضيله
وجعل الفقير الصادق اذا نوى أن يعمل بعمله وقال ذلك بلسانه ثانيا وانه
بنيته وقوله وأجرهما سواء فان كلا منهما نوى خيرا وعمل مايقدر عليه
فالغنى نواه ونفذه بعلمه والفقير العالم نواه ونفذه بلسانه فاستويا فى
الاجر من هذه الجهة ولا يلزم من استوائهما فى أصل الأجر استواؤهما
فى كيفيته وتفاصيله فان الاجر على العمل والنية له مزية على الاجر على
مجرد النية التى قارنها القول ومن نوى الحج ولم يكن له مال يحج به وان
أثيب على ذلك فان ثواب من باشر اعمال الحج مع النية له مزية عليه
واذا أردت فهم هذا فتأمل قول النبى صلى الله عليه وسلم من سأل الله
الشهادة صادقاً من قلبه بلغه الله منازل الشهداء وان مات على فراشه ولا
ريب ان ماحصل للمقتول فى سبيل الله من ثواب الشهادة تزيد كيفيته
وصفاته على ماحصل لناوى ذلك اذا مات على فراشه وان بلغ منزلة الشهيد
فهاهنا أجران أجر وقرب فان استويا فى أصل الاجر لكن الاعمال
التى قام بها العامل تقتضى أثرا زايدا وقربا خاصاً وهو فضل الله يؤتيه من
يشاء وقد قال صلى الله عليه وسلم اذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل
والمقتول فى النار [1] قالوا هذا القاتل فما بال المقتول قال انه أراد قتل صاحبه
فاستويا فى دخول النار ولا يلزم استواؤهما فى الدرجة ومقدار العذاب
فأعط ألفاظ رسول الله صلى الله عليه وسلم حقها ونزلها منازلها يتبين لك
المراد . يوضح هذا ان فقراء المهاجرين شكوا الى رسول الله صلى الله عليه

(١) فى هامش الأصل : هذا فى قتال العصبية ونحوها

وسلم وقالوا يارسول الله ذهب أهل الدثور بالاجور يصلون كما نصلى
ويصومون كما نصوم ولهم فضول أموال يحجون بها ويعتمرون ويجاهدون
ويتصدقون قال أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من
بعدكم ولا يكون أحداً أفضل منكم الا من صنع مثل ماصنعتم قالوا بلى
يارسول الله قال تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين
فرجع فقراء المهاجرين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا سمع
اخواننا أهل الاموال بما فعلنا ففعلوا مثله فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فلو كانوا يلحقونهم فى مقدار الاجر
بمجرد النية لقال لهم انووا أن تفعلوا مثل فعلهم فتنالوا مثل أجرهم فلما
أعاضهم عن مافاتهم من ثواب الصدقة والعتق والحج والاعتمار عما يحصل
نظيره بالذكر علم ان الاغنياء قد فضلوهم بالانفاق فلما شاركوهم فى الذكر
بقيت مزية الانفاق فشكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان
الامتياز لم يزل وانهم قد ساوونا فى الذكر كما ساوونا فى الصوم والصلاة
فاخبرهم ان ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فلو كان لهم سبيل الى مساواتهم
من كل وجه بالنية والقول لدلهم عليها قالت الفقراء هذا الحديث حجة لنا
اذا فهم على الحقيقة وذلك ان معناه انهم وان كانوا قد ساووكم فى الايمان
والاسلام والصلاة والصيام ثم فضلوكم فى الانفاق ففى التكبير والتسبيح
والتهليل ماتلحقكم بدرجتهم وقد ساويتموهم أيضا بحسن النية اذ لو امكنكم
لانفقتم مثلهم وفى بعض الفاظ هذا الحديث ان اخذتم به سبقتم من قبلكم
ولم يلحقكم من بعدكم وهذا يدل على ان الاغنياء لايلحقونهم وان قالوا
مثل قولهم وقوله صلى الله عليه وسلم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء معناه

ان فضل الله ليس مقصوراً عليكم دونهم فكما آتاكم الله فضله بالذكر
كذلك يؤتيهم اياه اذا عملوا مثلكم أيضا فأنتم فهمتم من الفضل
التخصيص فوضعتموه فى غير موضعه وانما معناه العموم والشمول وان
فضله عام شامل للاغنياء والفقراء فلا تذهبون به دونهم فأين فى هذا
الحديث التفضيل لكم علينا قالوا ويحتمل قوله ذلك فضل الله ثلاثة أمور
أحدها سبقهم لكم بالانفاق والثانى مساواتكم لهم فى فضيلة الذكر فلم
تختصوا به دونهم والثانى سبقكم لهم الى الجنة بنصف يوم وهذا وان كان
لاذكر له فى هذه الرواية فهو مذكور فى بعض طرقه قال البزار فى مسنده حدثنا
الوليد بن عمر حدثنا محمد بن الزبرقان حدثنا موسى بن عبيدة عن عبد الله
ابن دينار عن ابن عمر قال اشتكى فقراء المهاجرين الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم مافضل به اغنياؤهم فقالوا يارسول الله اخواننا صدقوا تصديقنا
وآمنوا ايماننا وصاموا صيامنا ولهم أموال يتصدقون منها ويصلون منها
الرحم وينفقونها فى سبيل الله ونحن مساكين لا نقدر على ذلك فقال ألا
أخبركم بشىء اذا انتم فعلتموه ادركتم مثل فضلهم قولوا الله أكبر فى
كل صلاة احدى عشر مرة والحمد لله مثل ذلك ولا اله الا الله مثل ذلك
وسبحان الله مثل ذلك تدركون مثل فضلهم ففعلوا فذكروا ذلك للاغنياء
ففعلوا مثل ذلك فرجع الفقراء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا
ذلك له فقالوا هؤلاء اخواننا فعلوا مثل ما نقول فقال ذلك فضل الله
يؤتيه من يشاء يامعشر الفقراء الا أبشركم أن فقراء المسلمين يدخلون الجنة
قبل أغنيائهم بنصف يوم خمسماية عام وتلا موسى بن عبيدة وان يوما عند
ربك كالف سنة مما تعدون قالوا فهذا خبر واحد وكلام متصل ذكره

بشارة لهم عند ما ذكروا مساواة الأغنياء لهم فى القول المذكور فاشبه
أن يرجع الفضل الى سبق الفقراء للأغنياء وانهم بهذه البشارة مخصوصون
فكان السبق لهم دون غيرهم وان ساووهم فى القول وساووهم فى الانفاق
بالنية كما فى حديث أبى كبشة المتقدم وحصلت لهم مزية الفقر . قالت
الاغنياء لقد بالغتم فى صرف الحديث عن مقصوده الى جهتكم وهو صريح
فى تفضيل هذا الجانب لمن أنصف فان قوله ذلك فضل الله يؤتيه من
يشاء خرج جوابا للفقراء عن قولهم أن أهل الدثور قد ساووهم فى الذكر
كما ساووهم فى الصلاة والصوم والايمان وبقيت مزية الانفاق ولم يحصل
لهم ما يلحقهم فيها وما علمتناه من الذكر قد لحقونا فيه فقال لهم حينئذ
ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا صريح جداً فى مقصوده فلما انكسر
القوم بتحقق السبق بالانفاق الذى عجزوا عنه خبرهم بالبشارة بالسبق
الى دخول الجنة بنصف يوم وأن هذا السبق فى مقابلة ما فاتكم من فضيلة
الغنى والانفاق ولكن لا يلزم من ذلك رفعتهم عليهم فى المنزلة والدرجة
فهؤلاء السبعون الالف الذين يدخلون الجنة بغير حساب من الموقوفين
للحساب من هو أفضل من أكثرهم وأعلى منه درجة قالوا وقد سمى الله
سبحانه المال خيراً فى غير موضع من كتابه كقوله تعالى « كتب عليكم
اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيرا الوصية » وقوله « انه لحب الخير لشديد »
وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الخير لا يأتى الا بالخير كما تقدم
وانما يأتى بالشر معصية الله فى الخير لا نفسه واعلم الله سبحانه انه جعل
المال قواما للانفس وأمر بحفظها ونهى أن يأتى السفهاء من النساء والاولاد
وغيرهم ومدحه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله نعم المال الصالح مع المرء

الصالح وقال سعيد بن المسيب لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله يكف
به وجهه عن الناس ويصل به رحمه ويعطى حقه وقال أبو اسحق السبيعى
كانوا يرون السعة عونا على الدين وقال محمد بن المنكدر نعم العون على التقى
الغنى وقال سفيان الثورى المال فى زماننا هذا سلاح المؤمن وقال يوسف
ابن اسباط ما كان المال فى زمان منذ خلقت الدنيا أنفع منه فى هذا الزمان
والخير كالخيل الرجل اجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر قالوا وقد جعل
الله سبحانه المال سببا لحفظ البدن وحفظه سبب لحفظ النفس التى هى
محل معرفة الله والايمان به وتصديق رسله ومحبته والانابة اليه فهو سبب
عمارة الدنيا والآخرة وانما يذم منه ما استخرج من غير وجهه وصرف فى غير
حقه واستعبد صاحبه وملك قلبه وشغله عن الله والدار الآخرة فيذم منه
ما يتوسل به صاحبه الى المقاصد الفاسدة أو شغله عن المقاصد المحمودة فالذم
للجاعل لا للمجعول قال النبى صلى الله عليه وسلم تعس عبد الدينار تعس عبد
الدرهم فذم عبدهما دونهما قال الامام احمد حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان
عن يزيد بن ميسرة قال كان رجل ممن مضى جمع مالا فأوعى ثم أقبل على نفسه
وهو فى اهله فقال أنعم سنين فأتاه ملك الموت فقرع الباب فى صورة مسكين
فخرجوا اليه فقال ادعوا لى صاحب الدار فقالوا يخرج سيدنا الى مثلك
ثم مكث قليلا ثم عاد فقرع الدار وصنع مثل ذلك وقال اخبروه انى ملك
الموت فلما سمع سيدهم قعد فزعا وقال لينوا له الكلام قالوا ما تريد غير
سيدنا بارك الله فيك قال لا فدخل عليه فقال قم فأوص ما كنت موصيا
فانى قابض نفسك قبل أن أخرج قال فصرخ أهله وبكوا ثم قال افتحوا
الصناديق وافتحوا أوعية المال ففتحوها جميعا فأقبل على المال يلعنه ويسبه

يقول لعنت من مال أنت الذي أنسيتني ربي وشغلتني عن العمل لآخرتي
حتى بلغني أجلي فتكلم المال فقال لا تسبني ألم تكن وضيعا في أعين الناس
فرفعتك ألم ير عليك من أثري وكنت تحضر سدد الملوك والسادة فتدخل
ويحبس عباد الله الصالحون فلا يدخلون ألم تكن تخطب بنات الملوك
والسادة فتنكح ويخطب عباد الله الصالحون فلا ينكحون ألم تكن تنفقني
في سبيل الخبث فلا أتعاصى ولو انفقتني في سبيل الله لم أتعاص عليك
وأنت ألوم مني انما خلقت أنا وأنتم يا بني آدم من تراب فمنطلق ببر ومنطلق
باثم فهكذا يقول المال فاحذروا وفي أثر يقول الله تبارك وتعالى أموالنا
رجعت الينا سعد بها من سعد وشقي بها من شقي قالوا ومن فوايد المال
انه قوام العبادات والطاعات وبه قام سوق بر الحج والجهاد وبه حصل
الانفاق الواجب والمستحب وبه حصلت قربات العتق والوقف وبناء المساجد
والقناطر وغيرها وبه يتوصل الى النكاح الذي هو أفضل من التخلي
لنوافذ العبادة وعليه قام سوق المروءة وبه ظهرت صفة الجود والسخاء
وبه وقيت الأعراض وبه اكتسبت الاخوان والاصدقاء وبه توصل
الابرار الى الدرجات العلى ومرافقة الذين أنعم الله عليهم فهو مرقاة يصعد فيها
الى أعلى غرف الجنة ويهبط منها الى أسفل سافلين وهو مقيم مجد الماجد كان
بعض السلف [1] يقول لا مجد الا بفعال ولا فعال الا بمال وكان بعضهم يقول اللهم
اني من عبادك الذين لا يصلحهم الا الغنى وهو من اسباب رضى الله عن العبد كما
كان من اسباب سخطه عليه وهؤلاء الثلاثة الذين ابتلاهم الله به الابرص والاقرع

---

(١) هو قيس بن سعد بن عبادة الانصاري أو أبوه . راجع البيان والتبيين للجاحظ ج ٣ ص ٢٢٤ وطبقات ابن سعد ج ٣ ص ١٤٣

والاعمى نال به الاعمى رضى ربه ونالا به سخطه والجهاد ذروة سنام العمل
وتارة يكون بالنفس وتارة يكون بالمال وربما كان الجهاد بالمال انكى
وانفع وبأي شيء فضل عثمان على علي وعلي اكثر جهادا بنفسه وأسبق
اسلاما من عثمان وهذا الزبير وعبد الرحمن بن عوف أفضل من جمهور
الصحابة مع الغنى الوافر وتأثيرهم في الدين اعظم من تأثير اهل الصفة
وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اضاعته وأخبر أن ترك الرجل
ورثته اغنياء خير له من تركهم فقراء واخبر ان صاحب المال لن ينفق نفقة
يبتغي بها وجه الله الا ازداد بها درجة ورفعة وقد استعاذ رسول الله صلى
الله عليه وسلم من الفقر وقرنه بالكفر فقال اللهم انى اعوذ بك من
الكفر والفقر فان الخير نوعان خير الآخرة والكفر مضاده وخير
الدنيا والفقر مضاده فالفقر سبب عذاب الدنيا والكفر سبب عذاب
الآخرة والله سبحانه جعل اعطاء الزكاة وظيفة الاغنياء واخذها وظيفة
الفقراء وفرق بين اليدين شرعا وقدرا وجعل يد المعطى على من الآخذ
وجعل الزكاة أوساخ المال ولذلك حرمها على اطيب خلقه وعلى آله صيانة
لهم وتشريفا ورفعا لاقدارهم ونحن لا ننكر ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم كان فقيرا ثم اغناه الله والله فتح عليه وخوله ووسع عليه وكان يدخر
لاهله قوت سنة ويعطى العطايا التى لم يعطها احد غيره وكان يعطى عطاء من
لا يخاف الفقر ومات عن فدك والنضير واموال خصه الله بها وقال تعالى
ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول فنزهه ربه سبحانه
عن الفقر الذى يسوغ أخذ الصدقة وعوضه عما نزهه عنه باشرف المال
واجله وافضله وهو ما اخذه بظل رمحه وقائم سيفه من اعداء الله الذين

كان مال الله بايديهم ظلما وعدوانا فانه خلق المال ليستعان به على طاعته وهو بأيدى الكفار والفجار ظلما وعدوانا فاذا رجع الى أوليائه واهل طاعته فاء اليهم ماخلق لهم ولكن لم يكن غنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وملكه من جنس غنى بنى الدنيا واملاكهم فان غناهم بالشىء وغناه صلى الله عليه وسلم عن الشىء وهو الغنى العالى وملكهم ملك يتصرفون فيه بحسب ارادتهم وهو صلى الله عليه وسلم انما يتصرف فى ملكه تصرف العبد الذى لا يتصرف الا بأمر سيده . وقد اختلف الفقهاء فى الفىء هل كان ملكا للنبى صلى الله عليه وسلم على قولين وهما روايتان عن احمد والتحقيق ان ملكه له كان نوعا آخر من الملك وهو ملك يتصرف فيه بالامر كما قال صلى الله عليه وسلم والله لا اعطى احدا ولا أمنع أحدا انما انا قاسم اضع حيث امرت وذلك من كمال مرتبة عبوديته ولاجل ذلك لم يورث فانه عبد محض من كل وجه لربه عز وجل والعبد لا مال له فيورث عنه فجمع الله له سبحانه بين اعلى انواع الغنى واشرف أنواع الفقر فكمل له مراتب الكمال فليست احدى الطائفتين باحق به من الاخرى فكان صلى الله عليه وسلم فى فقره أصبر خلق الله واشكرهم وكذلك فى غناه والله تعالى جعله قدوة للاغنياء والفقراء واى غنى اعظم من غنى من عرضت عليه مفاتيح كنوز الارض وعرض عليه أن يجعل له الصفا ذهباً وخير بين أن يكون ملكا نبيا وبين أن يكون عبداً نبيا فاختار أن يكون عبداً نبياً ومع هذا فجبيت اليه اموال جزيرة العرب واليمن فأنفقها كلها ولم يستأثر منها بشىء بل تحمل عيال المسلمين ودينهم فقال من ترك مالا فلورثته ومن ترك كلا فالى وعلى فرفع الله سبحانه قدره

أن يكون من جملة الفقراء الذين تحل لهم الصدقة كما نزهه أن يكون من جملة الاغنياء الذين أغناهم بالاموال الموروثة بل أغناه به عن سواه وأغنى قلبه كل الغنى ووسع عليه غاية السعة فأنفق غاية الانفاق واعطى أجل العطايا ولا استأثر بالمال ولا اتخذ منه عقاراً ولا أرضا ولا ترك شاة ولا بعيرا ولا عبدا ولا أمة ولا دينارا ولا درهما فاذا احتج الغنى الشاكر بحاله صلى الله عليه وسلم لم يمكنه ذلك الا بعد أن يفعل فعله كما ان الفقير الصابر اذا احتج بحاله صلى الله عليه وسلم لم يمكنه ذلك الا بعد أن يصبر صبره ويترك الدنيا اختيارا لا اضطرارا فرسول الله صلى الله عليه وسلم وفى كل مرتبة من مرتبتى الفقر والغنى حقها وعبوديتها وأيضا فان الله سبحانه أغنى به الفقراء فما نالت أمته الغنى الا به وأغنى الناس من صار غيره به غنيا قال على بن أبى رباح اللخمى كنت عند مسلمة بن مخلد الانصارى وهو يومئذ على مصر وعبدالله بن عمرو بن العاص جالس معه فتمثل مسلمة ببيت من شعر أبى طالب فقال لو ان أبا طالب رأى مانحن فيه اليوم من نعمة الله وكرامته لعلم ان ابن أخيه سيد قد جاء بخير فقال عبد الله بن عمرو ويومئذ كان سيدا كريما قد جاء بخير كثير فقال مسلمة ألم يقل الله تعالى « ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى » فقال عبدالله بن عمرو أما اليتيم فقد كان يتيما من أبويه وأما العيلة فكلما كان بأيدى العرب الى القلة يقول ان العرب كانت كلها مقلة حتى فتح الله عليه وعلى العرب الذين أسلموا ودخلوا فى دين الله أفواجا ثم توفاه الله قبل أن يتلبس منها بشىء ومضى وتركها وحذر منها ومن فتنتها قال وذلك معنى

قوله عائلا فأغنى وأما قوله ولسوف يعطيك ربك فترضى» فلم تكن الدنيا لترضيه وهو لا يرضاها كلها لامته وهو يحذر منها وتعرض عليه فيأباها وانما هو مايعطيه من الثواب وما يفتح عليه وعلى أمته من ملك كسرى وقيصر ودخول الناس فى الاسلام وظهور الدين اذ كان ذلك محبته ورضاه صلوات الله وسلامه عليه. وروى سفيان الثورى عن الاوزاعى عن اسماعيل بن عبدالله عن على بن عبدالله بن عباس عن النبى صل الله عليه وسلم قال رأيت ماهو مفتوح بعدى كفراً كفراً فسرنى ذلك فنزلت والضحى والليل الى قوله ولسوف يعطيك ربك فترضى قال اعطى الف قصر من لؤلؤ ترابها المسك فى كل قصر ما ينبغى له. قالوا وما ذكرتم من الزهد فى الدنيا والتقلل منها فالزهد فيها لا ينافى الغنى بل زهد الغنى أكمل من زهد الفقير فان الغنى زهد عن قدرة والفقير عن عجز وبينهما بعد بعيد، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حال غناه أزهد الخلق وكذلك ابراهيم الخليل كان كثير المال وهو أزهد الناس فى الدنيا. وقد روى الترمذى فى جامعه من حديث أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال الزهادة فى الدنيا ليس بتحريم الحلال ولا اضاعته ولكن الزهادة فى الدنيا أن لا تكون بما فى يديك اوثق بما فى يد الله وأن تكون فى ثواب المصيبة اذا أنت أصبت بها أرغب فى ثوابها لو انها بقيت لك. وسئل الامام احمد عن الرجل يكون معه الف دينار هل يكون زاهدا قال نعم بشرط أن لا يفرح اذا زادت ولا يحزن اذا نقصت. وقال بعض السلف الزاهد من لا يغلب الحلال شكره ولا الحرام صبره وهذا من أحسن الحدود حقيقة مركبة من الصبر والشكر فلا يستحق اسم

الزاهد من لا يتصف بهما فمن غلب شكره بما وسع عليه من الحلال وصبره لما عرض له من الحرام فهو الزاهد على الحقيقة بخلاف من غلب الحلال شكره والحرام صبره فكان شكره وصبره مغلوبين فان هذا ليس بزاهد وسمعت شيخ الاسلام يقول الزهد تركك مالا ينفعك والورع تركك مايضرك فالزهد فراغ القلب من الدنيا لا فراغ اليدين منها ويقابله الشح والحرص وهو ثلاثة أقسام زهد فى الحرام وزهد فى الشبهات والمكروهات وزهد فى الفضلات فالاول فرض والثانى فضل والثالث متوسط بينهما بحسب درجة الشبهة وان قويت التحق بالاول والا فبالثالث وقد يكون الثالث واجبا بمعنى انه لا بد منه وذلك لمن شمر الى الله والدار الآخرة فزهد الفضلة يكون ضرورة فان ارادة الدنيا قادحة فى ارادة الآخرة ولا يصح للعبد مقام الارادة حتى يفرد طلبه وارادته ومطلوبه فلا ينقسم المطلوب ولا الطالب أما توحيد المطلوب فان لا يتعلق طلبه وارادته بغير الله وما يقرب اليه ويدنى منه وأما توحيده فى الطلب فان يستأصل الطلب والارادة نوازع الشهوات وجواذب الهوى وتسكن الارادة فى اقطار النفس فيملأها فلا يدع فيها فضلا لغير الانجذاب الى جناب الحق جل جلاله فتتمحض الارادة له ومتى تمحضت كان الزهد لصاحبها ضرورة فانه يفرغه لعمارة وقته وجمع قلبه على ماهو بصدده وقطع مواد طمعه اللاتى هى من أفسد شىء للقلب بل أصل المعاصى والفساد والفجور كله من الطمع فالزهد يقطع مواده ويفرغ البال ويملأ القلب ويستحث الجوارح ويذهب الوحشة التى بين العبد وبين ربه ويجلب الانس به ويقوى

الرغبة فى ثوابه ان ضعف عن الرغبة فى قربه والدنو منه وذوق حلاوة
معرفته ومحبته فالزاهد أروح الناس بدنا وقلبا فان كان زهده وفراغه
من الدنيا قوة له فى ارادة الله والدار الآخرة بحيث فرغ قلبه لله وجعل
حرصه على التقرب اليه وشحه على وقته أن يضيع منه شىء فى غير ماهو
أرضى لله وأحب اليه كان من أنعم الناس عيشا وأقرهم عينا وأطيبهم نفسا
وأفرحهم قلبا فان الرغبة فى الدنيا تشتت القلب وتبدد الشمل وتطيل
الهم والغم والحزن فهى عذاب حاضر يؤدى الى عذاب منتظر أشد منه
وتفوت على العبد من النعيم اضعاف مايروم تحصيله بالرغبة فى الدنيا. قال
الامام احمد حدثنا الهيثم بن جميل حدثنا يعنى ابن مسلم عن ابراهيم
يعنى بن ميسرة عن طاوس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ان الزهد فى الدنيا يريح القلب والبدن وان الرغبة فى الدنيا تطيل
الهم والحزن وانما تحصل الهموم والغموم والاحزان من جهتين احداهما
الرغبة فى الدنيا والحرص عليها والثانى التقصير فى أعمال البر والطاعة قال
عبد الله بن أحمد حدثنى بيان بن الحكم حدثنا محمد بن حاتم عن بشر بن
الحارث قال حدثنا أبو بكر بن عياش عن ليث عن الحكم قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم اذا قصر العبد بالعمل ابتلاه الله عز وجل بالهم وكما
أن الرغبة فى الدنيا أصل المعاصى الظاهرة فهى أصل معاصى القلب من
التسخط والحسد والكبر والفخر والخيلاء والتكاثر وهذا كله من امتلاء
القلب بها لا من كونها فى اليد وامتلاء القلب بها ينافى الشكر ورأس الشكر
تفريغ القلب منها وبالله التوفيق. وامتداد المال كامتداد العمر والجاه فخير

الدنيا من طال عمره وحسن عمله فهكذا من امتد ماله وكثر به خيره فنعم
المرء وماله وجاهه أما أن يرفعه درجات واما أن يضعه درجات. وسر
المسئلة أن طريق الفقر والتقلل طريق سلامه مع الصبر وطريق الغنى
والسعة فى الغالب طريق عطب فان اتقى الله فى ماله ووصل به رحمه
وأخرج منه حق الله وليس مقصوراً على الزكاة بل من حقه اشباع الجائع
وكسوة العارى واغاثة الملهوف واعانة المحتاج والمضطر فطريقه طريق
غنيمة وهى فوق السلامة فمثل صاحب الفقر كمثل مريض قد حبس بمرضه
عن أغراضه فهو يثاب على حسن صبره على حبسه وأما الغنى فخطره
عظيم فى جمعه وكسبه وصرفه فاذا سلم كسبه وحسن أخذه من وجهه
وصرفه فى حقه كان أنفع له فالفقير كالمتعبد المنقطع عن الناس والغنى المنفق
فى وجوه الخير كالمعين والمعلم والمجاهد ولهذا جعله النبى صلى الله عليه وسلم
قرين الذى أتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها فهو أحد المحسودين
الذين لاثالث لهما والجهلة يغبطوا المنقطع المتخلى المقصور النفع على نفسه
ويجعلونه أولى بالحسد من الغنى المنفق والعالم المعلم فان قيل فأيهما أفضل
من يختار الغنى المتصدق والانفاق فى وجوه البر أم من يختار الفقر والتقلل
ليبعد من الفتنة ويسلم من الآفة ويرفه قلبه على الاستعداد للآخرة فلا
يشغله بالدنيا أم من لا يختار لا هذا ولا هذا بل يختار ما اختاره الله له
فلا يعين باختياره واحدا من الامرين قيل هذا موضع اختلف فيه حال
السلف الصالح فمنهم من اختار المال للجهاد به والانفاق وصرفه فى وجوه
البر كعبد الرحمن بن عوف وغيره من مياسير الصحابة وكان قيس بن سعد
يقول اللهم انى من عبادك الذين لايصلحهم الا الغنى ومنهم من اختار

الفقر والتقلل كأبي ذر وجماعة من الصحابة معه وهؤلاء نظروا الى آفات الدنيا وخشوا الفتنة بها وأولئك نظروا الى مصالح الانفاق وثمراته العاجلة والاجلة والفرقة الثالثة لم تختر شيئا بل كان اختيارها ما اختاره الله لها وكذلك اختيار طول البقاء فى الدنيا لاقامة دين الله وعبادته فطائفة اختارته وتمنته وطائفة احبت الموت ولقاء الله والراحة من الدنيا وطائفة ثالثة لم تختر هذا ولا هذا بل اختارت ما يختاره الله لها وكان اختيارهم معلقا بما يريده الله دون مراد معين منهم وهى حال الصديق رضى الله عنه فانهم قالوا له فى مرض موته الا ندعو لك الطبيب فقال قد رآنى قالوا فما قال لك قال قال لى انى فعال لما أريد والأولى حال موسى عليه السلام فانه لما جاءه ملك الموت لطمه ففقأ عينه ولم يكن ذلك حبا منه للدنيا والعيش فيها ولكن لينفذ أوامر ربه ويقيم دينه ويجاهد اعداءه فكأنه قال لملك الموت انت عبد مأمور وأنا عبد مأمور وأنا فى تنفيذ أوامر ربى واقامة دينه فلما عرضت عليه الحياة الطويلة وعلم أن الموت بعده اختار ما اختاره الله له وأما نبينا صلوات الله وسلامه عليه فان ربه أرسل اليه يخيره وكان أعلم الخلق بالله فعلم أن ربه تبارك وتعالى يحب لقاءه ويختاره له فاختار لقاء الله ولو علم أن ربه يحب له البقاء فى الدنيا لتنفيذ أوامره واقامة دينه لما اختار غير ذلك فكان اختياره تابعاً لاختيار ربه عز وجل فكما انه لما خيره ربه عز وجل بين أن يكون ملكا نبيا وبين أن يكون عبداً نبياً وعلم أن ربه يختار له أن يكون عبداً نبيا اختار ما اختاره الله له فكان اختياره فى جميع أموره تابعا لاختيار الله له ولهذا يوم الحديبية احتمل ما احتمل من تلك الشروط ووفى هذا المقام حقه ولم يثبت عليه

من كل وجه الا الصديق فلم يكن له اختيار فى سوى ما اختاره الله له ولاصحابه من تلك الحال التى تقرر الامر عليها فكان راضياً بها مختاراً لها شاهداً اختيار ربه لها وهذا غاية العبودية فشكر الله له ذلك وجعل شكرانه ما بشره به فى أول سورة الفتح حتى هنأه الصحابة به وقالوا هنيئاً لك يا رسول الله وحق له أن يهنأ بأعظم ما هنىء به بشر صلوات الله وسلامه عليه

فصل

ومما ينبغى أن يعلم أن كل خصلة من خصال الفضل فقد أحل الله رسوله صلى الله عليه وسلم فى أعلاها وخصه بذروة سنامها فاذا احتجت بحاله فرقة من فرق الامة التى تعرفت تلك الخصال وتقاسمتها على فضلها على غيرها أمكن الفرقة الاخرى أن تحتج به على فضلها أيضا فاذا احتج به الغزاة والمجاهدون على انهم أفضل الطوائف احتج به العلماء والفقهاء على مثل ما احتج به أولئك واذا احتج به الزهاد والمتخلفون عن الدنيا على فضلهم احتج به الداخلون فى الدنيا والولاية وسياسة الرعية لاقامة دين الله وتنفيذ أمره واذا احت به الفقير الصابر احتج به الغنى الشاكر واذا احتج به أهل العبادة على فضل نوافل العبادة وترجيحها احتج به العارفون على فضل المعرفة واذا احتج به أرباب التواضع والحلم احتج به أرباب العز والقهر للمبطلين والغلظة عليهم والبطش بهم واذا احتج به أرباب الوقار والهيبة والرزانة احتج ارباب الخلق الحسن والمزاح المباح الذى لا يخرج عن الحق وحسن العشرة للأهل والاصحاب واذا احتج

به اصحاب الصدع بالحق والقول به فى المشهد والمغيب احتج به أصحاب
المداراة والحياء والكرم ان يبادروا الرجل بما يكرهه فى وجهه واذا
احتج به المتورعون على الورع المحمود احتج به الميسرون المسهلون الذين
لايخرجون عن سعة شريعته ويسرها وسهولتها واذا احتج به من صرف
عنايته الى اصلاح دينه وقلبه احتج به من راعى اصلاح بدنه ومعيشته
ودنياه فانه صلى الله عليه وسلم بعث بصلاح الدنيا والدين واذا احتج به
من لم يعلق قلبه بالاسباب ولا ركن اليها احتج به من قام بالاسباب
ووضعها مواضعها واعطاها حقها واذا احتج به من جاع وصبر على
الجوع احتج به من شبع وشكر ربه على الشبع واذا احتج به من اخذ
بالعفو والصفح والاحتمال احتج به من انتقم فى مواضع الانتقام واذا
احتج به من أعطى لله ووالى لله احتج به من منع لله وعادى لله واذا احتج
به من لم يدخر شيئاً لغد احتج به من يدخر لأهله قوت سنة واذا احتج
به من يأكل الخشن من القوت والادم كخبز الشعير والخل احتج به من
يأكل اللذيذ الطيب كالشوى والحلوى والفاكهة والبطيخ ونحوه واذا احتج
به من سرد الصوم احتج به من سرد الفطر فكان يصوم حتى يقال لا يفطر
ويفطر حتى يقال لا يصوم واذا احتج به من رغب عن الطيبات والمشتهيات
احتج به من أحب أطيب ما فى الدنيا وهو النساء والطيب واذا احتج
به من ألان جانبه وخفض جناحه لنسائه احتج به من أدبهن والى منهن
وطلق وهجر وخيرهن واذا احتج به من ترك مباشرة أسباب المعيشة
بنفسه احتج به من باشرها بنفسه فآجر واستأجر وباع واشترى واستسلف
وادان ورهن واذا احتج به من يجتنب النساء بالكلية فى الحيض والصيام

احتج به من يباشر امرأته وهى حائض بغير الوطىء ومن يقبل امرأته
وهو صائم واذا احتج به من رحم اهل المعاصى بالقدر احتج به من أقام
عليهم حدود الله فقطع السارق ورجم الزانى وجلد الشارب واذا احتج به
من ارباب الحكم بالظاهر احتج به أرباب السياسة العادلة المبنية على
القرائن الظاهرة فانه حبس فى تهمة وعاقب فى تهمة وأخبر عن نبى الله
سليمان انه عليه السلام حكم بالولد للمرأة بالقرينة الظاهرة مع اعترافها
لصاحبتها به فلم يحكم بالاعتراف الذى ظهر له بطلانه بالقرينة وترجم
ابو عبد الرحمن على الحديث ترجمتين احداهما قال التوسعة للحاكم ان
يقول للشىء الذى لا يفعله افعله ليستبين به الحق ثم قال الحكم بخلاف
مايعترف به المحكوم عليه اذا تبين للحاكم ان الحق غير ما اعترف به
وكذلك الصحابة عملوا بالقرائن فى حياته وبعده فقال على رضى الله عنه
للمرأة التى حملت كتاب حاطب لتخرجن الكتاب أو لاجردنك وحد
عمر رضى الله عنه فى الزنا بالحبل وفى الخمر بالرائحة وحكى الله سبحانه عن
شاهد يوسف حكاية مقرر عن منكر انه حكم بقرينة شق القميص من
دبر على براءته وقال صلى الله عليه وسلم لابن أبى الحقيق وقد زعم ان النفقة
أذهبت كنز حيى بن أخطب العهد قريب والمال أكثر من ذلك فاعتبر
قرينتين دالتين على بقاء المال وعاقبه حتى أقر به وجوز لأولياء القتيل
ان يحلفوا على رجل انه قتله ويقتلونه به بناء على القرائن المرجحة صدقهم
وشرع الله سبحانه رجم المرأة اذا شهد عليها زوجها فى اللعان وأبت ان
تلاعن للقرينة الظاهرة على صدقه وشريعته صلى الله عليه وسلم طافحة

بذلك لمن تأملها فالحكم بالقرائن الظاهرة من نفس شريعته وما جاء به
فهو حجة لقضاة الحق وولاة العدل كما انه حجة على قضاة السوء وولاة
الجور والله المستعان والمقصود بهذا الفصل انه ليس الفقراء الصابرون
بأحق به صلى الله عليه وسلم من الأغنياء الشاكرين وأحق الناس به أعلمهم
بسنته وأتبعهم لها وبالله التوفيق

الباب الخامس والعشرون

في بيان الأمور المضادة للصبر والمنافية له والقادحة فيه

لما كان الصبر حبس اللسان عن الشكوى الى غير الله والقلب عن التسخط
والجوارح عن اللطم وشق الثياب ونحوها كان مايضاده واقعاً على هذه
الجملة فمنه الشكوى الى المخلوق فاذا شكى العبد ربه الى مخلوق مثله فقد
شكى من يرحمه الى من لايرحمه ولا تضاده الشكوى الى الله كما تقدم في
شكاية يعقوب الى الله مع قوله فصبر جميل وأما أخبار المخلوق بالحال
فان كان للاستعانة بارشاده أو معاونته والتوصل الى زوال ضرورة لم يقدح
ذلك في الصبر كأخبار المريض للطبيب بشكايته وأخبار المظلوم لمن ينتصر
به بحاله وأخبار المبتلى ببلائه لمن كان يرجو ان يكون فرجه على يديه
وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا دخل على المريض يسأله عن حاله
ويقول كيف تجدك وهذا استخبار منه واستعلام بحاله وأما الأنين فهل
يقدح في الصبر فيه روايتان عن الامام احمد قال ابو الحسين أصحهما
الكراهة لما روى عن طاوس انه كان يكره الأنين في المرض وقال مجاهد
كل شيء يكتب على ابن آدم مما يتكلم حتى أنينه في مرضه قال هؤلاء

وان الأنين شكوى بلسان الحال ينافي الصبر وقال عبدالله بن الامام احمد
قال لي أبي في مرضه الذي توفي فيه أخرج الى كتاب عبدالله بن ادريس
فأخرجت الكتاب فقال أخرج أحاديث ليث بن أبي سليم فأخرجت
أحاديث ليث فقال اقرأ علي أحاديث ليث قال قلت لطلحة ان طاوس كان
يكره الأنين في المرض فما سمع له أنين حتى مات فما سمعت أبي أنّ في مرضه
ذلك الى ان توفي والرواية الثانية انه لايكره ولا يقدح في الصبر قال بكر
ابن محمد عن أبيه سئل احمد عن المريض يشكو مايجد من الوجع فقال
تعرف فيه شيئاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم حديث عائشة
وارأساه وجعل يستحسنه وقال المروذي دخلت على أبي عبد الله وهو
مريض فسألته فتغرغرت عينه وجعل يخبرني ما مر به في ليلته من العلة
والتحقيق ان الأنين على قسمين أنين شكوى فيكره وأنين استراحة
وتفريج فلا يكره والله أعلم وقد روى في أثر ان المريض اذا بدأ بحمد الله
ثم أخبر بحاله لم يكن شكوى وقال شقيق البلخي من شكى من مصيبة
نزلت به الى غير الله لم يجد في قلبه حلاوة لطاعة الله أبداً

فصل

والشكوى نوعان شكوى بلسان القال وشكوى بلسان الحال
ولعلها أعظمها ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم من أنعم عليه أن يظهر
نعمة الله عليه وأعظم من ذلك من يشتكي ربه وهو بخير فهذا أمقت
الخلق عند ربه قال الامام احمد حدثنا عبدالله بن يزيد حدثنا كهمس عن عبدالله
ابن شقيق قال قال كعب الاحبار ان من حسن العمل سبحة الحديث ومن

ثمر العمل التحذيف قيل لعبدالله ماسبحة الحديث قال سبحان الله وبحمده في خلال الحديث قيل فما التحذيف قال يصبح الناس بخير فيسئلون فيزعمون انهم بشر

فصل

ومما ينافي الصبر شق الثياب عند المصيبة ولطم الوجه والضرب باحدى اليدين على الاخرى وحلق الشعر والدعاء بالويل ولهذا برىء النبي صلى الله عليه وسلم ممن صلق وحلق وخرق صلق رفع صوته عند المصيبة وحلق رأسه وشق ثيابه ولا ينافيه البكاء والحزن قال الله تعالى عن يعقوب وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم قال قتادة كظيم على الحزن فلم يقل الا خيرا وقال حماد بن سلمة عن على ابن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما كان من العين ومن القلب فمن الله والرحمة وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان وقال هشيم عن عبد الرحمن بن يحيى عن حسان بن أبى جبلة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من بث فلم يصبر وقال خالد بن ابى عثمان مات ابن لى فرآنى سعيد بن جبير متقنعا فقال اياك والتقنيع فانه من الاستكانة وقال بكر ابن عبد الله المزنى كان يقال من الاستكانة الجلوس فى البيت بعد المصيبة وقال عبيد بن عمير ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب ولكن الجزع القول السيء والظن السيء وسئل القاسم بن محمد عن الجزع فقال القول السيء والظن السيء ومات ابن لبعض قضاة البصرة فاجتمع اليه العلماء والفقهاء فتذاكروا مايتبين به جزع الرجل من صبره فأجمعوا انه

اذا ترك شيئا مما كان يصنعه فقد جزع وقال الحسين بن عبدالعزيز الحورى مات ابن لى نفيس فقلت لامه اتقى الله واحتسبيه واصبرى فقالت مصيبتى به أعظم من أن أفسدها بالجزع وقال عبدالله بن المبارك أتى رجل يزيد ابن يزيد وهو يصلى وابنه فى الموت فقال ابنك يقضى وانت تصلى فقال ان الرجل اذا كان له عمل يعمله فتركه يوما واحداً كان ذلك خللا فى عمله وقال ثابت أصيب عبدالله بن مطرف بمصيبة فرأيته احسن شيء شارة وأطيبه ريحا فذكرت له مارأيت فقال تأمرنى يا أبا محمد ان استكين للشيطان وأريه انه قد أصابنى سوء والله يا ابا محمد لو كانت لى الدنيا كلها ثم أخذها منى ثم سقانى شربة يوم القيامة مارأيتها ثمنا لتلك الشربة ومما يقدح فى الصبر اظهار المصيبة والتحدث بها وكتمانها رأس الصبر وقال الحسن بن الصباح فى مسنده حدثنا خلف بن تميم حدثنا زافر بن سليمان عن عبد العزيز بن ابى رواد عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من البر كتمان المصائب والامراض والصدقة وذكر انه من بث فلم يصبر وروى من وجه آخر عن الحسن يرفعه من البر كتمان المصايب وما صبر من بث ولما نزل فى احدى عينى عطاء الماء مكث عشرين سنة لا يعلم به أهله حتى جاء ابنه يوما من قبل عينه فعلم ان الشيخ قد أصيب ودخل رجل على داود الطائى فى فراشه فرآه يرجف فقال انا لله وانا اليه راجعون فقال مه لا تعلم بهذا أحداً وقد اقعد قبل ذلك أربعة اشهر لا يعلم بذلك أحد وقال مغيرة شكى الاحنف الى عمه وجع ضرسه فكرر ذلك عليه فقال ما تكرر على لقد ذهبت عينى منذ اربعين سنة فما شكوتها الى أحد

فصل

ويضاد الصبر الهلع وهو الجزع عند ورود المصيبة والمنع عندورود
النعمة قال تعالى (ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشرجزوعا واذامسه
الخير منوعا)وهذا تفسيرالهلوع قال الجوهرى الهلع أفحش الجزع وقدهلع
بالكسر فهو هلع وهلوع وفى الحديث شر مافى العبد شح هالع وجبن
خالع قلت هنا امران أمر لفظى وأمر معنوى فأما اللفظى فانه وصف
الشح بكونه هالعا والهالع صاحبه واكثر مايسمى هلوعا ولا يقال هالع
له فانه لايتعدى ففيه وجهان أحدهما انه على النسب كقولهم ليل نائم
وسر كاتم ونهار صائم ويوم عاصف كله عندسيبويه على النسب أى ذوكذا
كما قالوا تامر ولابن والثانى ان اللفظة غيرت عن بابها للازدواج مع خالع
وله نظير واما المعنوى فان الشح والجبن أردى صفتين فى العبد ولا سيما
اذا كان شحه هالعا أى ملق له فى الهلع وجبنه خالع أى قدخلع قلبه من
مكانة فلا سماحة ولا شجاعة ولا نفع بماله ولا ببدنه كما يقال لاطعنة ولا
جفنة ولا يطرد ولا يشرد بل قدقمعهوصغره وحقرهودساه الشح والخوف
والطمع والفزع واذا أردت معرفة الهلوع فهو الذى اذا أصابه الجوع مثلا
أظهر الاستجاعة وأسرع بها واذا أصابه الالم أسرع الشكاية وأظهرها
واذا اصابه القهر أظهر الاستظامة والاستكانة وباء بها سريعا واذا أصابه
الجوع أسرع الانطراح على جنبه وأظهر الشكاية واذا بدا له ماخذ طمع
طار اليه سريعا واذا ظفر به أحله من نفسه محل الروح فلا احتمال ولا
افضال وهذا كله من صغر النفس ودناءتها وتدسيسها فى البدن واخفائها
وتحقيرها والله المستعان

الباب السادس والعشرون

فى بيان دخول الصبر والشكر فى صفات الرب جل جلاله وتسميته
بالصبور والشكور ولولم يكن للصبر والشكر من الفضيلة الا ذلك لكفى
به أما الصبر فقد أطلقه عليه أعرف الخلق به وأعظمهم تنزيها له بصيغة
المبالغة ففى الصحيحين من حديث الاعمش عن سعيد ابن جبير عن أبى
عبد الرحمن السلمى عن أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ما أحد
أصبر على أذى سمعه من الله عزوجل يدعون له ولدا وهو يعافيهم ويرزقهم
وفى أسمائه الحسنى الصبور وهو من امثلة المبالغة ابلغ من الصابر والصبار
وصبره تعالى يفارق صبر المخلوق ولا يماثله من وجوه متعددة منها انه عن
قدرة تامة ومنها انه لايخاف الفوت والعبد انما يستعجل الخوف الفوت
ومنها انه لايلحقه بصبره ألم ولا حزن ولا نقص بوجه ما وظهور اثر
الاسم فى العالم مشهود بالعيان كظهور اسمه الحليم والفرق بين الصبر
والحلم ان الصبر ثمرة الحلم وموجبه فعلى قدر حلم العبد يكون صبره
فالحلم فى صفات الرب تعالى أوسع من الصبر ولهذا جاء اسم الحليم فى القرآن
فى غير موضع ولسعته يقرنه سبحانه باسم العليم كقوله وكان الله عليما حكيما
والله عليم حليم وفى اثر ان حملة العرش اربعة اثنان يقولان سبحانك اللهم
وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك واثنان يقولان سبحانك اللهم
وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك فان المخلوق يحلم عن جهل ويعفو
عن عجز والرب تعالى يحلم مع كمال علمه ويعفو مع تمام قدرته وما أضيف
شىء الى شىء أزين من حلم الى علم ومن عفو الى اقتدار ولهذا كان فى

دعاء الكرب وصف سبحانه بالحلم مع العظمة وكونه حليما من لوازم
ذاته سبحانه وأما صبره سبحانه فتعلق بكفر العباد وشركهم ومسبتهم
له سبحانه وأنواع معاصيهم وفجورهم فلا يزعجه ذلك كله الى تعجيل
العقوبة بل يصبر على عبده ويمهله ويستصلحه ويرفق به ويحلم عنه حتى
اذا لم يبق فيه موضع للصنيعة ولا يصلح على الامهال والرفق والحلم ولا
ينيب الى ربه ويدخل عليه لا من باب الاحسان والنعم ولا من باب
البلاء والنقم أخذه أخذ عزيز مقتدر بعد غاية الاعذار اليه وبذل النصيحة
له ودعائه اليه من كل باب وهذا كله من موجبات صفة حلمه وهى
صفة ذاتية له لا تزول وأما الصبر فاذا زال متعلقه كان كسائر الافعال
التي توجد لوجود الحكمة وتزول بزوالها فتأمله فانه فرق لطيف ما عثرت
الحذاق بعشره وقل من تنبه له ونبه عليه وأشكل على كثير منهم هذا
الاسم وقالوا لم يأت في القرآن فاعرضوا عن الاشتغال به صفحا ثم
اشتغلوا بالكلام فى صبر العبد وأقسامه ولو انهم أعطوا هذا الاسم حقه
لعلموا ان الرب تعالى أحق به من جميع الخلق كما هو أحق باسم العليم
والرحيم والقدير والسميع والبصير والحى والملك وسائر اسمائه الحسنى
من المخلوقين وان التفاوت الذى بين صبره سبحانه وصبرهم كالتفاوت
الذي بين حياته وحياتهم وعلمه وعلمهم وسمعه وأسماعهم وكذا سائر صفاته
ولما علم ذلك أعرف خلقه به قال لا احد أصبر على أذى سمعه من الله فعلم
أرباب البصائر بصبره سبحانه كعلمهم برحمته وعفوه وستره مع انه صبر
مع كمال علم وقدرة وعظمة وعزة وهو صبر عن أعظم مصبور عليه
فان مقابلة أعظم العظماء وملك الملوك وأكرم الاكرمين ومن احسانه فوق

كل احسان بغاية القبيح وأعظم الفجور وأفحش الفواحش ونسبته الى كل
ما لا يليق به والقدح فى كماله وأسمائه وصفاته والالحاد فى آياته وتكذيب
رسله عليهم السلام ومقابلتهم بالسب والشتم والاذى وتحريق أوليائه
وقتلهم واهانتهم أمر لا يصبر عليه الا الصبور الذى لا أحد أصبر منه ولا
نسبة لصبر جميع الخلق من أولهم الى آخرهم الى صبره سبحانه واذا أردت
معرفة صبر الرب تعالى وحلمه والفرق بينهما فتأمل قوله تعالى « ان الله
يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من
بعده انه كان حليما غفورا » وقوله « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا
اداً تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا ان دعوا
للرحمن ولدا » وقوله « وان كان مكرهم لتزول منه الجبال » على قراءة من فتح
اللام فأخبر سبحانه ان حلمه ومغفرته يمنعان زوال السموات والارض
فالحلم وأمسكهما وأمسكهما أن تزولا هو الصبر فبحلمه صبر عن
معاجلة اعدائه وفى الآية اشعار بأن السموات والارض تهم وتستأذن
بالزوال لعظم ما يأتى به العباد فيمسكهما بحلمه ومغفرته وذلك حبس
عقوبته عنهم وهو حقيقة صبره تعالى فالذى عنه الامساك هو صفة الحلم
والامساك هو الصبر وهو حبس العقوبة ففرق بين حبس العقوبة وبين
ما صدر عنه حبسها فتأمله . وفى مسند الامام احمد مرفوعا ما من يوم
الا والبحر يستأذن ربه ان يغرق بنى آدم وهذا مقتضى الطبيعة لان كرة
الماء تعلو كرة التراب بالطبع ولكن الله يمسكه بقدرته وحلمه وصبره
وكذلك خرور الجبال وتفطير السموات الرب تعالى يحبسها عن ذلك

بصبره وحلمه فان مايأتى به الكفار والمشركون والفجار فى مقابلة العظمة والجلال والاكرام يقتضى ذلك فجعل سبحانه فى مقابلة هذه الاسباب أسبابا يحبها ويرضاها ويفرح بها أكمل فرح وأتمه تقابل تلك الاسباب التى هى سبب زوال العالم وخرابه فدفعت تلك الاسباب وقاومتها وكان هذا من آثار مدافعة رحمته لغضبه وغلبتها له وسبقها اياه فغلب أثر الرحمة أثر الغضب كما غلبت الرحمة الغضب ولهذا استعاذ النبى صلى الله عليه وسلم بصفة الرضا من صفة السخط وبفعل المعافاة من فعل العقوبة ثم جمع الامرين فى الذات اذ هما قائمان بها فقال أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفوك من عقوبتك وأعوذ بك منك فان مايستعاذ به هو صادر عن مشيئته وخلقه باذنه وقضائه فهو الذى أذن فى وقوع الاسباب التى يستعاذ منها خلقا وكونا فمنه السبب والمسبب وهو الذى حرك الانفس والابدان وأعطاها قوى التأثير وهو الذى أوجدها وأعدها وأمدها وسلطها على ماشاء وهو الذى يمسكها اذا شاء ويحول بينها وبين قواها وتأثيرها فتأمل ماتحت قوله أعوذ بك منك من محض التوحيد وقطع الالتفات الى غيره وتكميل التوكل عليه تعالى والاستعانة به وحده وافراده بالخوف والرجاء ودفع الضر وجلب الخير وهو الذى يمس بالضر بمشيئته وهو الذى يدفعه بمشيئته وهو المستعاذ بمشيئته من مشيئته وهو المعيذ من فعله بفعله وهو الذى سبحانه خلق مايصبر عليه ومايرضى به فاذا أغضبه معاصى الخلق وكفرهم وشركهم وظلمهم ارضاه تسبيح ملائكته وعباده المؤمنين له وحمدهم اياه وطاعتهم له فيعيذ رضاه من غضبه قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ليس عند ربكم ليل ولا نهار نور السموات والارض من

نور وجهه وان مقدار يوم من ايامكم عنده اثنتا عشرة ساعة فتعرض عليه أعمالكم بالامس اول النهار اليوم فينظر فيها ثلاث ساعات فيطلع منها على مايكره فيغضبه ذلك فأول مايعلم بغضبه حملة العرش يجدونه يثقل عليهم فيسبحه حملة العرش وسرادقات العرش والملائكة المقربون وسائر الملائكة حتى ينفخ جبريل فى القرن فلا يبقى شىء الايسمع صوته فيسبحون الرحمن ثلاث ساعات حتى يمتلئ الرحمن رحمة فتلك ست ساعات قال ثم يؤتى بالارحام فينظر فيها ثلاث ساعات فذلك قوله تعالى هو الذى يصوركم فى الارحام كيف يشاء يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما فتلك تسع ساعات ثم يؤتى بالارزاق فينظر فيها ثلاث ساعات فذلك قوله « يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » وقوله « كل يوم هو فى شأن » قال هذا شأنكم وشأن ربكم رواه ابو القاسم الطبرانى فى السنة وعثمان بن سعيد الدارمى وشيخ الاسلام الانصارى وابن مندة وابن خزيمة وغيرهم ولما ذكر سبحانه فى سورة الانعام اعداءه وكفرهم وشركهم وتكذيب رسله ذكر فى اثر ذلك شأن خليله ابراهيم وما أراه من ملكوت السموات والارض وما حاج به قومه فى اظهار دين الله وتوحيده ثم ذكر الانبياء من ذريته وانه هداهم وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة ثم قال فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين فأخبر انه سبحانه كما جعل فى الارض من يكفر به ويجحد توحيده ويكذب رسله كذلك جعل فيها من عباده من يؤمن بما كفر به اولئك ويصدق بما كذبوا به ويحفظ من حرماته ما أضاعوه وبهذا تماسك العالم العلوى والسفلى والا فلو اتبع الحق أهواء اعدائه لفسدت

السموات والارض ومن فيهن ولخرب العالم ولهذا جعل سبحانه من أسباب
خراب العالم رفع الاسباب الممسكة له من الارض وهى كلامه وبيته ودينه
والقائمون به فلا يبقى لتلك الاسباب المقتضية لخراب العالم أسباب تقاومها
وتمانعها ولما كان اسم الحليم ادخل فى الاوصاف واسم الصبور فى الافعال
كان الحلم اصل الصبر فوقع الاستغناء بذكره فى القرآن عن اسم الصبور
والله اعلم

فصل

وأما تسميته سبحانه بالشكور فهو فى حديث أبى هريرة وفى القرآن
تسميته شاكراً . قال الله تعالى وكان الله شاكراً عليما وتسميته أيضاً
شكور قال الله تعالى والله شكور حليم وقال تعالى ان هذا كان لكم
جزاء وكان سعيكم مشكوراً فجمع لهم سبحانه بين الأمرين ان شكر سعيهم
وأثابهم عليه والله تعالى يشكر عبده اذا أحسن طاعته ويغفر له اذا تاب
اليه فيجمع للعبد بين شكره لاحسانه ومغفرته لاساءته انه غفور شكور
وقد تقدم فى الباب العشرين ذكر حقيقة شكر العبد وأسبابه ووجوهه
وأما شكر الرب تعالى فله شأن آخر كشأن صبره فهو أولى بصفة الشكر
من كل شكور بل هو الشكور على الحقيقة فانه يعطى العبد ويوفقه لما
يشكره عليه ويشكر القليل من العمل والعطاء فلا يستقله ان يشكره
ويشكر الحسنة بعشر أمثالها الى أضعاف مضاعفة ويشكر عبده بقوله
بأن يثنى عليه بين ملائكته وفى ملائه الأعلى ويلقى له الشكر بين عباده
ويشكره بفعله فاذا ترك له شيئاً أعطاه أفضل منه واذا بذل له شيئاً رده

عليه أضعافا مضاعفة وهو الذى وفقه للترك والبذل وشكره
على هذا وهذا ولما عقر نبيه سليمان الخيل غضبا له اذ شغلته عن ذكره
فأراد ألا تشغله مرة أخرى أعاضه عنها متن الريح ولما ترك الصحابة ديارهم
وخرجوا منها فى مرضاته أعاضهم عنها ان ملكهم الدنيا وفتحها عليهم
ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن له شكر له ذلك بان مكن له في
الارض يتبوأ منها حيث يشاء ولما بذل الشهداء أبدانهم له حتى مزقتها
أعداؤه شكر لهم ذلك بأن أعاضهم منها طيراً خضراً أقر أرواحهم فيها
ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها الى يوم البعث فيردها عليهم أكمل
ماتكون وأجمله وأبهاه ولما بذل رسله اعراضهم فيه لاعدائهم فنالوا منهم
وسبوهم أعاضهم من ذلك بأن صلى عليهم هو وملائكته وجعل لهم أطيب
الثناء فى سمواته وبين خلقه فأخلصهم بخالصة ذكرى الدار ومن شكره
سبحانه انه يجازى عدوه بما يفعله من الخير والمعروف فى الدنيا ويخفف
به عنه يوم القيامة فلا يضيع عليه مايعمله من الاحسان وهو من أبغض
خلقه اليه ومن شكره انه غفر للمرأة البغى بسقيها كلبا كان قد جهده
العطش حتى أكل الثرى وغفر لآخر بتنحيته غصن شوك عن طريق
المسلمين فهو سبحانه يشكر العبد على احسانه لنفسه والمخلوق انما يشكر
من أحسن اليه وأبلغ من ذلك انه سبحانه هو الذى أعطى العبد مايحسن
به الى نفسه وشكره بل شكره على قليله بالاضعاف المضاعفة التى لانسبة
لاحسان العبد اليها فهو المحسن باعطاء الاحسان واعطاء الشكر فمن أحق
باسم الشكور منه سبحانه وتأمل قوله سبحانه مايفعل الله بعذابكم ان
شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليما كيف تجد فى ضمن هذا الخطاب

ان شكره تعالى يأبى تعذيب عباده سدى بغير جرم كما يأبى اضاعة سعيهم باطلا فالشكور لا يضيع أجر محسن ولا يعذب غير مسيء وفي هذا رد لقول من زعم انه سبحانه يكلفه ما لا يطيقه ثم يعذبه على ما لا يدخل تحت قدرته تعالى الله عن هذا الظن الكاذب والحسبان الباطل علواً كبيراً . فشكره سبحانه اقتضى ان لا يعذب المؤمن الشكور ولا يضيع عمله وذلك من لوازم هذه الصفة فهو منزه عن خلاف ذلك كما تنزه عن سائر العيوب والنقائص التي تنافي كماله وغناه وحمده ومن شكره سبحانه انه يخرج العبد من النار بأدنى مثقال ذرة من خير ولا يضيع عليه هذا القدر ومن شكره سبحانه ان العبد من عباده يقوم له مقاماً يرضيه بين الناس فيشكره له وينوه بذكره ويخبر به ملائكته وعباده المؤمنين كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام وأثنى به عليه ونوه بذكره بين عباده وكذلك شكره لصاحب يس مقامه ودعوته اليه فلا يهلك عليه بين شكره ومغفرته الا هالك فانه سبحانه غفور شكور يغفر الكثير من الزلل ويشكر القليل من العمل ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة كان أحب خلقه اليه من اتصف بصفة الشكر كما ان أبغض خلقه اليه من عطلها واتصف بضدها وهذا شأن أسمائه الحسنى أحب خلقه اليه من اتصف بموجبها وأبغضهم اليه من اتصف بأضدادها ولهذا يبغض الكفور والظالم والجاهل والقاسي القلب والبخيل والجبان والمهين واللئيم وهو سبحانه جميل يحب الجمال عليم يحب العلماء رحيم يحب الراحمين محسن يحب المحسنين شكور يحب الشاكرين صبور يحب الصابرين جواد يحب أهل الجود ستير يحب أهل الستر قادر يلوم على العجز والمؤمن القوى أحب

اليه من المؤمن الضعيف عفو يحب العفو وتر يحب الوتر وكل ما يحبه من آثار أسمائه وصفاته وموجبها وكل ما يبغضه فهو مما يضادها وينافيها

خاتمة

يا من عزم على السفر الى الله والدار الآخرة قد رفع لك علم فشمر اليه فقد أمكن التشمير واجعل سيرك بين مطالعة منته ومشاهدة عيب النفس والعمل والتقصير فما أبقى مشهد النعمة . والذنب للعارف من حسنة يقول هذه منجيتى من عذاب السعير . ما المعول الا على عفوه ومغفرته فكل أحد اليهما فقير أبوء لك بنعمتك علىّ وأبوء بذنبي فاغفر لي أنا المذنب المسكين وأنت الرحيم الغفور . ماتساوى أعمالك لو سلمت مما يبطلها أدنى نعمة من نعمه عليك وأنت مرتهن بشكرها من حين أرسل بها اليك فهل رعيتها بالله حق رعايتها وهي في تصريفك وطوع يديك فتعلق بحبل الرجاء وادخل من باب التوبة والعمل الصالح انه غفور شكور . نهج للعبد طريق النجاة وفتح له أبوابها وعرفه طرق تحصيل السعادة وأعطاه أسبابها وحذره من وبال معصيته وأشهده في نفسه وفي غيره شؤمها وعقابها وقال ان أطعت فبفضلي وأنا أشكر وان عصيت فبقضائي وأنا أغفر ان ربنا لغفور شكور أزاح عن العبد العلل وأمره أن يستعيذ به من العجز والكسل ووعده ان يشكر له القليل من العمل ويغفر له الكثير من الزلل ان ربنا لغفور شكور أعطاه مايشكر عليه ثم يشكره على احسانه الى نفسه لا على احسانه اليه ووعده على احسانه لنفسه ان يحسن جزاءه ويقربه لديه وان يغفر له خطاياه اذا تاب منها ولا يفضحه بين يديه ان ربنا

غفور شكور وثقت بعفوه هفوات المذنبين فوسعتها وعكفت بكرمه
آمال المحسنين فما قطع طمعها أو خرقت السبع الطباق دعوات التائبين والسائلين
فسمعها ووسع الخلائق عفوه ومغفرته ورزقه فما من دابة فى الارض الا
على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ان ربنا لغفور شكور يجود
على عبيده بالنوال قبل السؤال ويعطى سائله ومؤمله فوق ماتعلقت به
منهم الآمال ويغفر لمن تاب اليه ولو بلغت ذنوبه عدد الامواج والحصا
والتراب والرمال ان ربنا لغفور شكور . ارحم بعباده من الوالدة بولدها
وافرح بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الارض
المهلكة اذا وجدها وأشكر للقليل من جميع خلقه فمن تقرب اليه بمثقال
ذرة من الخير شكرها وحمدها ان ربنا لغفور شكور تعرف الى عباده
بأسمائه وأوصافه وتحبب اليهم بحلمه وآلائه ولم تمنعه معاصيهم بأن جاد
عليهم بآلائه ووعد من تاب اليه وأحسن طاعته بمغفرة ذنوبه يوم لقائه
ان ربنا لغفور شكور السعادة كلها فى طاعته والارباح كلها فى معاملته
والمحن والبلايا كلها فى معصيته ومخالفته فليس للعبد أنفع من شكره
وتوبته ان ربنا لغفور شكور افاض على خلقه النعمة وكتب على نفسه
الرحمة وضمن الكتاب الذى كتبه ان رحمته تغلب غضبه ان ربنا لغفور
شكور يطاع فيشكر وطاعته من توفيقه وفضله ويعصى فيحلم ومعصية
العبد من ظلمه وجهله ويتوب اليه فاعل القبيح فيغفر له حتى كأنه لم يكن
قط من اهله ان ربنا لغفور شكور الحسنة عنده بعشر امثالها أو يضاعفها
بلا عدد ولا حسبان والسيئة عنده بواحدة ومصيرها الى العفو والغفران
وباب التوبة مفتوح لديه منذ خلق السموات والارض الى آخر الزمان

ان ربنا لغفور شكور بابه الكريم مناخ الآمال ومحط الأوزار وسماء
عطاياه لا تقلع عن الغيث بل هى مدرار ويمينه ملأى لا تغيضها نفقة سحاء
الليل والنهار ان ربنا لغفور شكور لا يلقى وصاياه الا الصابرون ولا يفوز
بعطاياه الا الشاكرون ولا يهلك عليه الا الهالكون ولا يشقى بعذابه
الا المتمردون ان ربنا لغفور شكور فاياك أيها المتمرد ان يأخذك على غرة
فانه غيور واذا أقمت على معصيته وهو يمدك بنعمته فاحذره فانه لم يهملك
لكنه صبور وبشراك أيها التائب بمغفرته ورحمته انه غفور شكور من
علم ان الرب شكور تنوع فى معاملته ومن عرف انه واسع المغفرة تعلق
بأذيال مغفرته ومن علم ان رحمته سبقت غضبه لم ييئس من رحمته ان
ربنا لغفور شكور من تعلق بصفة من صفاته أخذته بيده حتى تدخله
عليه ومن سار اليه بأسمائه الحسنى وصل اليه ومن أحبه أحب اسماءه
وصفاته وكانت آثر شىء لديه حياة القلوب فى معرفته ومحبته وكمال الجوارح
فى التقرب اليه بطاعته والقيام بخدمته والألسنة بذكره والثناء عليه بأوصاف
مدحته فأهل شكره اهل زيادته وأهل ذكره اهل مجالسته واهل طاعته
اهل كرامته واهل معصيته لا يقنطهم من رحمته ان تابوا فهو حبيبهم
وان لم يتوبوا فهو طبيبهم يبتليهم بأنواع المصائب ليكفر عنهم الخطايا
ويطهرهم من المعائب انه غفور شكور والحمد لله رب العالمين حمداً كثيرا
طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى وكما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله حمداً
يملأ السموات والأرض وما بينهما وماشاء ربنا من شىء بعد بمجامع حمده
كلها ما علمنا منها وما لم نعلم على نعمه كلها ما علمنا منها وما لم نعلم عدد

ما حمد الحامدون وغفل عن ذكره الغافلون وعدد ما جرى به قلمه وأحصاه كتابه وأحاط به علمه وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وعلى سائر الانبياء والمرسلين ورضى الله عن التابعين لهم باحسان الى يوم الدين

تم الكتاب المسمى بعدة الصابرين وذخيرة الشاكرين
تصنيف عمدة المحققين وشمس الدين بن القيم رحمه
الله تعالى وجزاه عن المسلمين خيراً آمين على
يد الفقير الى الله المعترف بالعجز والتقصير
الراجى رحمة ربه اللطيف الخبير عبده
ابن عبده وابن أمته ومن لا غناء له
عن ربه طرفة عين عبد الله
ابن رشيد بن فرج آل زايد
غفر الله له ولوالديه
ومشايخه واخوانه
فى الله

فهرس كتاب عدة الصابرين

*

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

المكتبة والمجلة والمطبعة السلفية

المكتبة السلفية : مستعدة لتقديم كل مايطلب منها من : كتب الدين والعلم والادب والتاريخ والاجتماع : وفيها أدوات للكتابة : وكتب مدرسية - وكثير من الكتب المخطوطة النادرة
ولها معمل تجليد مستعد لجميع الطلبات

المجلة السلفية : تنقل عن أهم المخطوطات وآثار السلف . وقد تمت سنتها الاولى والثانية

تقويم المجلة السلفية : هو أول تقويم علمي صدر في هذه الأيام مبنياً على الصحيح من قواعد علم الفلك عند حكماء العرب وفقهاء المسلمين وقد صدر منه تقويم السنة الأولى وهو يقع في ٩٦ صفحة وثمنه خمسة قروش صاغ - وتقويم السنة الثانية ثمنه أيضاً خمسة قروش - ماعدا أجرة البريد

المطبعة السلفية : مستعدة لطبع كل مايطلب منها مع النظافة والسرعة والاتقان

والرجا أن ترسل جميع الرسائل والحوالات باسم :

محب الدين الخطيب وقصي محب الدين
(صندوق البوسطة رقم ٣٧٥) بمصر

المكتبة والمجلة والمطبعة السلفية

